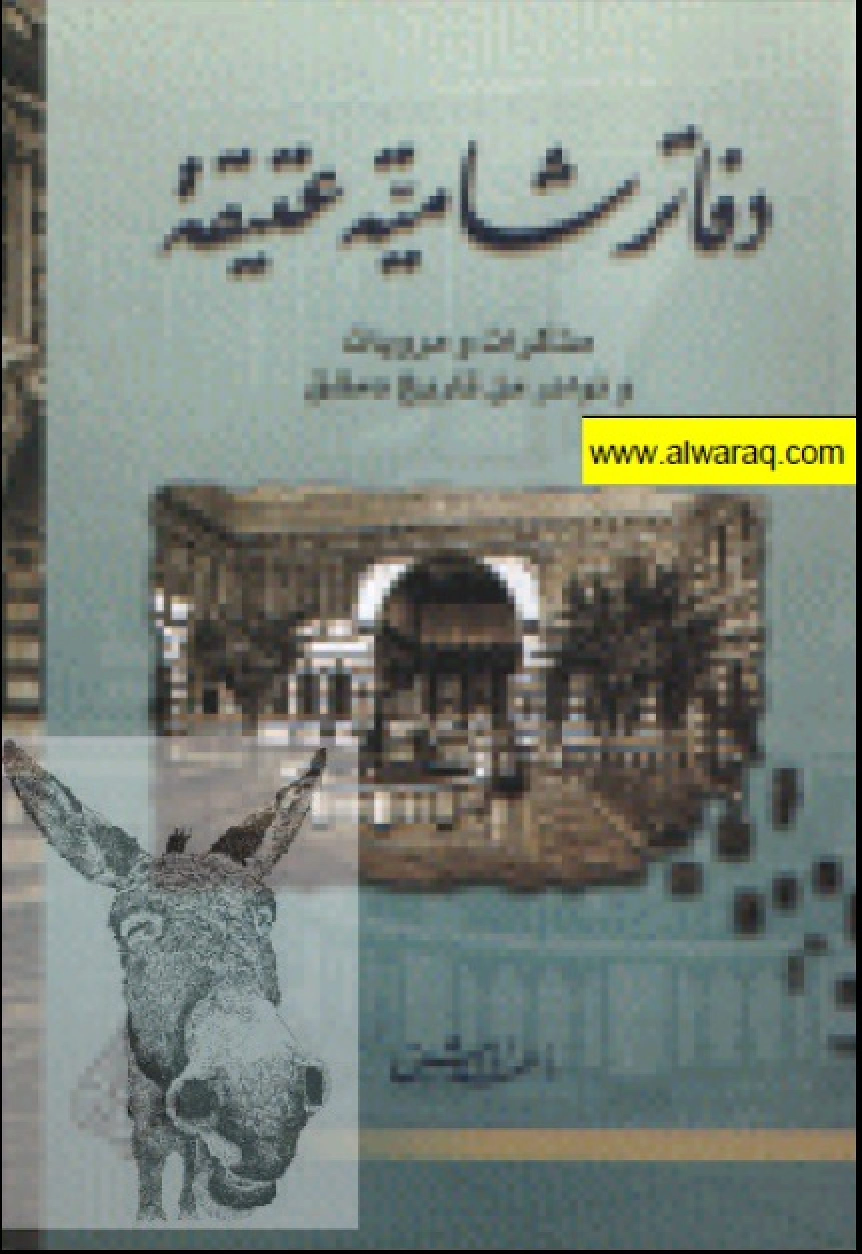

دفاتر شامية عتيقة
مذكرات و مرويات
و مواضيع عن تاريخ دمشق
www.alwaraq.com

هذا الكتاب

ظمئ الشَّرقُ فيا شامُ اسكُبي	واملأي الكأسَ لهُ حتى الجَمَام
أهلُكِ التّاريخُ من فَضْلَتهم	ذكرُهم في عُروة الدّهر وسَام
أمويّون فإن ضقتِ بهم	ألحقوا الدُّنيا ببُستان هشام

هذي هي دمشق .. دمشق التي كانت يوماً عاصمة للدولة العربية الإسلامية الجبّارة ، دانت لها أقطار العالم ، فانضوت شعوبه تحت لوائها الخفّاق ؛ وبلغت حدودها في مطلع القرن الثاني الهجري ، من جبال القفقاس شمالاً إلى الصّحراء الأفريقية الكبرى جنوباً ، ومن سور الصين العظيم شرقاً إلى مياه الأطلسي غرباً .

دمشقُ ، موئل العروبة والمسيحيّة والإسلام ، دمشقُ التي صنعت للعرب مجدهم ، وكتبتْ بحروف من نور باكورة تاريخهم . دمشقُ التي روّى ترابها شُهداء الفتح في اليرموك ووادي الصُّفَّر ، دمشقُ التي تكسّرت أمام أعتابها أحلام الغزاة وتبدّدت آمالهم ، دمشقُ التي انطلق منها الجيش المظفّر الذي قاده بطل الأبطال وسيّد الرّجال النّاصر صلاح الدين ، فسحق الصليبيين في حطّين وحرّر القدس الشريف ، بعد مئة عام من رجس الاحتلال .

هي دمشقُ التي تتوضّأ بالعروبة خمس مرّات في كل يوم ، دمشقُ التي رامها الملوك ليُخضعوها فأخضعتهم ، وقصدها الجبابرة فأعجزتهم ، ثم لم يهنها أو ينتقص من علياء شرفها أن تمنح روحها وأسرارها لمحبّيها وعاشقيها .

أنا من عُشّاق دمشق ..

وهذا هو كتابي الثامن عنها . وقعتُ في هواها عام 1979 ، بعد كتاب قرأتُه عنها ،

وكُتُب قرأتُها بين حاراتها ووجوه أطفالها ؛ وما عتّمتُ في عام 1981 أن ألّفتُ باكورة إنتاجي العلمي ، ثم في العام القابل نشرتُه ، وكان بالطبع عنها .

ومنذُ ذلك الحين ، ما ارعويتُ ولا اكتفيتُ ، ولا أنا اليوم دون هواها بقانع أو مرتض .. سأبقى عاشقاً لدمشق ، ولن أكفّ عن الكتابة عنها حتى تجفّ من الكتابة يميني ومن الخفقان مرّة قلبي .

* * * * *

غير أن في كتابي هذا اليوم ، اختلافاً كبيراً عن الكتب التي سبقت لي عن دمشق . كنتُ اعتدتُ التركيز على أسلوب الدّراسات الأكاديمية البحتة ، مشفوعة بالتحقيق والتدقيق والترجمة ، وعمل الخرائط والصور التوضيحية . ولم يكن في ذلك أي شَطط أو إفراط بطبيعة الحال ، إنما تبقى تلك الكتب برأيي منوطة بفئة معيّنة من الدّارسين والباحثين ، يجدون فيها الفائدة قبل المتعة .

أما اليوم ، فغايتي أن أهدي لعشاق دمشق كتاباً للقراءة ، لمتعة المطالعة والعودة على سطور الحنين إلى ماضي دمشق ونكهة ماضي دمشق . تمنّيتُ يوماً لو أؤلّف كتاباً في الأدب الشعبي الدّمشقي ، يقرأه الكبير والصغير ، الباحث والهاوي ، منه تفوح روائح الياسمين والكبّاد وعبير تُراب بساتين الشام بعد اغتسالها بالمطرة الأولى في تشرين . تمنّيتُ أن يُقال يوماً : لهذا الفتى يدٌ في التأريخ للحبيبة دمشق ، وإسهامٌ في حفظ تراثها الأدبي الشعبي من الضياع .

صحيحٌ أنني جئتُ متأخراً ، ولكن عُذري أن هذا ما كان باختياري ، وما لا يُدركُ كُلُّه لا يُتركُ جُلُّه . ولأن الميسور لا يُترك بالمعسور ، فلا حُجّة لي إن لم أبذل غاية الطاقة ، وأجتهد في المشاركة بواجبي تجاه حبيبتي الغالية .

كنتُ خلال الـ 23 سنة التي برّح فيها بقلبي هوى دمشق ، قد نخلتُ مكتبات الشّرق والغرب ، وخزائن البيوتات الدمشقية ، عن كل ما له صلة بتاريخ دمشق وتراثها الحضاري . فكان أن اجتمعت لي ثروة طائلة من المصادر المتنوّعة عن هذه المدينة ، مما لم تجمعه مكتبة أو

جامعة في العالم ، بالغةً ما بلغت وكائنةً ما كانت .

وكنتُ أرى من بين هذه المصادر والوثائق ، نصوصاً تصلح لتُجمع في كتاب عن أدب دمشق الشعبي ، فرحتُ ألتقفها بعناية ، وأضمُّ واحدها إلى صنوه ، فما عتّمت أن صارت بين يدي اليوم تكفي لتأليف ثلاثة مجلدات وافية .

فها أنا ذا الآن ، بعد طول لأي وبعد فرط اجتهاد ، أطلع بكتاب طريف ممتع ، لا أخاله إلا يعجب ويسرّ كل من تاقت نفسه إلى استطلاع نكهة حياة أهلنا وأجدادنا بدمشق ، في العصور الخوالي قبل قرون مضت .

* * * * *

اجتهدتُ في هذا الكتاب أن أقدّم النوادر من النصوص حول المذكرات المدوّنة ، والروايات الشفهية ، ونوادر الأخبار التاريخية حول دمشق . وكان من شرطي أنني لن أعتمد أي نص ، ما لم يكن يرجع إلى الوراء قرناً كاملاً ، أو بضعة قرون . فالأصيل يسمو ويتفوّق على كل ما هو مفتعلٌ أو مختلق ، وأنا في ذلك لم أخرج في منهجي عن أبحاثي الأكاديمية السابقة ، إنما كان مجمل الخلاف في نوعية الموادّ المقدّمة ، لا في أسلوب بحثها .

وإنني لأؤكد ، أنني لم أدوّن في كتابي هذا أيّة معلومة ، ما لم أكن نقلتُها عن مصدرها الموثّق المخطوط مباشرة ، أو سمعتُها من أصحابها أو ممن عاصروها ورأوها رأي العين ، فكانت مرتبتي كناقل تأتي تلو الشاهد الناظر .

* * * * *

استفتحتُ كتابي بنصوص طريفة ونادرة ، من كتاب أعتبره واحداً من ألطف وأطرف مصادر تراثنا العربي في القرون الوسطى ، هو كتاب «المختار في كشف الأسرار» لعبد الرحيم الجوبري . ثم نشرتُ نصاً بديعاً ممتعاً يضجّ بالحياة عن دمشق في أواخر عهد المماليك ، نقلتُه من كتاب الكاتب المصري أبي البقاء البدري «نزهة الأنام في محاسن الشام» ، وأحسبُ أن نشرتي لهذا النص هي الأفضل من نشراتها حتى الآن ، لسقم الطبعتين القديمتين .

وتابعتُ بنشر أربعة نصوص شديدة النُدرة عن دمشق ، كتبها رحّالون أوروبيون زاروا دمشق ما بين القرن الرابع عشر والسابع عشر للميلاد ، هم موندفيل ودى لا بروكيير وبولون ومانريك . وفي هذه النصوص نرى تتمّات شيقة ومفيدة ، لما كان يرويه رحّالونا ومؤلفونا من المسلمين .

أما أطرف أقسام هذا الكتاب ، فهي المذكّرات الحيّة الشيّقة ، المليئة بالحركة والحياة والصور المعبّرة عن حياة الشام قبل ردح من الزّمان . فيلمح القارئ في مذكرات جدّة أمي فاطمة البديوي ، لوحة متكاملة لحياة امرأة دمشقية بسيطة ، عاشت حياتها بدمشق هانئة وادعة ، رضيت بحلوها ومرّها ، وشاركت جميع أبنائها بأفراحهم ومصائبهم . وكذلك ، يجد القارئ مزيداً من المتعة في قراءة مذكرات أخرى ، كتبها ورواها الدكتور شاكر الخوري ، وأبي نوري الإيبش .

وأخيراً ، ففي الكتاب نص ممتع وهام عن الحرف الدمشقية ، وتاريخ نقاباتها ، أو ما يُعرف بالمصطلح التاريخي بـ «طوائف الحرف» ، يقدّم لنا مؤلفه فيه فوائد جليلة ، لا عن التراث الحضاري لدمشق فحسب ، وإنما حول لهجتها وتعابيرها العاميّة أيضاً .

وعلى ذلك ، فالكتاب يضمّ طائفة منوّعة من المواد الطريفة والشيّقة والهامة في نفس الوقت عن دمشق ، فبرغم طرافتها وخفّة ظلّ ما بها من مواقف ومعان ، تبقى لها قيمة الوثيقة ، وبوسعنا اعتبارها أشياء من الأصول الحقيقية لعادات وتعابير وأحداث ، بادَت وانقرضت ولم يعد لها أثر حتى في أذهان الناس .

شكر وامتنان

ختاماً ، أرى من واجبي التوجّه بالعرفان والشكر الجزيل ، إلى كل من أسهم بإمدادي بالمعلومات الشفهية أو بالوثائق والصور . أخصُّ بالشكر خالتي الحبيبة زهراء آق بيق ، التي انتهجت معي مسلكاً مفيداً فقالت : «بتجي بتتغدى ، وبحكيلك شو بدّك عن ستّي» ؛ وكذلك خالي العزيز عدنان ، الذي لولا تسجيله لبعض مذكرات جدّته ، لضاع قسم منها كبير ؛ وإلى خالي العزيز نبيل ، لتقديمه صوراً قديمة ، الأمر الذي تكرّم به أيضاً السيد غازي

آق بيق .

رجاء ملحّ

لو كانت دمشق ملكاً لأحد ، فإن من حقّه أن يضنّ على سواه بها .

ولكن ، بما أنها حبيبتنا جميعاً ، وأمّنا جميعاً ، وجدّتنا جميعاً ، فلا عذر لمن لا يشارك باقي محبّي دمشق بما لديه من معلومات أو وثائق مفيدة .

وها أنا ذا هنا ، أبثّها دعوة ملحّة ، ورغبة قلبية صادقة ، إلى كل من لديه قصّة أو قُصاصة ورق ، أو حتى كلمة واحدة مهما صغرت .. أن يكاتبنا بها ، ويشاركنا بما لديه ، حتى نتداركها في طبعات أخرى وكتب أخرى .

وهذا – لعمري – أدنى معايير الوفاء للحبيبة دمشق .

وعنواننا البريدي : أحمد إيبش – ص ب : 11252 – دمشق – سورية .

* * * * *

أحلام اليقظة

شرعتُ في الكتابة عن دمشق في عام 1979 – كما أسلفتُ – وكنتُ ما أزال غرّاً يافعاً في السابعة عشرة ، غير أنني تتلمذتُ آنذاك على أيدي أشهر الباحثين في هذا المضمار ، وأدركتُهم جميعاً : الشيخ محمد دهمان والأستاذ خالد معاذ ، عليهما رحمة الله ، والدكتور صلاح الدين المنجّد ، مدّ الله في عمره .

واليوم ، تراودني رغبةٌ ملحّة غامرة ، في أن أتمادى إلى كتابة المزيد عن «الأدب الشعبي

الدمشقي» ، من خلال الوثائق المكتوبة والشفاهية التي جمعتُها خلال ما يقارب الربع قرن ، على غرار ما كان فعله مشاهير أرباب هذا الفن بدمشق : ألفة الإدلبي ، سهام ترجمان ، منير كيّال ، ناديا خوست . وبكل هؤلاء الأدباء الكرام تربطني صداقة متينة ، ولهم أكنّ كل احترام .

قال لي صاحبٌ متماجنٌ خبيث ، لمّا أسررتُ بأحلامي :

«إيه منين لوين ؟ مالك بالقصر إلا مبارح العصر !.. لمّا رَح تعمل متل لمّا إجوا ليحدوا خيل السّلطان ، مدّت البقّة رجلها ؟!» ..

لكنني سوف لن ألقي بالاً إلى تخابث هذا الصاحب الظريف ، بل أعد القرّاء المهتمين بتراث دمشق أن أكمل ما بدأته في هذا الكتاب بجزئين تاليين ، بعنوان : «سقى الله هديك الأيام يا شام» ، و «الله يديمك يا شام» .

فإن تمّ ذلك ، بعون الله وتوفيقه ، يكون ردّاً مني لبعض الوفاء ، لحسناء بارعة الجمال أعشقُها ، آسرة في عذوبتها ، جارحة في شفافيتها وبهاء طلّتها .. اسمها الشام ، شآمة الله في أرضه .

دمشق ، 27 أيلول 2002

أحمد إيبش

قمرٌ دمشقيٌّ يُسافر في دمي وبلابلٌ وسنابلٌ وقبابُ
الفلُّ يبدأ من دمشقَ بياضَهُ وبعطرها تتطيَّبُ الأطيابُ
والماءُ يبدأ من دمشقَ ، فحيثُما أسندتَ رأسكَ ، جدولٌ ينسابُ
والشِّعرُ عُصفورٌ يمدُّ جناحَهُ فوقَ الشآم وشاعرٌ جوّابُ
والحبُّ يبدأ من دمشقَ ، فأهلُنا عبدوا الجَمالَ .. وذوّبوه .. وذابوا
والخيلُ تبدأ من دمشقَ مسارَها وتُشدُّ للفتح الكبير ركابُ
والدَّهرُ يبدأ من دمشقَ ، وعندها تبقى اللُّغات ، وتُحفظُ الأنسابُ
ودمشقُ تُعطي للعروبة شكلها وبأرضها ، تتشكَّلُ الأحقابُ

نزار قباني

الإهـ . . . . ـداء

إلى صديقي وأخي الحبيب

قتيبة محمّد شيخاني

من آلاء دمشق عليّ أنها منحتني
أخاً ممعناً في أصالته ، موغلاً في سموّ خُلقه
متناهياً في مودّته ووفائه
فإليه أهدي هذا الكتاب

مُلَح ونوادر من كتاب
المختار في كشف الأسرار وهتك الأستار
لعبد الرحيم بن عمر الجوبري
(توفي بعد 633 هـ ./1236 م)

زين الدين عبد الرحيم بن عمر الشافعي الجوبري الدمشقي ، نسبته إلى قرية جَوْبَر

شرقي دمشق . لا يُعرف تاريخ ولادته ولا وفاته ، ولا تفيد المصادر العربية عن سيرة حياته أي شيء ، فمعلوماتنا الوحيدة عنه هي المستقاة من مؤلفاته القليلة . ومن ذلك يتّضح لنا أن الجوبري عالم مؤلّف درس دراسة مستفيضة ، وعاش عيشة العالم المتجوّل في جميع بلاد الإسلام حتى بلغ الهند ، وسافر كثيراً في النصف الأول من القرن السابع الهجري ، فقد زار مصر كما يذكر في كتابه مرات عدّة عام 607 هـ . وعام 617 هـ . و عام 623 هـ . و 626 هـ . ، كما زار آمد وأنطاكية ثم حرّان عام 613 هـ . ، والرّها عام 616 هـ . ، وساحل جدّة والحجاز واليمن والصعيد وعيذاب ، وجال في المغرب وتونس وكذلك الهند وهندبار .

وفي عام 629 هـ . ، قصد الجوبري بلاط الملك الأرتُقي مسعود بن مودود صاحب آمد وحصن كيفا الذي ولي الحكم عام 618 هـ . أو 619 هـ . ، وأقام لديه مدّة فكان يتردّد على مجلسه . وذكر أن الملك المسعود طلب إليه تأليف كتاب له عن أسرار أرباب الصنائع والعلوم ، على غرار كتاب ابن شهيد المغربي المشتهر آنذاك : «كشف الدَّك وإيضاح الشك» ، فقام بوضع كتابه المعروف بكتاب «المختار في كشف الأسرار وهتك الأستار» على ثلاثين فصلاً ، سجّل فيه ما خبر من تدليس وحيل من صادفهم في رحلاته من الرحّالين والدجّالين وأصحاب الكيمياء والصيارفة ؛ فكان هذا الكتاب بحق كنزاً لمن يرغب بدراسة عادات أهل ذلك العصر ، كما يرى المستشرق بروكلمان .

وكان البغدادي في كتابه «هدية العارفين إلى أسماء المؤلفين» قد ذكر أن الجوبري فرغ من تأليف كتابه عام 663 هـ . ، وهذا وهم على اعتبار أن زيارة المؤلف لبلاط الملك المسعود كانت عام 629 هـ . ، وفي نفس ذلك التاريخ طلب إليه تصنيف الكتاب ، فلا يستقيم أن يكون أمضى في تأليفه 34 عاماً . ومن الواضح بالتالي أن التاريخ المذكور قد ورد بنتيجة غلط من النسخ أو الطباعة ، ولا ريب أن البغدادي يريد أن الكتاب قد تمّ تأليفه عام 633 هـ . . وهذه فائدة جديدة ، وآخر ما يُعرف من تاريخ لحياة المؤلف ، أما تحديد وفاته فيبقى في ضمير الغيب .

ظهرت أول طبعة للكتاب في دمشق عام 1302 هـ . ، وأعقبتها طبعة أخرى في إسطنبول دون ذكر لتاريخ الطبع ، ثم أعيد طبعه في القاهرة مرتين أولاهما عام 1316 هـ .

والثانية مُغفلة التاريخ (حوالي 1908 م) . وله من المؤلفات أيضاً : «الصراط المستقيم في علم التنجيم» و «كشف أسرار المحتالين ونواميس الخيّالين» .

قمنا بنقل بعض النصوص المتعلقة بدمشق من كتاب المختار ، بالاعتماد على طبعة دمشق وطبعة القاهرة الأولى ، ولهذه النصوص أهمية خاصة لأن مؤلفها ذكر فيها بعض مشاهداته الشخصية بدمشق آنذاك ووقائع مما لا نجد له مثيلاً لدى مؤرخي ذلك العصر ، ومنها الحكاية الطريفة التي جرت للسلطان نور الدين مع العجمي ، التي انفرد الجوبري بذكرها دون غيره من المؤرخين .

وقُصارى القول ، أن هذا الكتاب يبقى واحداً من أطرف وأثمن مصادر تراثنا في التاريخ الاجتماعي ، وهو ما زال ينتظر حظّه للظهور في طبعة علمية مستوفية لشروط النشر والتحقيق العلمي .

المصادر :

كتاب المختار للجوبري ، مقدمة المؤلف .
دائرة المعارف الإسلامية ، الترجمة العربية ، مادة الجوبري لبروكلمان .
هدية العارفين للبغدادي 1 : 524 .

كتاب المختار في كشف الأسرار وهتك الأستار – طبعة دمشق ، 1302 ه .

كتاب المختار في كشف الأسرار وهتك الأستار – طبعة القاهرة ، 1316 هـ .

من فصل كشف أسرار الذين يدّعون المشيخة

وقد ظهر بدمشق رجل يُقال له المقصود فادّعى المشيخة ، وكان يُظهر الثمار في أوقات لا يمكن أن توجد فيها . فلمّا استفحل أمره ادّعى النبوة وأنه عيسى ابن مريم ، فربط جماعة من كبار البلد ومن جملتهم أهل سوق المرحّلين وأهل المِزَّة وكفرسُوسه وغيرهم . فلمّا كثر الرَّهج فيه سكن في موضع يُعرف بالصّفصاف ، وذلك في دولة الملك العادل أبي بكر بن أيوب ، وذلك مشهور بدمشق .

(المختار في كشف الأسرار ،

(24

وقد كان ظهر بدمشق رجل يعرف بالشيخ علي ، وسكن أرض حوران وادّعى المشيخة وتبعه خلق كثير . وكان أصل مذهبه أنه يقول لمن يريد أن يتتلمذ له : لا تمنع النفس شيئاً من حظّها ، فمهما طلبتْ نفسك فهوحقّها فأبلغها ذلك ! وله أحاديث عجيبة . وهذا الرجل ظفر به السلطان الأشرف وحبسه في حصن عرقا ، فأقام حتى مات السلطان . والأمور يطول شرحها .

(المختار في كشف الأسرار ، 30)

من فصل كشف أسرار الرهبان

ومن ذلك أيضاً الكنيسة التي بصيدنايا [1]، وهي قرية من عمل دمشق ، ولهايوم تجتمع الناس فيه ، ولهم فيها بركة الزيت يؤخذ منها في ذلك اليوم شيء عظيم للبركة . وقد ارتبط عليها جميع الطوائف ، وذلك أنهم أخذوا قرمة نخلة ، ثم نزلوا عليها بالمدقّات حتى صارت مثل السفنج ، ثم غشّوا عليها بثوب شعر مثل المنخل ، ثم وضعوها في ذلك الموضع .

فإذا جاء العيد الذي لها سقوا تلك القرمة بالزيت ، ثم ثقّلوها بشيء يوازن بروز ذلك ، فتبقى ذلك اليوم ترشح طول النهار . والناس يأخذونه للبركة وإزالة الأمراض ، فصار لها ذكرٌ وشأن .

(المختار في كشف الأسرار ، 40)

(1) بلدة مشهورة في هضبة القلمون شمال شرق دمشق ، بها أديرة أثرية مشتهرة .

من فصل كشف أسرار أهل الكاف
وهي الكيمياء

ومن أعجب ما صادفتُه وأغرب ما وقفتُ عليه ، أنه كان لي بدمشق صديق نصراني صائغ يُعرف بابن ميسرة وبينما هو في بعض الأيام جالس في الدّكان إذ قد أتى إليه رجل متميِّز فسلّم عليه ، ثم ناوله سبيكة فضّة مقدار ثلثماية درهم ، وقال : لعلّ منادياً يبيع لي هذه السبيكة . فأخذها منه وقال : يا سيّدي على الحِمى ؟ قال : نعم ، وعلى الرُّوباص . وأعطاها للمنادي ، فنادى عليها وباعها المائة بمائة وعشرين . هذا وقد أصعده إلى الدّكان وأجلسه في جانبه ، فلمّا قبض الثمن دفع للمنادي أجرة وافرة ، ثم شال خمسة دراهم ، وقال للصائغ : سيِّر لنا بعض أجراك يشتري لنا بهذه شيئاً نأكله بحسب الممالحة، والحرام يُلزمني لا بدّ من ذلك . فبعث واشترى شيئاً من المأكول فأكلوا وتحدّثوا ساعة ، ثم نزل وقد جعل تحت نطع الصايغ عشرة دراهم .

وغاب أياماً ، ثم عاد وسلّم وصعد وقد فرح به الصائغ ، فتحدّثوا ، ثم طالع سبيكة أكبر من الأولى ، فقال : ادفعها للمنادي ، فدفعها له فبيعت المائة مائة وخمسة وعشرين . فقال للصائغ : إن كنتَ تحتاجها فخذها وزناً بوزن فأخذها منه . ثم عمل مثل المرّة الأولى ، فمنعه من ذلك ، فقال : يا فلان لأيّ سبب تفرِّط بهذه الفضّة ؟ فقال له : يا هذا ، هذه السّبيكة تكلف عليّ المائة درهم ونصف ، فما عسى أن يروح منها ؟.. فلمّا سمع الصائغ ذلك عَظُم في عينيه .

ثم غاب أياماً وأتى ولم يصطحب معه سبيكة ، فسلّم وصعد فتحدّثوا . وكلّما عبر شيء مثل حلاوة أو غيرها يشتري ويدفع القيمة للبائع كما يطلب ، ويأكل هو ومن في الدّكان . فأقام يتردّد أياماً ولم يصحب معه شيئاً من السبائك ، فسأله الصائغ ، فقال : والله كنت قد عملتُ إكسيراً وفرغ .. فلمّا سمع الصائغ ارتبط ، ثم تحدّث معه ساعة ، وقال : أشتهي منك أن تجبر قلبي وتأكل عندي خبزاً وملحاً في داري . فقال : ما أكلّفك ! فأقسم عليه ، فقال : إذا كان ولا بدّ من ذلك فهذه عشرون درهماً اعمل لنا بها شيئاً نأكل ، والحرام

يُلزمني لا بدّ من ذلك . ثم تواعدوا إلى الغد .

فلمّا كان الغد جاء الرجل إلى الدكان فوجد ابن الصائغ قاعداً في الانتظار ، فأخذه وراح به إلى الدار ، ولمّا استقر به الجلوس قدّم شيئاً كثيراً فأكلوا ثم أحضروا حَلْوا وأكلوا . فقال الصائغ : يا سيّدي أما تعمل إكسيراً ؟ فقال : يا أخي عندي نفقة كثيرة وما أنا محتاج إلى عمله في هذا الوقت ، وليس لي في هذه البلدة مكان ولا صاحب ، وأنا وحدي ما أقدر أدبّر هذا .

فقال له الصائغ : هذه القاعة هي ملكي ومالي فيها نساء ولا حريم ، وإنما هي برسم صديق أو ضيف يأتيني ، وأنا أخليها لك وأساعدك وأخدمك ، وابني يكون في الدّكان ، وما تحتاج أحضره لك . فقال : أكثر ما أريد عشرة دراهم أعملها إكسيراً ، ومتى صار يُعمل منه قناطير ، إلاّ أنه يريد تعباً وطول روح ، وأنا اليوم مالي همّة للعمل لأن عندي شيئاً أنفقه سنة وعشرة . ثم تمنّع عليه وهو يسأله ، ثم مسكه تلك الليلة عنده وتمكّن منه بالحديث ولم يزل يُلحّ عليه حتى تقرّر بينهم الأمر . ثم تحالفوا على وفاء العهد وأن الصائغ يقنع من الإكسير بأيسر ما يكون والباقي له ، فقال له : بل أنا أقنع منه بمثقال وخُذ أنت الباقي . ففرح الصائغ ، وحسب أنه يتعلّم الإكسير .

ثم اتفقوا إلى يوم واجتمعوا ، واشتروا الحوايج ووزن الرجل ثمنها ، ولم يخلّ الصائغ يخسر شيئاً . فلمّا حصلت الحوائج وسحقوا ما أمكن سحقه وهيأوا حوائجهم ، قال الرجل للصائغ : تريد أن تعمل إكسير ذهب أو فضّة ؟ فقال : من ذا شيئاً ومن ذا شيئاً ، فقال : اقسم هذه الحوائج نصفين ثم هات ما أمكن من الذهب والفضّة حتى ننقعها في ماء هذه الحوائج ثلاثة أيام ، ثم ناخذ ماءها ونسقي به الأدوية ، الذهب للذهب والفضّة للفضّة .

فعمد الصائغ إلى ستمائة دينار فدفعها له ، فربطها في منديل أمامه ثم جعلها في وعاء فيه ماء ، ثم قال : هات فضّة . فأحضر له ألفين وخمسمائة درهم ففعل بها كما فعل بالذهب . ثم أقاموا سبعة أيام يخدمون تلك الحوائج . ثم بعد ذلك قال له : قُمْ واطلع إلى جبل المِزَّة واجمع من الحصا الذي يُعرف ببُزاق القمر مقدار رطل واحد وتعال . فقام الصائغ وصعد إلى الجبل ينقّي بُزاق القمر قدر حاجته . وأما ذلك الرجل فإنه فتح صرّة الذهب والفضّة وأخذهم

، ووضع مكانهم فلوساً وقعد . فلمّا جاء الصائغ بالبزاق قال : هذا يريد يتكلّس في أتون الزُّجاج ليلة ، ثم يُخدم نصفه بماء الذهب ونصفه بماء الفضّة ، وإذا تكلّس اقسمه واخدمه ، وها أنا خارج لصلاة الجمعة . ومضى واستقبل الدرب ، فلم يطلع له خبر .

فأقام الصائغ ينتظره مدّة ثلاثة أيام لم يفتح صرّة الذهب ولا الفضّة ، فقال له ابنه : قد يكون أخذ الذهب وراح ! فقال : ما أجهلك .. وحقّ المسيح يقدر أن يعمل خزائن وأموالاً ، وهذا غير محتاج إلى ذهبنا . فقال له ابنه : كُن عاقلاً وافتقد الذهب . فقال: أنت قصدك تفسد علينا الشغل ؟ فقال : افتقد الذهب وخَلِّ عنك الطمع . فلم يفعل ، فقام ابنه وخالفه وفتح الصرّة وقد قارنت له ولأبيه النحوس ، وإذا بالذهب والفضّة قد صار فلوساً !.. فلَطَمَا على الرؤوس حتى ذهبت منهما النفوس . فقال : أنت ما سمعت مني الخبر .

فأبصر هذا الدَّهاء والمكر والحيل لهذه الطائفة .

(المختار في كشف الأسرار ، 64–68)

[حكاية العجمي والسلطان نور الدين]

ومن أعظم ما وقفتُ عليه ، وأظرف ما جرى للسلطان الملك العادل نور الدين بن زنكي ، رحمه الله تعالى ، حديثٌ يُكتب بماء الذهب (2).

وذلك أن بعض العجم جاء إلى دمشق ، فأخذ ألف دينار مصرية فبَرَدَها ، ثم أخذ لها دقّ الفحم وعقاقير وطحن الجميع ثم عجنه بغراء السَّمك ، وجعله بنادق وجفّفه جفافاً بالغاً . ثم لبس دِلقاً وتزيّا بزيّ الفقراء ، وجعل تلك البنادق في مخلاة . ثم أتى إلى بعض العطّارين فقال : تشتري مني هذا ؟ فقال : وأيّ شيء هذا ؟ قال : طَبَرْمَك خُراساني! وهذه كلمة مصحفة معناها طترمك ، قال العطار : وهذا لأيّ شيء ينفع ؟ قال : ينفع من السُّموم ، ويدخل في جميع الأدوية التي تدفع الأخلاط ، وله نفع عظيم . ولولا أن أدركتني الحاجة و لم

---

(2) حقاً فهذه القصّة من أعجب وأطرف ما يكون ، ولعمري أنها تصلح لتمثيلية تلفزيونية .

أقدر على حمله ما بعته ، لأنه يساوي وزناً بوزن عند من يعرفه ! فقال العطار : بكم هو ؟ قال : بعشرة دراهم . قال له العطار : بثلاثة . فأبى ، ثم اشتراه منه بخمسة دراهم ، وجعله في برنيّة . وأخذ العجمي الدراهم وراح .

فانظر إلى هذا الرجل وما أجسره ، باع ألف دينار بخمسة دراهم ، فهذه جسارة عظيمة ، وقد قال القائل: من خاطر بنفيس ملك نفيساً .

فلمّا انفصل عنه ، لبس بزّة حسنة من ملابس الوزراء ، ورتّب خلفه مملوكاً ونزل أكبر دار تصلح لوزير ، وصار يمشي في الجامع ويتعرّف بالأكابر من أهل البلد ، ويعمل السماعات ويخسر جُملةً ، ويدّعي الوصول في علم الصَّنعة وأنه يقدر أن يعمل في يوم واحد جملة من المال . وشاع ذلك في دمشق ، فسأله الكُبراء أن يعمل عندهم ، فكان يقول : ما أنا محتاج إلى أحد ، فالذي يريدني أعمل عنده أي شيء حاجتي إليه ؟ وأنا قد آليتُ أن لا أعمل شيئاً إلاّ للملك ، ومع هذا فإني لا أعمل شيئاً حتى يحلف لي أن مهما عملته لا يُنفقه إلاّ في سبيل الله .

فاتّصل خبره بالوزير ، فأحضره وآنسه ، ثم ذاكَرَهُ بشيء من ذلك ، فقال : قد كان من أمري أني حلفتُ أن لا أعمل شيئاً إلاّ للملك ، بعد أن يعاهدني أنه لا ينفق منه شيئاً إلاّ في سبيل الله تعالى . فإن حصل هذا الشرط عملتُ وإلا فلا سبيل إلى عمل شيء .

ولما سمع الوزير ذلك افتكر وقال : والله هذه سعادة للمسلمين وللسُّلطان ، هذه البلاد كلها للأفرنج إلى بانياس ، وكل يوم الغارات تصل إلى ديارنا ، فاذا عمل شيئاً نفتح به هذه البلاد وهذه نعمة عظيمة! ثم قال : أُعرّف السلطان ؟ قال : نعم ، إلاّ أنّك تجمع بيني وبينه حتى أستوثق منه باليمين . ثم ركب الوزير فاختلى بالسلطان ، ثم عرّفه ذلك ، فقال : والله قد هجس في فكري أنه لا بدّ من شيء يوصلنا إلى قلع شأن هؤلاء الملاعين . فأحضر الرجل في غاية الكرامة .

فأخذ له خلعة حسنة وبغلة بسرج ملجمة ، فألبسه الخلعة وأركبه إلى جانبه ، ثم صعد واجتمع به السلطان . ثم تحدّثا فقال : أصحيح ما قاله الوزير عنك ؟ قال : نعم يا مولانا ، لكن كل من ادّعى هذه الدرجة فهو كذّاب نصّاب دكّاك ، بل أنا شَرطي مع السلطان أن لا أمسّ بيدي شيئاً ، بل أكون بعيداً من مولانا وأقول له : افعل كذا واصنع كذا

، ومولانا يفعل . فلمّا تقرّر الأمر على هذه القاعدة قال السلطان : باسم الله اشرع على بركة الله .

فأخذ العجمي ورقة وكتب لهم استدعاء الحوائج ، من العقار الفلاني كذا [ومن العقار الفلاني كذا] ، ثم قال : من الطَّبَرْمَك الخُراساني مائة مثقال . ثم دفع الورقة لأستاذ الدار ، وقال له : أحضر هذه الحوايج . فأحضر الجميع إلاّ الطَّبرمك ، فقال إنّه ما وُجد عند العطّارين . فقال العجمي : في مثل دمشق يعدم الطَّبرمك ؟ فقال السلطان : ما لنا شيء يُغني عنه ؟ فقال : لا والله ، ولا تخلو دمشق منه . بل إن مولانا السلطان يتقدّم إلى المحتسب بتفتيش دكاكين العطّارين ، فإذا كان الغد ركبت أنا وهو وشهود عدول نفتح حانوتاً حانوتاً نفتّشه ، فلا بدّ أن نجده . فقال : نعم .

وكان المحتسب يُقال له القائد ، فأرسلوا إليه ففعل ذلك ، وركب العجمي من الغد وأخذ معه العُدول ونزلوا مع القائد ، ثم جعلوا يفتحون دكاكين العطّارين حتى انتهوا إلى دكّان الذي باعه العجمي الطّبرمك . فقعد الشهود والمحتسب ، ونزل صاحب الدّكان وجعل يضع قدّامهم برنيّة بعد برنيّة ، إلى أن جاءت البرنيّة التي فيها الدكّة . فلمّا رآها العجمي تهلّل وجهه فرحاً وقال هذا السلطان سعيد ! ثم قال للشهود والمحتسب : اختموا عليها بختومكم ثم ابعثوا بها إلى القلعة . ففعلوا ذلك .

فقال لصاحب الدّكان : من أين لك هذه ؟ فقال : ابتعتها من رجل فقير . قال: بكم ؟ قال : بخمسة دراهم . فأخذ منديله وقال : هذه عشرة دراهم من عندي ، ولا تبطل شغلك ولا تطلع إلى الديوان .

ثم ركبوا جميعهم ، وطلعوا إلى القلعة وعرّفوا السلطان . وقال له العجمي : هذه أوّل سعادتك ، هذا يعمل شيئاً كثيراً ، فيشرع مولانا من الليلة وبالله التوفيق .

فلمّا أمسى عليهم المساء ، استدعوا ما يحتاجون إليه من الآلة ، ثم قعد السلطان وخادم في صُفّة والعجمي قد اعتزل عنهم في ناحية . ثم قال : يزن مولانا من العقار الفلاني كذا ومن الآخر كذا ، وجعل يعدّ العقاقير جميعها ، ثم قال : ومن الطُّبرمك مائة مثقال . ففعل ذلك

حتى احترقت جميع تلك الحوابج ودار الذّهب . ثم قال : اقلب على بركة الله تعالى ! فقلب البودقة ، فترلت سبيكة ذهب مصري لا يكون شيء أحسن منه . فلمّا نظر السلطان إلى ذلك حار ودُهش ، ثم قدّم له تلك الليلة شيئاً يساوي ألف دينار .

ولم يزالوا يعملون حتى فرغ ذلك الطّبرمك ، فطلبوه فلم يجدوه . فقال السلطان : كيف نعمل بالطّبرمك ؟ فقال العجمي : تبعث نجيب منه من خُراسان ، فإنه معدن في الجبل في مغارة إذا أراد إنسان أن يحمل منه ألف حمل جمل . وأنا دخلتُ إليها وأخذتُ منها شيأً كثيراً ، وعندي في داري منه مقدار قنطار .

فلمّا سمع السلطان قوله قال: ما لهذا الأمر غيرك ، فإن تعذّر الوصول إلى المغارة فاحمل الذي عندك ، وإن وصلت إلى المغارة فاحمل مهما قدرت . وأنا أكتب معك كتاباً إلى السُّلطان الأعظم لايمنعك أحد من ذلك !

فلمّا سمع العجمي قال : إن رأى السلطان أن يبعث غيري ، فأنا قد طابت لي دمشق وخدمة السلطان . قال : لا غِنا عن رواحك ، فإن لك في ذلك أعظم الأجر . ولم يزل عليه حتى أنعم بالسفر ، فلمّا شرع يتجهّز جهّزه بستين حمل منها شُرَب عمل تنيس ودمياط ومن عمل اسكندريّة ، ومنها سُكّر بالأحمال والجمال والجمّالين ، ثم أعطاه خيمة ومطبخاً وفرّاشين ونفقة الطريق إلى بغداد وإلى العجم ، وكتب معه كتباً إلى سائر البلاد بالمراعاة والخدمة والإعانة . ثم خرج السلطان وأرباب الدولة إلى وداعه ، وراح وقد وصل هذا إلى الحجر المكرّم وحصل له الإكسير الأعظم .

ومن أعجب ما في هذه القضيّة أنه كان بدمشق رجل يكتب أسماء المغفّلين المُخارفين ، فسمع بهذه القضيّة ، فكتب في رأس جريدته : «السلطان نور الدين محمود بن زنكي رأس المغفّلين» . فشاع ذلك ولم يعلم أحد باطن القضيّة ، حتى قيل للسلطان : قد كتبكَ شخصٌ رأسَ المغفّلين ، فقال : وأيّ شيء أبصر من تغفّلي حتى يكتب اسمي ؟ هاتوه ! فترلت إليه الجنداريّة وقالوا له : باسم الله ، كلّم السلطان . فأخذ الجريدة في كمّه ومشى معهم .

فلمّا وقف أمام السلطان ، قال : أنت فلان الذي تكتب أسماء المغفّلين ؟ قال : نعم . قال : وكتبتني ؟ قال : نعم ، وهذا اسمك .. ثم أظهره . فقال : وما بانَ لك من تغفّلي حتى

كتبتني ؟ فقال : ومن يكون أغفل منك ؟ جاءك عجمي نصّاب عمل عليك حيلة ودكّ عليك ألف دينار ، أخذ بها مال المسلمين وراح ! فقال : راح يأتي بطبرمك وكأنك به وقد جاء ومعه الطِّبرمك نعمل منه أموالاً لا تُحصى . فقال له: يا خوند إن رجع العجمي وجاء ، محيتُ اسمك من الجريدة وكتبتُ اسمه ، وما يكون في الأرض أغفل منه !

فلمّا سمع السلطان ذلك ، ضحك وقال : «اعطوه شيئاً يُنفقه عليه» . فأعطوه شيئاً وراح . وكان كلّما أفلس ، أخذ الجريدة ووقف على باب القلعة ، فإذا ركب السلطان ، فتح الجريدة ويقول «ما جاء ، وهذا اسم السلطان مكتوب !» . فيضحك ، ويُطلق له شيئاً .

فانظر إلى هذا الدَّكّ والجسارة على بيع ألف دينار بخمسة دراهم .

فأقام السلطان على ذلك حتى مات [3]، والطُّبرمك لم يأتِ .

(المختار في كشف الأسرار ، 68-74)

من فصل كشف أسرار الصيارف والدكّ عليهم

ومنهم من يدكّ على الصيارف ، فاعلم أن هؤلاء لم يكن في الطوائف أرجل منهم، وذلك أنهم يدكّون على من هم أشطر الطوائف . فإن الصّيارف يتعيّشون على كل الناس وهؤلاء يتعيّشون عليهم ، فهذه عين الشطارة .

وقد رأيتُ بدمشق رجلاً من أهل حلب يُعرف بجمال الدين يوسف ابن النقّاش ، وهو

(3) وكانت وفاة السُّلطان العادل نور الدّين محمود بن زنكي الشّهيد في عام 569 هـ .

متميّز وعليه حشمة ظاهرة ، ورأيته يدكّ على الصيارف . فإذا أراد ذلك أتى إلى الصيرفي ومعه دينار أو درهم ، فإن كان ديناراً يكون بُهْرُج ، وإن كان درهماً يكون نحاساً . ثم إنه يكون معه إما دينار أو درهم جيّد على قدر ما يريد أن يدكّ ، ويكون على نقد ذلك الزغل الذي معه .

فيقف على الصيرفي ويدفع إليه الدينار الجيّد ، ويقول: إدفع لي بهذا دراهم . فيأخذ الصّيرفي الدينار ثم ينقده ، ويزنه ويدفع إليه الدراهم ، فيقول : كم وزنت ؟ فيقول : كذا وكذا ، فيقول : ما آخذ إلاّ كذا وكذا ، فيقول : ما أعطيك إلاّ هذا القدر ، فيقول : هات الدينار . فيناوله الدينار بمقدار ما يحصل في يده وقد جعله موضع الدينار البُهْرُج وخلّف له البهرج ، وقال : هات ، وهذا ناقص عن حقّي !

فيكون الصّيرفي قد وزن الدينار ونقده ، فيأخذه ويرميه في صندوقه ويدفع له الدراهم طيّب القلب بوزنِه ونقدِه ، وكذلك الدّرهم أيضاً .

فافهم ذلك ترشد .

(المختار في كشف الأسرار ، 136-137)

* * * * *

دمشق في أواخر العهد المملوكي

من كتاب

«نُزهة الأنام في محاسن الشَّام»

لأبي البقاء أبي بكر بن عبد الله بن محمد البَدري

(توفي 894 هـ . / 1489 م)

أبو بكر بن عبد الله بن محمد بن أحمد ، أبو البقاء ، تقي الدين البدري الدمشقي المصري الوفائي . أديبٌ عارف بالتاريخ والشعر . ولد بدمشق عام 847 هـ . وسكن القاهرة ، ثم تنقل بينها وبين مكة والمدينة والشام ، وكان يتكسَّب بالتجارة ، وتوفي بغزّة عائداً من الحج عام 894 هـ . .

ترك البدري عديداً من المؤلفات الأدبية ، من أشهرها : «راحة الأرواح في الحشيش والراح» و «غرر الصَّباح في وصف الوجوه الصِّباح» و «المطالع البدريّة في المنازل القمرية» و «نزهة الأدباء وسلوة الغرباء» و «نُزهة الخاطر وقُرّة الناظر» و«روضة الجليس ونزهة الأنيس» . غير أن أهمها وأشهرها هو كتابه الذائع الصيت «نُزهة الأنام في محاسن الشام» ، الذي أتم تصنيفه عام 887 هـ . في عهد السلطان المملوكي البُرجي الأشرف قايتباي ، والذي يعتبر بحق أحد أفضل كتب «المحاسن» في فنون الجغرافية الإقليمية بأواخر عهد المماليك .

من المؤكّد أن المؤلف قد أمضى شطراً طويلاً من حياته بدمشق وعرفها معرفة وثيقة ، كما ينعكس بجلاء في مصنَّفه ، الذي قدّم لنا فيه صورة حيّة لدمشق بأواخر القرن التاسع

الهجري في خواتيم أيام الدولة المملوكية ، فرسم لها مشاهد جديرة بالاهتمام ، وتجاوز ذلك إلى المواضع القريبة منها ، وتناول بالوصف أنهارها ومساجدها وحمّاماتها ومتنزهاتها وأسواقها وقلعتها ، كما لم يهمل الحديث عن قراها وأرباضها المشهورة بأزهارها ونباتاتها وأشجار فاكهتها .

وفيما يتعلق بالجانب الأول ، فهو يورد بعض التفاصيل التاريخية والمعمارية الهامة ، ثم يختتم كتابه بذكر من عاش بدمشق من الصحابة والمشاهير ، وعن مقابر المدينة وما بها من أضرحة ومزارات معروفة . أما توزيع مادّة الكتاب فغير متجانس، ويلوح أن المؤلف قد افتتن بصورة خاصة بالأشجار والأزهار والبقول والثمار التي تنمو بدمشق ونواحيها ، فخصّص لها ثلاثة أرباع الكتاب تقريباً ، وهو ينقل عن مصنّفات مختلفة في الطب والنبات حول الفوائد الطبية والغذائية لكل ما يذكره من نباتات .

أما أسلوبه الكتابي فلا يخلو أحياناً من التكلّف ، وتنتشر فيه الاستشهادات الشعرية وفقاً للموضوع الذي يعالجه . وهو بالرغم من إقامته بدمشق ومعرفته الجيّدة بجامعها الأموي ، فقد آثر عند وصفه له أن يعمد إلى النقل من رحلة ابن جُبير الشهيرة التي ترقى إلى القرن السادس الهجري ، وهي ظاهرة منتشرة – كما نعلم – لدى جميع الجغرافيين العرب .

ويلوح للدارس أن نص البدري قد اكتسب حظاً وافراً من الشهرة بالشام ، فنقل عنه غير واحد من البلدانيين اللاحقين . وبشكل عام ، يبقى كتابه هذا أحد أهم المصادر عن مدينة دمشق المملوكية ، ولا غنى عنه لكل من يتصدّى للبحث في تاريخها المدني بتلك الفترة .

طُبع الكتاب للمرة الأولى في المطبعة السلفيّة بمصر عام 1341 هـ . ، ضمن منشورات المكتبة العربية ببغداد ، بعناية صاحبها نعمان الأعظمي . وهي طبعة سيئة مشحونة بالأغلاط . ثم صدرت في بيروت عن دار الرائد العربي عام 1980 طبعة منقولة حرفياً عن طبعة بغداد زادتها ضغثاً على إبّالة ، وبقي الكتاب – على أهميته – إلى يومنا هذا بغير طبعة علمية تستوفي حقه من الضبط والتحقيق .

وكنّا في العام 1998 قد نشرنا منه ما يتعلّق بالتاريخ الطبوغرافي لدمشق في كتابنا : «دمشق الشّام في نصوص الرّحالين والجغرافيين والبلدانيين العرب والمُسلمين ، من القرن الثالث

إلى القرن الثالث عشر للهجرة» .

وهذا ما حدا بنا ها هنا إلى إعادة استخلاص فصول كاملة من الكتاب في نشرتنا الحاضرة ، وتصحيحها مع التعليق عليها قدر الإمكان . مع التنبيه إلى أننا انتخبنا من الكتاب كل ما يتعلق بالطبوغرافيا التاريخية والمعلومات البلدانية فقط ، وأهملنا الفصول المطوّلة التي أسهب فيها المؤلف بذكر النباتات وفوائدها الطبّية ، الأمر الذي أثقل على الكتاب وشوّش منهجيته وتبويبه . وكذلك أسقطنا من اعتبارنا مطلع الكتاب الذي يذكر محاسن إقليم الشام وأصل بناء دمشق وتاريخها القديم ، مع وصف الجامع الأموي ، إذ كنا قدّمنا القول أن ذاك برمّته منقول ، وليس يتّسم بالأصالة .

وشرعنا في النقل من حيث تبدأ رواية البدري لمشاهداته الشخصية ، بدءاً من وصفه لقلعة دمشق ، ومروراً بذكر أنهارها ومحلاّتها وأسواقها ومتنزهاتها وأرباضها وقراها وجبلها، وانتهاءً بذكر صناعاتها ومقابرها ومن دُفن فيها من الأولياء والصالحين . وتسهيلاً لقراءة النص قمنا بتبويبه إلى فقرات استهللناها بعناوين من عندنا .

هذا ، وممّا وجدنا فيه إمعاناً في فائدة هذا البحث وأهميّته ، كان دراسة مواقع الأماكن التي ذكرها البدري قبل ستة قرون وثلث القرن ، وما ينطبق عليها في عصرنا بدمشق . فقمنا بذلك على أرض الواقع ، متوخّين الدقّة والتحرّي حسب الإمكان ، فكان هذا الجزء من العمل يتّسم بطرافة ومتعة قلّ نظيرهما ، ونحسب أننا قد أضفنا به فوائد جمّة حول الطبوغرافيا التاريخية للمدينة .

المصـ ـادر :

الضوء اللامع للسخاوي ، 11 : 41 ، 189 .

تاريخ الأدب الجغرافي العربي لكراتشكوفسكي ، 505-506 .

الأعلام للزركلي ، ط 2 ، 41 .

دمشق الشام في نصوص الرّحالين للإيبش والشهابي ، 2 : 633 .

33

ومن محاسن الشام قلعتها وحسن بنائها واتساعها فانها قدر مدينة . وبها ضريح السيد الجليل أبي الدرداء رضي الله عنه . وبها جامع وخُطبة كالمدينة فإنها بفرد خطبة لا غير ، وخارج المدينة الخطب الكثيرة يعسر الآن علينا تعدادها . وبها حمّام وطاحون وبعض حوانيت لبيع البضائع . وبها دار الضَّرب التي تُضرب فيها النقود . وبها الدّور والحواصل، وبها الطارمة التي ليس على وجه الأرض أحسن منها ، كأنها أُفرغت بقالب من شمع ينظر الرائي أعلاها فيحسن نظره وإن طال مرآه .

وهي تسامتُ رؤوس الجبال . يقال إن تمرلنك لما أن حاصرها وعجز عنها أمر أن يُنقب تحتها وتُقطع الأشجار وتعلّق بها ، حتى إذا انتهى تعليقها أطلق النار فيما تحتها من الأخشاب وظن أنها تفسخ بذلك وتسقط شَذَر مَذَر فيبلغ مُراده من أخذ القلعة . فلمّا عمّت النار فيما تحتها بركت بصوت أزعج الوجود كمايبرك الأسد ، فمن ثَمّ سمّوها بالأسد البارِك ، وهى الآن على الثُّلثين من علوّها .

وبالقلعة آبار ومجارٍ للماء ومصارف ، بحيث إذا وقع الحصار وقُطع عنهم الماء تقوم الآبار مقامه .

وبها يمر نهر (بانياس) وينقسم فيها قسمين ، يستمر أحدهما على حاله طاهراً للمنافع والاستعمال ، والآخر تنسحب عليه الأوساخ والقاذورات ، وهو المسمى بقُلَيْط ، يمرّ تحت الأرض بنحو من قامتين لتشعّب الماء الطاهر فوقه يميناً وشمالاً ، حتى في بعض الأراضي يبلغ سبعة مجارٍ من الماء العذب ليس لأحدها اختلاط بالآخر .

ومصارفهم تسقط على نهرقليط ، ويمرّ في المدينة إلى أن يخرج من الباب الصغير، ويتصل بمحلّة (المزّاز) فيضمحلّ فيما يليها من الأراضي التي تزرع الكرسنّة والفصّة والبيقية والقنّب وما أشبه ذلك . وغالب ما يُسقى به القنّب ، وهو أبيض أملس كالرِّماح في الطول مجوّف لا عُقَد به ، يُصبُّ الماء من رأس الواحدة فيجري من آخرها ، وقشره يُعمل منه الخيوط والحبال ، وتورى بالقنّب النار وهويقوم مقام الشعشاع والطَّرفاء لكنه ألطف منهما وأسرع

وقيداً . كما ان الشّيح أحسن من الحلفاء بعرفه الذكي أخضر وناشفاً . ويقال إن القنب هذا يُعمل من ورقه الحشيش إذا أضيف إليه الورق البرّي . وقد ذكرنا ذلك مفصلاً في كتابنا (راحة الأرواح في الحشيش والراح) فليُراجع . انتهى .

(نزهة الأنام 60-62)

تحت القلعة

ومن محاسن الشام تحت قلعتها [4]، فإنها منهل للغريب ومرتع للقريب ، وهي ساحة سماوية كبركة الرّطلي في الوسع لاجتماع البَريّة ، تحفّها الدّور وتعلوها القصور ويلحقها كل ما يرومه الإنسان وتشتهيه الشفة واللسان ، لايحتاج فيها سكانها لحاجة من المدينة ولا لجيرانها .

فيها دار البطيخ الذي يُباع فيه جميع فواكه البلد [5]. وبه العين المشهورة المُجمع على برودة مائها وعذوبته وخفّته . وبتحت القلعة سوق للقماش المذروع وسوق قماش للمخيط . أحدهما للرجال والآخرللنساء . وبها سوق للفرا والعبي وغيرذلك . وبها سوق السقطيين وسوق النحاس ، وبها سوق السكاكينيين وبها سوق القربيين وبه للأرميين، وبها سوق قماش الخيل والبغال والبهائم والأغنام ، وبها سوق القشّاشين وبها سوق المدهون والخضريين ، وبها سوق المحايريين والنجّارين والخرّاطين ، وبها سوق النقليين وبها دار الخضر وبها سوق المناخليين والزجّاجين .

وأما ساحة تحت القلعة فإنك لا تستطيع أن ترى أرضها لكثرة ما به من المتعيّشين والوظائفية . ويتخلّل بينهم أرباب الحلق والفالاتية والمضحكون وأصحاب الملاعيب والحكوية والمسامرون [و]كل ما يتلذّذ به السمع ويسرّ العين وتشتهيه النفس صباحاً ومساءً على هذا لا يفترون ، لكن المساء أكثر اجتماعاً ويستمرّون إلى طلوع الثلثين . وهو عبارة عن ثلاثة طبول

---

(4) موقعها اليوم ينطبق على الزّرابلية والسّنجقدار وسوق الهال وسوق العتيق .
(5) موقع دار البطيخ هذه في أيامنا عند سوق القرماني جنوبي مدرسة ست الشام .

متفرقة بأعلى القلعة ، يضربون الثلث الأول كل واحد منهم ضربة ، والثلث الثاني من الليل يضرب كل واحد ضربتين ، والثلث الآخرمن الليل يطلع المؤذن على منارة العروس بالجامع الأموي ، ويعلّق لهم قنديل الإشارة ، فيضرب كل واحد منهم ثلاث ضربات ويسوق الثلثين من التسبيح والأذان الأول إلى السلام ينتهي الضرب .

وبها خطبتان : الأولى بآخرها بالمدرسة المؤيّديّة ، والثانية بصدرها في جامع يلبُغا [6]. وهو من أحسن الجوامع ترتيباً ومتنزّهاً ، بصحنه بركة ماء مربّعة داخلها فسقية مستديرة بها نوفرة يصعد منها الماء قامة ، ومن فوقها مكعب عليه عريشة عنب ملوّن يصل الماء إلى قطوفها الدّانية . وبجانبيها حوضان فيهما من أنواع الفواكه وأجناس الرياحين . وله شبابيك تطل على جهاته الثلاث : الأولى على تحت القلعة من جهة الشرق ، والجهة الثانية تطل على بين النهرين وهي الغربية ، والجهة القبلية تنظر إلى نهر بردى وما هناك من الأشجار والأزهار ، وهناك شجرة حور يحتاط بها أربعة رجال فلا ينظر الواحد لمن يقابله لعظم ساقها . وللجامع ثلاثة أبواب : الأول الشرقي وهو في صدر تحت القلعة ويسمى باب الحلق ، والثاني شماليه يخرج إلى الميضا ويسمى باب الفرج ، والثالث غربي يُنحدر منه في درج إلى أول الوادي ويسمى باب المتره . انتهى .

(نزهة الأنام 62-65)

بين النهرين

ومن محاسن الشام (بين النهرين) [7]، وهومبتدأ الوادي يشتمل على فُرجة سماوية بها دور وقصور وسويقة بها حانوت طبّاخ وصاجاتي وقطفاني وفُقّاعي وحواضري وفاكهاني وشوّا وقلاّيين وسكرداني ونقلي وقاعة لبن وعدة للجلبية وحمام يشرح صدور البريّة وقنطرة يُتوصل

(6) كان جامع يلبُغا الشهير يقوم إلى الجهة الشمالية من منطقة بين النهرين (ساحة المرجة حالياً) ، بناه نائب الشام المملوكي يلبُغا اليحياوي عام 847 هـ ، وكان ثاني أكبر جوامع دمشق - بعد الأموي مباشرة - ومن أبهاها وأفخمها . هُدم عام 1960 لأسباب أكثر من تافهة ، ولم نُدركه مع الأسف إلا في الصور ، فكنا لم نبصر النّور بعد .
(7) موقعها اليوم ينطبق على ساحة المرجة .

منها إلى جزيرة لطيفة من رأسها ينقسم نهر بردى فيصير نهرين، والمقسوم منه نهر الصالح المعتقد الشيخ ارسلان أعاد الله علينا من بركاته وعلى المسلمين طول الزمان . وبها مقصفان للبطّالين فيما بين المقسمين وقبالتهما زاوية للشاب التائب ، يُقام بها السبت والثلاثاء من الأوقات بالوعاظ والدواخل ما يصير الحاضر غائباً . ويتوصل إلى زقاق الفرّايين المشتمل على قاعات وأطباق وغُرف وكم رواق ، الجميع يطل على بين النهرين . ولكل مكان من ذلك ناعورة يستلذّ صاحبها بأنسها وتجلب له الماء إذا سمع حسّها .

(نزهة الأنام 65-70)

الشَّرَفان

ومن محاسن الشام شرفاها [8] وما حويا من المناظر والقصور ، وما فيهما من الولدان والحور . وتقرّب إلى الله تعالى أهلها ببناء المدارس ، رغبة في جوار المجرّد الفقير البائس . ورتّبوا له من الخبز واللحم والطعام ، والزيت والحلو والصابون والمصروف في كل شهر على الدوام . فيجلس الطالب في شباكها ينظر إلى الماء والخضرة والوجه الحسن ، فكيف لاينبعث إلى طلب العلم ويتحرّك من فهمه ما سكن !

ويقال إن بمدرسة الكُججانية قُبّة بها طاقات بعدد أيام السنة ، والشمس دائرة على تلك الطيقان ولا تدخل إليها وهذا من حسن الهندسة .

وأما جامع تنكز [9] فإنه في الشرف الأدنى ، وهو من الغايات هندسة وبناء فيه عشرون

---

(8) الشرف الأعلى هو المنطقة التي تمتد في أيامنا من البحصة غربي ساروجة إلى فندق الميريديان والأركان ، أما الأدنى فمن ساحة المرجة والسرايا إلى التكيّة والمعرض .

(9) هذا أيضاً كان من محاسن جوامع دمشق في العهد المملوكي ، فلم يبق منه في عصرنا سوى منارته الرائعة وقسم يسير منه ، أما بناؤه الأصلي فقد «قُطش» باقتراح بعض عباقرة الهندسة ، الذين لو هاجروا من بلادنا إلى البرازيل لأراحوا واستراحوا !

شباكاً على خط الاستواء يشرف على الأنهار ومرجة الميدان وما حوى . وبوسط صحنه يمر نهر بانياس يتوضأ منه الناس ، وبه ناعورتان يملآن ويفرغان إلى حوضين بهما سائر الأشجار ، وجميع الرياحين والأزهار . وبينهما بركة مربعة بها كأس في غاية التدوير، يجري الماء إليها من النواعير . فهو متنزه يُقصد وللمصلّي معبد . وفي كل شرف منهما عدّة من المدارس والمساجد ، ولكل واحد ما يكفيه من الأوقاف استولت عليها أيدي المتشبهين بالفقهاء فأظهروا فيها أنواع المفاسد . فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

وكل شرف يطل على (الشَّقرا) و (الميدان) ، و (القصر الأبلق) و (المرجة) ذات العيون والغُدران . وما أحسن قول الشيخ شمس الدين محمد النّواجي الشافعي في وصف الشرف الأعلى :

ألا إن وادي الشام أصبح آية محاسنه ما بين أهل النُّهى تتلى
وإن شرفت بالنيل مصر فلم يزل دمشق لها بالغوطة الشرف الأعلى

ونقلتُ من خط العلاء علي بن المشرف المارديني في غلام اسمه علي في الشرف الأعلى

جنى عليّ ولكنَّ وجهَهُ حَسَنٌ وفعله المُرتضى يحلو به الشَّغَفُ
بدرٌ من الشَّرَف الأعلى له نَسَبٌ وهل لغير عليٍّ يُنسبُ الشَّرَفُ

الأمير مجير الدين محمد بن تميم يصف الميدان :

عجباً لميداني دمشق وقد غدا كلٌّ له شرفٌ إليه يؤول
والنهر بينهما لغير جناية سيفٌ على طول المدى مسلول

وقال ابن الشهيد في (الشقراء) و (الميدان) :

ولم تحكِ جلّقَ في المحاسن بلدةٌ قولٌ صحيح ما به بهتانُ

ولئن غدوتَ منافساً في غيرها   ها بيننا (الشقراء) و(الميدان)

ومن تحرير القيراطي قوله في وصف الشقراء :

سرْ بي إلى الشقراء من جلّق   واثن إلى الخضراء منك العنانْ
فيها جنان لو رأى حُسنها   أبو نواس لَلَهَا عن (جنان)
وانزل بواديها الذي تُربُه   مسكٌ وحصبا النهر منه جُمان

(نزهة الأنام 70-73)

المرجة

ومن محاسن الشام مرجتها [10]، قرأتُ كتاب وقف تربة السلطان الملك الظاهر (برقوق) ، سقى الله عهده ، الكائنة بالصحرا خارج (باب النصر) من (القاهرة) المحروسة ، وهومتصل الثبوت إلى آخر وقت تسجيله على بعض القضاة الشافعية ؛ من جملته طاحون الشقراء بمرجة (دمشق) المحروسة ظاهر قصر الملك الظاهر أبي الفتوحات (بيبرس) سقى الله عهده ، بالقرب من (زاوية الأعجام) ، ويليها قصبة سوق عدّة حوانيتها أحد وعشرون حانوتاً وعلوها الطباق المطلة على المرجة المذكورة وبآخرها المسجد المطل على نهر بردى . انتهى .

قلتُ : وأدركتُ الطاحون غير دائرة . ولقد هدمها وكيل المقام الشريف برهان الدين النابلسي المعروف بابن ثابت في أوائل دولة السلطان الملك الأشرف (قايتباي) خلّد الله تعالى

(10) المقصود بهذه المرجة ما كان يُعرف حتى النصف الأول من القرن العشرين بمرجة الحشيش ، أما قبل ذلك فبالمرج الأخضر ، وفي عهد نور الدين ميدان ابن أتابك . وموقعها اليوم يمتد من التكيّة السليمانية إلى المتحف الوطني والمعرض حتى ساحة الأمويين . وفي حوزتنا مجموعة صور فوتوغرافية قديمة لهذه المرجة قبل إعمارها ، نقلنا بعضها هنا .

ملكه [11]. فعلى هذا كانت المرجة عامرة آهلة وهي من المحاسن التي لا تُدرك ، وبعضهم يشبّهها بصدر الباز ، كأنه شبهها به لأن الوادي ينضمّ من رأسها ويعلوه جبلان وشبّه هذين الشرفين بالأجنحة .

ونقلتُ من خط التقي ابن حجّة قوله فيها :

ذكرتُ أحبّتى بالمرج يوما فقوّت أدمعي نيران وهجي
وصرت أكابد الأحزان وحدي وكل الناس في هرجٍ ومرجِ

ومن بديع القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر قوله فيها :

ومرجةٌ في وادٍ يروقك روضها ولا سيّما إن جاد غيث مبكر
بها فاض نهر من لجين كأنه صفائح أضحت بالنجوم تُسمَّر
تلاحظها عين تفيض بأدمع يرقرقها منه هنالك محجر
وكم غازلته للغزالة مقلة تسارق أوراق الغصون فتنظر
إذا فاخرته الريح ولّت عليلة بأذيال كثبان الرُّبا تتعثّر
به الفضل يبدو والربيع وكم غدا به الروض يحيى وهو لا شكّ جعفر

(نزهة الأنام 73-76)

الخلخال والمنيبع

ومن محاسن الشام محلّتا (الخلخال) و (المنيبع) ، فمحلة (الخلخال) [12] بها سويقة

---

(11) يتضح من قول البدري أن تأليف كتابه كان في أيام سلطنة الأشرف قايتباي ، كما قلنا .
(12) محلة الخلخال موقعها في أيامنا كما نظن حي الحلبوني ومحطة الحجاز ومُبتدأ حي زقاق الجنّ خلفهما ، ووراءها كانت اللؤلؤة الصّغرى وقينية

وحوانيت وفرن وحمام وهي مسكن الأتراك ، وكذلك المنيبع والشرفان وبه يدق طبلخاناتهم ، وبها زاويتا الأدهمية والحصوية وهي تحفّ بالناس والأعيان .

وما أحسن قول الشيخ جمال الدين محمد بن نُباتة في وصف الخلخال :

يا حبّذا يومي بوادي جلّق ونُزهتي مع الغزال الحالي

من أوّل الجبهة قبّلته مرتشفاً لآخر الخلخالِ

و(المنيبع) [13] محلة وسويقة وحمام وأفران وبها مدرسة (الخاتونية) [14] وهي من أعاجيب الدهر ، يمر بصحنها نهر (بانياس) ونهر (القنوات) على بابها ، ولها شبابيك تطل على المرجة وبها ألواح الرخام لم يسمح الزمان بنظيرها وعدّة خلاوي للطلبة ، وبجوارها دار الأمير الأصيل (ابن منجك) رحمه الله تعالى ، وبها سكن القاضي بهاء الدين بن حجّي الشافعي رحمه الله تعالى . وهذه المحلّة من محاسن دمشق وشرفها . انتهى .

نقلتُ من خط الشيخ شمس الدين محمد النواجي في وصف المنيبع :

يا سادة اهدوا محاسن جلّق لطرفي ففاضت بالبكا عبراتُ

مُنَيبعُ جفني فوق ربوة جبهتي يزيدُ ودمعي بعدكُم قنواتُ

اللتين تنطبقان على زقاق الجنّ ، والحمرية (الحميريين) التي تنطبق على منطقة المجتهد ودوّار كفر سوسة .

(13) المُنَيْبع محلة قديمة بدمشق ، بدلالة اسمها الآرامي الذي يعني : عين الماء المتدفقة . تقع إلى الغرب من المدينة ، إلى الجنوب من نهر بردى ، ويمرّ بها نهرا بانياس والقنوات . موقعها في أيامنا يمتدّ من الحلبوني والبرامكة والجامعة حتى الجمارك غرباً بأعلى ساحة الأمويين . وهي تواجه بذلك الشطر الغربي للشَّرف الأعلى ، وبينهما مجرى بردى .

(14) المدرسة الخاتونية البرانية ، إحدى آثار العهد الأيوبي (الدارس ، 1: 502) . كان موقعها عند مبنى التلفزيون بساحة الأمويين حالياً . ذكر ابن كثير في حوادث سنة 581 هـ : الخاتونية البرّانية التي على القنوات بمحلّة صنعاء دمشق ، ويُعرف ذلك المكان الذي هي فيه بتلّ الثعالب .

متنزّه الجبهة

ومن محاسن الشام المتنزّه المسمى بالجبهة [15]، وهي أرض مربّعة قدر فدّانين عليها سقائف تظلّها من غير طين بين شجر الصفصاف والجوز والحور ، وكل مفرش حصير تحيط به جداول الماء من أربع جهاته مع البُرَك والبحرات بالنوافر وهي على جنب نهر (بردى) ، وبه النواعير وبها حوانيت للشّرابحية والجزّارين والطبّاخين والحواضرية والأقسماوية والنكاهين وغير ذلك . وبها مسجد ومدرستان ومربط للدواب ، ومقاصفيّة واقفون في خدمة الناس . وعندهم اللُّحف والأنطاع والعبي لمن يبيت .

وفيها يقول التقي ابن حجّة الحموي (دوبيت) :

لما ملأ (الجبـ . . . . هة)	لُمْناه على ذلك خوف العار
قال انصرفوا سئمتُ من بلدتكم	و (الجبهة) من منازل الأقمار

وفيها يقول علي بن سعيد صاحب (المرقص والمطرب) وقد رآها عند شمس الأصيل قُبيل المغرب :

إن للجبهة في قلبي هوى	لم يكن عندي للوجه الجميل
يرقص الماء بها من طرب	يميل الغصن في الظل الظليل

---

(15) ينطبق موقع الجبهة في عصرنا ، كما يتبيّن ، على ساحة الأمويين ومبتدأ مرجة الحشيش ، أي عند بناء المسرح القومي والمسبح البلدي وموضع مطعم النبلاء . ذكرها ابن طولون الصالحي في مطلع القرن العاشر في كتابه المخطوط «ذخائر القصر» ، وذكر قطية معها .

وتودّ الشمس لو باتت بها   فلذا تصفرّ في وقت الأصيل

ويعلوها نهرا (القنوات) و (بانياس) المنحدر الماء إليها منه ، ومن فوق النهر حمام النُّزهة [16] وإلى جانبه مقصف بحوانيت فيها البضائع ويمر بوسطه نهر القنوات . ويتوصل منه إلى زاوية الحريري المشهورة وليس أبدع من منظرها . وينحدر منها الماء إلى المتتره المسمّى (قطْية) [17]، وهي مقصف على نهر بردى وعليه النواعيرمتشعبة أراضيه بجداول الماء والبرك والبحرات وبه قصبة ذات حوانيت يعلوها أربعة أطباق ومربط للدواب . وعند المقاصفي العبي واللحف والأنطاع حتى الأطباق والملاعق لمن يأكل ، وهذا مما لا يوجد في بلد من البلاد .

أنشدني قاضي القضاة عز الدين أحمد الكتّاني الحنبلي فيها :

أيا حُسنَ سلسال على نهر قطية   إذا ما جرى فيها نخوض ونلعبُ

تهدده أغصانها برؤوسها   فينظر من طرف خفيٍّ ويهربُ

وقال ابن عماد الأندلسي وأبدع :

نهرٌ يهيمُ بحُسنه من لم يهم   و يجيد فيه الشّعرمن لم يُشعر

فكأنه وكأن خُضرة شطّه   سيفٌ يُسلُّ على بساط أخضر

(نزهة الأنام 77-

(80

متترّه النيربين

---

(16) كان الحمّام بأسفل جسر الأياسة (حديقة الجاحظ) ، وعُرفت أرضه حتى منتصف القرن العشرين ببستان الحمّام ، وقامت فيها بعصرنا مكتبة الأسد المطلّة على ساحة الأمويين .

(17) ينطبق موقعها في أيامنا على الأرض التي قام بها فندق الشيراتون ، مع جزء من ساحة الأمويين . ومن جميل الاتفاق أننا عندما كنا نزور مقهى «النّيربين» في الفندق المذكور ، المقام على نسق متنزّهات دمشق القديمة بالأشجار والمياه الجارية ، نتخيّل أننا في قطية .

ومن محاسن الشام المتنزه المسمى بالبهنسية . وهو روض يجمع بين الأشجار والفواكه والأزهار مع عيون الماء ، وتظهر منه إلى (مرجة جسر ابن شوّاش) [18]. به مقاصفي وبيع وشراء ، ويتوصل منه إلى أراضي (حمص) [19] ما بين رياض وغياض . ويعلوها محلة (النيربين) [20]، وهي [من] أعظم المحلات وأخضرها وأنضرها ، حسنة الأثمار كثيرة الأزهار وبها سويقة وحمّام يقال له (حمّام الزمرّد) وجامع بخطبة ، وهي مسكن الرؤساء والأعيان وبها دار قاضي القضاة نجم الدين يحيى بن حجّي وفيها قتل رحمه الله تعالى، ومنها تدخل إلى أرض الرَّبوة .

وأعجب من هذا أن السالك إلى الرَّبوة من حين يخرج من باب (جامع يلبغا) يمشي بين أشجار وأثمار ومياه وظل ظليل ، لا يمكن أن يرى الشمس إلا أن يقصد رؤيتها. انتهى .

---

(18) أي عند بساتين كيوان ، ما بين فندق الشيراتون وزقاق الصخر الواقع إلى الشرق من مستشفى المواساة ، التي قامت على بستان السَيلون . وكانت هذه المرجة على حالها إلى أيامنا ، إلى أن بُدئ مؤخراً بتجهيزها لبناء مجموعة من الفنادق ، في بساتين كيوان على ضفة بردى إلى الشرق من طاحون الرّهبان (المعروفة بطاحون كيوان في العهد العثماني وحتى يومنا الحاضر) ، وكانت من ضمن بساتين الوادي التحتاني . أما الجسر فيُنسب إلى الحَسَن بن علي بن شوّاش المُقرئ (437 هـ) ، وما زال باقياً إلى أيامنا وله أربع قناطر حجرية ، على وضعه السابق بعد ترميمه في عام 886 هـ كما يذكر المؤرخ ابن طوق .

(19) انفرد البدري بذكر أراضي حمص هذه بين من أرّخ لدمشق وخططها ، باستثناء الأديب الرّحالة تقيّ الدين بن حجّة الحموي ، الذي ذكر في رحلته لدمشق عام 791 هـ : نهر حمص . ويُستخلص من قوله ومن قول البدري أنه فرع من نهر بردى يتفرّع منه في منطقة (الوادي التحتاني) شرقي الرَّبوة ، في المنطقة المعروفة في أيامنا بكيوان . وكانت المنطقة الواقعة إلى الشرق من مرجة جسر ابن شوّاش وأسفل محلة النّيربين تُعرف باسم أراضي (حمص) كما يُفهم من نصّي الحموي والبدري مجتمعين . وموقع هذه المنطقة اليوم ينطبق على الجزء الأسفل الجنوبي من حديقة تشرين على طريق بيروت ، وصولاً إلى الأرض التي كان بها مسبح السيريانا سابقاً .

(20) موقعها اليوم ينطبق على حيّ المالكي وغربيّه ومنطقة مشفى الشامي وحديقة تشرين .

وفيها يقول بدر الدين بن لؤلؤ الذهبي يصف النيربين :

رعى الله (وادي النيربين) فإنني ... قطعتُ به يوماً لذيذاً من العمر
دري أنني قد جئته متنزّهاً ... فمدّ لأقدامي ثياباً من الزهر
وأوحى إلى الأغصان قربي فأرسلت ... هدايا مع الأرياح طيّبة النشر
وأخدمني الماءَ القراح وحيثما ... سنحتُ رأيت الماء في خدمتي يجري

وأجاد الوداعي بقوله ثم أفاد :

ويومٌ لنا بالنَّيربين رقيقةٌ ... حواشيه خالٍ من رقيب يشينه
وقفناوسلّمنا علىالدوح بُكرةً ... فردت علينا بالرؤوس غصونه

سيف الدين المُشدّ ، وأبدع :

وصباً صَبَتْ من (قاسيون) فسكّنت ... بهبوبها وصبَ الفؤاد البالي
خاضت مياه (النَّيربين) عشيّة ... وأتتكَ وهي بليلةُ الأذيال

(نزهة الأنام 80-82)

ربوة دمشق

ومن محاسن الشام محلة (الرَّبوة) [21]، قال بعض المفسرين : الرَّبوة أحدثها بنو كنعان وابتدأوها . وهي المذكورة في قوله تعالى : {وآويناهما إلى ربوة ذات قرارٍ ومَعين} ، يعني مريم

(21) ما تزال المحلة معروفة إلى عصرنا ، كمتنزّه يعجّ بالمطاعم والمقاهي ورائحة الشواء .

وعيسى عليهما السلام . وإنما قيل لها ربوة لأنها مرتفعة مشرفة على غوطتها ومياهها . وكل رابٍ مرتفع على ما حوله يقال له ربوة ومنه تربية الصبي لترفعه في النفس والجسم ، والمَعين الماء الذي يخرج من الأرض .

وقال ابن مطرف في ترتيبه : الرَّبوة فيها ثماني لغات : رُبوة ، ورَبوة ، ورِبوة، ورُباوة ، ورَباوة ، ورِباوة ، ورابية ، ورُبْي ، والجمع رُبى .

والرَّبوة مغارة لطيفة بسفح الجبل الغربي ، وبه صفة محراب يقال إنه مهد عيسى عليه السلام يُزار ويُنذر له . وبها جامع وخطبة ومدارس وعدّة مساجد [22]، وبها قاعات وأطباق ، وفيها عين ماء يقال لها (الملثّم) ومرابط للدواب وبها سويقتان قاطع بينهما نهر (بردى) ، وبها صيّادو السمك يصطادون [23]، والقلاّيون على جبل النهر يقلونه ، ويُذبح فيها كل يوم خمسة عشر رأساً من الغنم خلاف ما يجيئها من اللحم من المدينة ، وبها عشرة شرايحية ليس لهم شغل غير الطبخ والغرف في الزبادي والصحون وكل ما تشتهيه الأنفس فيها . وبها فرنان وثلاثة حوانيت برسم عمل الخبز التنّوري ، وأما الفواكه فلا قيمة لها فإني اشتريت الرطل بربع درهم ، وكذلك الرطل الدمشقي من المشمش مثله والتفاح كذلك .

وبها حمّام ليس على وجه الأرض نظيره لكثرة مائه ونظافته ، وله شبابيك تطل على النهر وهو مبني ما بين الأنهر من فوقه ومن تحته . وبها طارمة المسجد الديلمي الذي جدّده نور الدين الشهيد وله أوقاف على قرّاء ووعّاظ وقراءة البخاري وغير ذلك كالمؤذن والفرّاش والبوّاب والوقاد . وفيه يقول تاج الدين الكندي :

إن (نُورَ الدين) لما أن رأى ... في البساتين قصور الأغنياء
عمّر (الرَّبوة) قصراً شاهقاً ... نُزهة مُطلقة للفقراء

---

(22) لم يبق في عصرنا أي شيء من ذلك ، إنما هناك كتابة أثرية نادرة على متن الصخرة المعروفة بـ (المنشار) ، تؤرخ بناء مسجد هناك عام 444 هـ في أيام الخليفة المستنصر الفاطمي .

(23) أي كان في نهر بردى عند الرَّبوة سمك ، وكانت مياهه عذبة شروبة . أما اليوم فحتى الضفادع تأنف من العيش في بردى لقذارته ونُتنه .

وقال الأمير مجير الدين محمد بن تميم وأحسن رحمه الله :

يا حُسن طارمة في الجوّ شاهقة ما ان تملّ بها العينان من نظر
نزّه لحاظك في طاقاتها لترى أصناف ما خلق الرحمن للبشر
ترى محاسن وادٍ يحتوي نزهاً لذاذة السمع والأبصار والفكر
وربوة قد سمت حتى تخال لها سراً تحدثه للأنجم الزهر
ما بين روض وأنهار مسلسلة تجري وتحمل أنواعاً من الثمر
كم بتُّ فيها وخدني شادن غنج حلو التثني كغصن البانة النضر
أشكو إليه الذي ألقى ومقلته تشكو إلي الذي يلقى من السهر
حتى رأيت نجوم الليل قد غربت عنا وهبّت علينا نسمة السحر
قمنا نجرّر أذيال العفاف بها والله يعلم منّا صحّة الخبر
لاخير في لذة تمضي ويعقبها خطيئة تسلك الإنسان في سقر

ومن لطائفه قوله :

موضع القس جنّة الخلد أضحت مهجتي كل ساعة تشتهيها
طوّقتني بفضلها فلهذا كلما زرتها أغرّد فيها

وهذه القاعة التي بناها نور الدين الشهيد هي على شعب جبل جميعها متختّة بألواح من خشب ، سقفها (نهر يزيد) وأساسها من تحتها (نهر ثورا) ومنظرها من الغايات التي لا تُدرك . وقبالها في الجبل الغربي [24] ضريح العاشق والمعشوق وعليهما صومعتان مبيّضتان وبينهما سبعة مقاصف كل مقصف فيه من الثريّات والمصابيح والغطاء والوطاء ما لا يحاط به الوصف ، حتى

(24) الجبل الغربي هو جبل المزّة ، ولا وجود لضريح عشّاق به في عصرنا ، إنما به السجن المعروف الذي أقيم في أوائل القرن العشرين .

أن بعض الناس يطلع اليها ليتنزّه فيها يوماً فيقيم بها شهراً ، وجبلاها متقابلان متلاقيان عليها ، الجبل الغربي بذيله دفّ الزعفران والجبل الشرقي رأسه مثل الجنك . ولهذا أطنب الشعراء في وصفهما .

وقال الشيخ جمال الدين محمد بن نُباتة في وصفهما :

بالجنك من مغنى دمشق حمائم في دف أشجار تشوق بلطفها
فإذا أشار لها الشجيّ بكاسه غنّت عليه بجنكها وبدفّها

وطلع الشيخ شمس الدين محمد بن الخياط الشهير بضفدع مع ابن خلّكان إلى الرَّبوة ، فوجدا غلماناً يعومون ويلعبون في نهر (ثورا) الذي تحت التخوت المعروف بالمنيقبة [25]، فأنشد ضفدع قوله :

لربوتنا وادٍ حوى كلّ بهجة فعيش الورى يحلو لديه ويعذب

(25) يقدّم لنا البدري هنا فائدة هامّة في الطبوغرافيا التاريخية لمدينة دمشق ، فاسم المنيقبة المذكور كان يشكل لغزاً استغلق على الحل مدّة طويلة . فقد ذكر المؤرخ الدمشقي يوسف بن عبد الهادي في أواخر القرن التاسع الهجري برسالته «غدق الأفكار في ذكر الأنهار» : نهر ثورا .. مقسمه من الرَّبوة .. يهبط في نقب يُقال له [...] . وقد سقط من المخطوطة اسم هذا النُّقب بسبب تآكل أطراف الأوراق ، فبقي اسمه مجهولاً ، وكنا أمضينا في التفتيش عن اسمه سنوات طوالاً ، إلى أن أسعفنا به البدري أخيراً . وكان الرحّالة الكبير ابن بطوطة الطّنجي قد وصف النّقب في رحلتيه لدمشق عامي 726 هـ و 749 هـ ، ولكن دون أن يسمّيه : وهو يشقُّ تحت الرَّبوة ، وقد نُحت له مجرى في الحجر الصّلد كالغار الكبير . كما عثرنا أيضاً على ذكر للمنيقبة في أواسط القرن التاسع الهجري في كتاب «خريدة العجائب وفريدة الغرائب» لابن الوردي ، ص 181-182 ؛ وكذلك في النصف الأول من القرن العاشر الهجري في كتاب «مفاكهة الخلان في حوادث الزمان» لابن طولون الصالحي (1 : 320) : قطع ماء نهر المنيقبة . ويُفهم من كلامه أن اسم المُنيقبة كان يُطلق في عصره على مجرى نهر ثورا بعد أن يهبط من النّقب المذكور .

ترقّ لنا الأنهار من تحت جنكه فلا عجب أنا نخوض ونلعب

فأنشد ابن خلّكان رحمه الله :

وسرب ظباء في غدير تخالهم بدوراً بأفق الماء تبدو وتغربُ
يقول خليلي والغرام مصاحبي أما لك عن عهد الصبابة مذهبُ
وفي دمك المطلول خاضواكما ترى فقلت له دعهم يخوضوا ويلعبوا

(نزهة الأنام 82-91)

المَقْسَ . . م

ومن محاسن الشام (المقسم) الذي تنقسم منه السبعة أنهار ، وأصله من ينابيع (عيون التوت) [26].

وإليها يشير برهان الدين القيراطي بقوله :

عندي لأرض دمشق فرط صبابة فسقى حماها الرَّحبَ صوبُ غيوث
وعيوننا لفراق مشمشها حكى جريانُ أدمعها (عيونَ التُّوث)

ويمر [بردى] على قرية الزبداني كالبحر إلى أن يلتقي على قرية (الفيجة) الفيحاء [بمياه ينبوعها] .

وما أحسن قول الشيخ برهان الدين القيراطي في وصف الزبداني :

دمشق وافى بطيب نعيمها المتداني

(26) أي نبع بردى في قرية الزَّبَداني غربي دمشق .

وصح قول البرايا من عاشَرَ الزَّبَداني [27]

ويقال : من ظاهر (باب السلامة) إلى ظاهر (باب توما) ثلاثمائة وستون عيناً تجري إلى القبلة . قلت : ورأيت غالبها وارتويت من عذبها . انتهى .

وتنقسم هذه الأنهار السبعة منها : (يزيد) و (ثورا) بذيل الجبل الشرقي . ويشق نهر (بردى) ببطن الوادي ، ونهر (بانياس) ونهر (القنوات) ونهر (القناية) ونهر (الدّاراني) بذيل الجبل الغربي .

وآخر ما يتصفّى من هذه الأنهار ويفضل منها هو نهر (بردى) ويترل في (المقسم) على نحو من عشرين درجة كالشّادروان ، فرؤيته تُذهب الهمّ وتزيل الحزن .

وما ألطف قول القاضي صدر الدين بن الآدمي رحمه الله :

قالوا فؤادَك برِّد عن محبتهم فقلت نار الهوى لا تنطفي أبدا
برّدت قلبي عن الأحباب مُذ رحلوا بما (يزيدُ) على (ثورا) وما (بردا)

وقال صاحب دواوين الإنشاء العلاء بن فضل الله :

انزل بباناس ففي نهرها سرٌّ به تجلى عروس السُّرور
واسمع حديث الماء في جريه فانه يشفي عليل الصدور

وجمعها الشيخ شعبان الآثاري في قوله وأجاد :

شوقي (يزيدُ) وقلبُ الصَّبِّ ما (بردا) و(بان ياسي) من (المعشوق) حين غدا
ومدمعي (قنوات) و(العذول) حكى (ثورا) يلوم الفتى في عشقه حسدا

(27) يقصد بذلك المثل المتداول قديماً بين أهل الأدب : «من عاشر الزَّبَداني فاحت روائحه» . راجع الريف السوري لوصفي زكريا ، 2 : 272 .

على مغنّيـ . . . ـة (بالجَنْك) (شبّابة) كم بها من (عاشق) شهدا
فالبدر (جبهتها) والرِّدف (ربوتها) وخلّها مات من (خلخالها) كمدا

(نزهة الأنام 91-94)

حواكير دمشق

ومن محاسن الشام (الحواكير) [28]، وهي كالحدائق في سفح (جبل قاسيون) ، فإن الفاصل بينه وبين (جبل الرَّبوة) عقبة قرية (دمّر) التي بحدّ (قبّة سيّار) . يقال إن سيّاراً هذا وبشّاراً كانا يتعبدان على رأس هذين الجبلين اللذين للربوة وكأنهما كانا من أصحاب الخطوة ، فإذا أراد أحدهما الاجتماع بالآخر يضع قدمه على جانب الجبل والأخرى عند صاحبه ، فكأنهما كانا يمشيان في الهواء ، فبنوا لهما هاتين القبّتين على هذين الجبلين .

رجع : وكان حكماء اليونان ازدرعوا هذه الرياحين والأزهار في سفح (جبل قاسيون) لحكمة وهو أنه يقيها البرد كونها في داره ، وأن النسيم إذا مرّ بها يحمل منها [من طيب الريح] ما استطاع ويسري به إلى من تحتها من أهل المدينة والسكان [29].

ومن محاسن الشام (الورد) ، وهو جنس منه ستة أنواع بدمشق خلا الأسود . وقرية الزَّبَداني هي قلعة الورد ، يستخرجون بها ماوَرْد القاهرة المحروسة ومكّة المشرّفة وغيرهما من البلاد [30]. وكذلك فاكهتها هي المنقولة إلى القاهرة المحروسة وغيرها .

---

(28) كان اسم الحواكير ما يزال متداولاً معروفاً بدمشق حتى أواخر السبعينيات من القرن العشرين ، ولقد أدركنا أواخر هذه الحواكير المزروعة بالصبّار والأشجار المثمرة ، إلى أن تم اجتثاث آخرها وقامت بها الأبنية الشاهقة ، فآل حتى اسمها إلى النسيان . وموقعها اليوم يُعرف بغربي المالكي ، وصولاً إلى مشفى الشامي وساحة آخر الخط .

(29) هذه كانت دمشق ، أما الآن فالحرارة بها في الصيف تسجّل 47 درجة مئوية ، وأكثر .

(30) للجغرافي الدمشقي شيخ الرَّبوة الدّمشقي (المتوفى عام 727 هـ) نص طريف ونادر عن صناعة تقطير الورد في عصره بكتابه «نُخبة الدّهر في

ومن محاسن الشام : الورد النّسريني ، والنّسرين ، والنَّرجس ، والبنفسج ، والياسمين ، والمنثور ، والسَّوسن ، والزَّنبق ، والبهار (وهو الأقحوان الأصفر) ، والأقحوان ، والأذريون ، والبابونج ، والآس ، والرَّيحان ، والنمام ، وشقائق النعمان ، والنيلوفر ، والبان، والآس البرّي (قف وانظر) [31]، وثمر الحنّا ، والحيلاني (وهو شجر يشبه الصفصاف) ، وشجر الزَّنزلخت ، وشجر السَّرو .

قلتُ : وجميع هذه المحاسن بالحواكير ، غير أن الماء لا يصل إليها إلاّ بجهد كبير لعلوّها عن نهر يزيد ، فاصطنعوا لها الدولاب ودورانه بكل بهيم شديد . وفيه يقول ابن لؤلؤ الذهبي :

حاكورةٌ دولابها إلى الغصون قد شكا
من حين ضاع زهرها دار عليه وبكا

(نزهة الأنام 102-185)

المزّة واللّوّان وكفر سوسية

ومن محاسن الشام أرض «المزّة واللّوّان» ، فإن حكماء اليونان لّما رأوا الجانب الشمالي يصلح لزراعة الأزهار ، ورأوا طيبة أرض الجانب القبلي اختاروها لغرس الأشجار .

فمنه : المشمش ، والقراصيا ، والكمّثرى ، والتفّاح ، والدّرّاقن ، والخوخ ، والأجاص

وكل هذه الأصناف والألوان بالمزّة وأرض اللّوان ، وبها الدُّور الوسيعة الفناء المليحة

عجائب البرّ والبحر» .

(31) انقرض هذا الآس البرّي من دمشق ، وكانت صديقتنا الكبيرة الأديبة ألفة عمر باشا الإدلبي نقلت في بعض كتاباتها الأدبية الشيّقة عن دمشق ، من ذاكرة بعض بساتنة الصالحية القدامى من الرّعيل الأول ، أن آباءهم أدركوه وكانوا يسمّونه : الأفنْضُر .

الأساس والبناء . وفيها أعيان الناس ، وهي الجامعة بين حسن الأنواع والأجناس مع الهواء الصحيح والاعتدال بالترجيح . وبها سويقتان ، فيهما سائر ما يُشتهى من الألوان . ومصلّى بخطبة وخطبة بجامع جديد ، وفيها ضريح الولي المُعتقَد الشيخ سعيد [32]، أعاد الله علينا من بركاته وأمدّنا بصالح دعواته .

ويُتوصّل منها إلى قرية (كفر سوسة) ، وبها معصرة زيت وأشجار زيتون من زمن عيسى عليه السلام ، مع الفواكه الكثيرة بطريق الانضمام .

(نزهة الأنام 187-
212)

المزّاز والشويكة

ومنها إلى أرض (المزّاز) و (الشويكة) ، وهي من محاسن الشام وإليها يُنسب الرُّمّان الشويكي .

(نزهة الأنام
214)

داريّ . . ا

---

(32) كنا في كتابنا «معالم دمشق التاريخية» (ص 384) قد بحثنا بغير جدوى تسمية محلة «الشيخ سعد» المعروفة في أيامنا بمنطقة المزّة القديمة ، والتي سكتت عنها جميع المصادر المعتبرة . فها هو البدري هنا يحلّ لنا هذا اللّغز بتسمية الولي الشيخ «سعيد» . وذكر ابن طولون في القرن العاشر (مخطوط ذخائر القصر) : ومنها الشيخ سعيد قبلي المزّة ، تجاه محل استسقاء أهل دمشق ، وقد أدركتُ به منبراً من حجر حتى قبّته .. يهرع الناس إلى هناك للفرجة على الوادي الفوقاني ذهاباً وإياباً ، ويزورون الشيخ سعيداً ..

ومن محاسن الشام قرية (داريّا) ، وهي قبلي (الشويكة) ، وبها السيّدان الجليلان أبو سليمان الداراني وأبو مسلم الخولاني ، أعاد الله علينا من بركاتهما المتواترة وأفاض علينا من بحار علومهما الزاخرة . وإليها يُنسب البطّيخ الداراني .

(نزهة الأنام 219-220)

يلدا

ومن محاسن الشام قرية (يَلْدا) ، وهي من القبلة إلى شرقي قرية (عربيل) ، وما بينهما من القرى الجميع برسم زراعة كروم العنب وعرائشه .

قلتُ : وبين هذه الكروم المذكورة قطع أراضٍ جميعها أصول لوز ، ليس لها نظير في أيام تنويرها ، وهي من محاسن الشام .

(نزهة الأنام 223-235)

مرج الشيخ أرسلان

ومن محاسن الشام (مرج الشيخ أرسلان) [33]، أعاد الله علينا وعلى المسلمين من بركاته

(33) يقع هذا المرج موضع تربة الشيخ أرسلان بظاهر باب توما ، ويتّضح من كلام البدري أن المرج كان يشمل منطقة أكبر من المساحة التي يقع بها المقام والتربة الحاليّان ، ويبدو أنه كان يضمّ عدّة بساتين ومحالّ ، كالأحدعشريّة وطاحون الجاج إلى أكناف ما يُعرف اليوم ببساتين الطبّالة والدّويلعة . أما الشيخ أرسلان فهو المتصوّف المشهور في القرن السادس الهجري ، له عند أهل الشام إلى اليوم مكانة روحية متناهية السموّ ، وما برح اسمه يُذكر دوماً في العراضات الشعبية . وكنا في عام 1984 قد نشرنا عن سيرة حياته كتاباً بعنوان : «غاية البيان في ترجمة الشيخ

، وأجرى علينا من صالح كراماته ، وفيه أقول :

يا من غدا قلبه قاسيا قم لولي صادق البرهان
وقف بذلّ وانكسار وقل بمدمع يا سيدي أرسلان

وهو يشتمل على أنهار وأشجار ونواعير لها مع النسيم رشّاش ، وغالب تلك الأراضي تزرع الخشخاش .

(نزهة الأنام

(248

الوادي التحتاني

ومن محاسن الشام (الوادي التحتاني) [34]، وهو شرقي (مرج الشيخ) ، وهو يشتمل على غياض ورياض ، فالرِّياض هي رياض السَّفرجل ، وفيه يقول القيراطي :

فؤادي إلى بانات جلّق مائل ودمعي على أنهارها يتحدّرُ
فوافٍ إلى زهر السفرجل شيّقاً إذا ما بدا مثل الدراهم ينثر
غياضٌ يفيض الماء في عرصاتها فتزهو جمالاً عند ذاك وتزهر
ترى بردى فيها يجول كأنه وحصباؤه سيفٌ صقيل مجوهر

وهنا نكتة لطيفة وهو أن الشيخ جمال الدين محمد بن نُباتة قدم إلى دمشق في أيام السفرجل فأضافه الشيخ جمال الدين يوسف بن غانم في (الوادي التحتاني) لأجل رؤية زهر

أرسلان» ، للمؤرخ الدمشقي ابن طولون الصالحي .
(34) يريد البدري بهذا الوادي التحتاني القرى القبلية للغوطة الشرقية ، الواقعة شرقي مدينة دمشق ، جنوبي المجرى الرئيسي لبردى . مع التنبيه إلى عدم الخلط بينه وبين الوادي التحتاني إلى الجنوب الشرقي من الرّبوة ، فيما يُعرف بأيامنا ببساتين كيوان .

السفرجل ، فصادف نهار حرّ وقيظ شديد ، فأنشد الشيخ جمال الدين محمد بن نُباتة المصري :

قد أشبه الحمّام مترل لهونا   فالماء يسخن والأزاهر تحلق
فلذاك جسمي منشد ومصحّفٌ   عرق على عرق ومثلي يعرق

فأجابه الشيخ جمال الدين يوسف بن غانم يقول :

ما أشبه الحمّام مترلُ لهونا   إلاّ لمعنى راق فيه المنطق
فالدَّوح مثل قبابه والزهر كالـ   ـجامات فيه وماؤه يتدفّق

وأما الغياض فهي غياض الحور ، وهو في علو السواري خالص الاعتدال ورقه بوجهين أخضر وأبيض ، له مع النسيم حفيف لطيف بساق أبيض صقيل ترتاح الأنفس إليه.

وبه (غيضة السلطان) [35]، وحورها لا يستطيع الإنسان أن يدخل فيما بينه لانضمامه ولئلا يضل عن الطريق ، كأنه سُكب بقوالب من الشمع .

وبهذا الوادي متره يقال له (ستّ الشام) ، وهو مرجة خضراء ما بين هذه الغياض وبها عين تجري بماء بارد عذب .

(نزهة الأنام 249-254)

المـ . . مرج

ومن محاسن الشام [المرج] [36]، وأوله منتهى (الوادي التحتاني) وآخره (البحرة) [37]،

(35) كانت هذه الغيضة تقع بين قريتي جسرين وحتيتة جرش على نهر بردى ، ولكنها لا تُعرف بهذا الاسم اليوم . ولا علاقة لها بقرية مرج السُّلطان المعروفة في المرج ، والمنسوبة للسّلطان العثماني سليمان خان القانوني .
(36) الكلمة ساقطة بالأصل ، وما زال المرج يُعرف بهذا الاسم حتى أيامنا ،

يقال إنه يشتمل على ثلاثمائة وستين قرية تزرع الغلّة والحبوبات ، وفي الغالب الشعير .

و(البحرة) إليها ينصبّ ما يفضل من مياه أنهار دمشق ومنها صيدها من السماء والماء من الطيور والأسماك صيفاً وشتاء [38].

(نزهة الأنام

255)

الضُّمَيْر

ومن محاسن الشام «ضمير» ، وهي من القرى القديمة اتّخذها اليونان ، وإليها يُنسب البطيخ الضميري الأصفر .

(نزهة الأنام

256)

برزة

ومن محاسن الشام «برزة» ، وهي من متنزّهات دمشق التي يُرحل إليها ، وهي شمال ضمير وبها مقام نبي الله ابراهيم الخليل عليه السلام ، وقد تقدّم سبب تسميتها برزة. وإليها يُنسب التين البرزي.

(نزهة الأنام 260-

261)

وقديماً عُرف بتسميات عدّة : مرج دمشق ، مرج راهط ، مرج عذراء ، مرج الغوطة .

(37) أي بحيرة العتيبة المعروفة ، التي يصبّ فيها ما يفضل من بردى .

(38) وأين هي الطيور والأسماك اليوم ! لقد غدت واحة دمشق في خاتمة الألفية الثانية منطقة أدعى إلى الجفاف آيلة إلى التصحّر بسبب الاكتظاظ وسوء استخدام الموارد المائية .

القابون

ومن محاسن الشام «القابون» ، وهي حسنة الماء والهواء ، وهما قابونان: فوقاني وتحتاني ، وبهما أرض (مصطبة السلطان) (39)، وهي مصطبة في قدر فدّان يُصعد إليها في نيّف وعشرين درجة من جهاتها الأربع ، وفيها قصر حسن البناء يترل به الملوك والسلاطين عند توجههم إلى الأسفار .

وإلى هذا القابون يُنسب الخيار .

(نزهة الأنام 264-265)

بيت لهيا والعنّابة

ومن محاسن الشام (بيت لهيا) (40) و(العنّابة) ، ومن الناس من يقول (بيت الآلهة) وهو مكان مبارك يُزار ، ويقال إن حوّاء عليها السلام كانت مقيمة بهذا المكان . ونقل بعض المؤرخين قال : كانت حوّاء عليها السلام في (بيت لهيا) وآدم عليه السلام في (بيت أبيات) وهابيل في (سطرا) وقابيل في (قينية) .

فائدة عن عبد الرحمن بن يحيى بن اسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر ، قال : كان خارج باب الساعات صخرة يوضع عليها القربان ، فما تقبّل منه جاءت نار فأحرقته وما لم يتقبّل بقي على حاله . وكان هابيل صاحب غنم وكان مترله في (سطرا) ، وكان قابيل صاحب زرع وكان مترله في (قينية) ، وكان آدم في (بيت أبيات) ، وكانت حواء في (بيت

---

(39) يريد بها مصطبة السلطان ، كانت في سهل القابون بينها وبين برزة ، وهي مصطبة عظيمة كان الملوك والنواب والقواد في العهد المملوكي ينزلون بها إذا قدموا من جهة حلب ، ثم تخرج جيوش دمشق لملاقاتهم بها ، ويدخلون دمشق بموكب حافل .

(40) موقعها اليوم حيّ القصّاع المعروف ، إلى الشمال من محلّة باب توما .

لها) . فجاء هابيل بكبش سمين من غنمه فجعله على الصخرة فأخذته النار ، وجاء قابيل بقمح من غلّته فوضعه على الصخرة فبقي على حاله ، فحسد قابيل وتبعه في هذا الجبل يريد قتله حتى صار من أمره ما صار .

قال بعض المؤرخين : وهذه الصخرة هي الآن في الجامع عند باب جيرون بالقرب من (حاصل الزيت) وهي صخرة سوداء مقرورة . انتهى .

(نزهة الأنام 268-270)

العنّابة

وأما (العنّابة) [41] فهي محلة الآن تشتمل على دور وقصور ، والسبب في تسميتها أن كاهناً في زمن الرُّوم كان يتعبّد في صومعة بتلك الأرض فحصل له علّة أشرف منها على الهلاك ، فترل عنده تاجر من تجار الروم ومن جملة متجره خمسة أحمال عنّاب ، فحلّها ونشرها ، وكانت دمشق مُمحلة من العناب وليس يوجد بها حبّة عناب ، فصار هذا الكاهن يتناول منه وقد طاب له . فلما أصبح جاء إليه الطبيب فوجده قد نصل من تلك العلّة ووجد الكاهن في نفسه نشاطاً ، فقال له : ما الذي استعملت البارحة ؟ قال: الشيء الفلاني ، ونسي ان يذكر له العناب . فقال الطبيب : ولعلك استعملت عنّاباً ؟ قال : نعم ، ومن أخبرك بذلك ؟ قال : لعلمي أن علّتك هذه لا يبرئها سواه ، وهو معدوم ، واختشيتُ أن أعلّق خاطرك به .

فزرع الكاهن الأرض التي حول صومعته جميعها عناباً ، وتقرّب بها في كل من احتاج منها إلى شيء يأخذه ، حتى يقال إن في الإسلام وُجد من ذلك العناب فرد شجرة وبُني ما حولها ، فسميت تلك المحلة بها ، والله تعالى أعلم .

(نزهة الأنام 268-

(41) موقعها في يومنا شمالي محلتي القزّازين والسّادات ، عند جادّة الخطيب والقصور .

(273

سطرا ومُقرى

ومن محاسن الشام أرض (سطرا ومُقرى) ، وهما من الأراضي الطيّبة الفيحاء . وفيها يقول جلال الدين ابن خطيب داريّا :

خليليّ إن وافيتما الشام بُكرةً   وعاينتما الشقراء والغوطة الخضرا
قفا واقرءا عني كتاباً كتبته   بدمعي لكم مقرى ولا تنسيا سطرا

وفيهما يقول ابن عُنين :

ألا ليت شعري هل أبيتنّ ليلة   وظلّك يا مقرى عليّ ظليلُ
دمشقُ في شوقٌ إليها مبرّحٌ   وإن لَجّ واشٍ أو ألحّ عذولُ

وبينهما متنزّه يسمى باليلكي ، يجتمع فيه الناس أيام زهر السفرجل ويسيّبون الماء تحت أشجاره ويوقدون في ظلمة الشهر قشور البيض ويطلقونها في الماء ، ويعلّقون قشور النارنج موقدة في الأشجار ، ويضربون الخيام في بستان الحاجب ويقطعون فيه أوقاتاً من اللذة والانشراح يعجز الوصف عنها .

(نزهة الأنام 273-

(275

أراضي المزارع

ومن محاسن الشام أراضي المزارع [42]، وهي خضرة مع الفلاة وكثرة المياه . ومن خصوصياتها الهليون والطرخون والكرنب والباذنجان والكرّاث والجزر ، وبها الزعتر والفجل والسّذاب والنعناع والرَّشاد والبقلة والإسفاناخ والكرفس والسِّلق والهندباء والبصل والثوم والكسفرة والكراويا والكمّون والقَرع ، وبها الكمأة وهي من خواصها ، وبها اللوبياء والأرز والباقلاء والذُّرة والدّخن والماش والقرطم والعدس والسُّمسم وبزر قطونا والتّرمس والحمّص والحلبة والخسّ.

(نزهة الأنام 275-310)

الميطور والسّيلون

ومن محاسن الشام أرض (الميطور) [43] و (السَّيلون) [44]، وهما من متنزّهاتها ، ويقال إن أول من غرس بها غراساً بيده سليمان بن عبد الملك .

[وبهما شجر] البندق والفستق .

ويقال إن سليمان بن عبد الملك كان نهماً في الأكل ، فجاءه بستاني ليضمن بستانه هذا ، فقال: أركبُ إليه أولاً أنظر فاكهته ثم نضمّنك إيّاه . ثم ركب ودخل البستان فلم يدع به من الثمار إلاّ اليسير حتى ما خلّى فيه من البندق الأخضر والفستق إلاّ ما عزب عنه . ثم نادى الضامنَ سليمانُ وقال للشهود : اكتبوا على هذا ضمان هذا البستان . فقال البستاني : كنتُ

(42) يخيّل لنا أنه يقصد بها منطقة بساتين أبي جرش ، بما يصاقب اليوم منطقة شرقي ركن الدين والحزام الأخضر وملعب الفيحاء ومبتدأ أوتوستراد القابون .
(43) الميطور من أراضي الصالحية المعروفة شرقيها بين نهري يزيد وثورا على طريق برزة .
(44) لا نظنّه بقرب الميطور بالأرباض الشرقية للصالحية ، بل بالنّيرب ، وسنأتي على ذكره . وكان بأسفل الميطور ونهر ثورا محلّة بيت أبيات، بنواحي مشفى ابن النفيس اليوم .

أضمَّنه قبل دخول أمير المؤمنين إليه !.. فضحك منه . ويقال إن قشر البندق والفستق تجمّع فجاء قدر مكّوك طائفي وفضل عنه .

نقل الحافظ ابن عساكر في تاريخه عن عبد الله بن عبد الله بن الحارث قال : أخبرنا أن سليمان بن عبد الملك أمر قيّم بستانه أن يحبس على الفواكه لا يجني منها شيئاً ، وأمرني بالركوب معه عند طلوع القمر من آخر الليل ومن حضر من أصحابه . فلما دخلنا إلى البستان انفرد كل منا يأكل حتى ارتفع النهار ، ثم صرنا إليه وقد أكلنا قدر الطاقة ، ونحن نقول : هذا القطف العنب استوى ، فيخرطه في فيه ، وهذه التفاحة نضجت وهذه الانجاصة ناعمة ، وكلما رأينا شيئاً نضيجاً نشير إليه فيتناوله ويأكله .

حتى آن الضحى ، فأقبل على قيّم البستان وقال : ويحك ياشمردل إني قد جعت ، فهل عندك شيء تطعمنيه ؟ قال : نعم ، عناق حولية حمراء . قال : ائتني بها بلا تأخير . فجاء بها مشوية على خوان وهو قائم بين أشجار الفاكهة ، فصار يتناول منها قطعة بعد قطعة ويتناول عليها الفاكهة إلى أن فرغت .

فقال له : ياشمردل هل عندك غيرها ؟ فقال : نعم ، دجاجتان معلوفتان قد عميتا شحماً . قال : ائتني بهما . ففعل كما فعل بالعناق وأتى بهما وهو قائم بين أشجار الفاكهة حتى فرغا ، وقال له : إن كان عندك سويق بسمن سلا وبعض سُكّر فائتني به فإني جائع ، فجاء بذلك فأكله . واستدعى بماء بارد وجعل شمردل يصب عليه الماء وأمير المومنين يحركه حتى كفأه فارغاً .

ثم أعاد الأكل في الفاكهة فأكل مليّاً ، وإذا بالسماط حضر فجلس يأكل كأنه لم يأكل شيئاً . قال الحارث : فعجبنا منه .

ويقال إنه عرضت له حمّى عقيب هذا أشرف منها على الموت ، وقيل بل سبب موته أنه أكل أربعمائة بيضة وسلّتي تين وسبعمائة رمانة وخروف وست دجاجات ومكّوك زبيب طائفي . انتهى .

وإنما ذكر ذلك على سبيل الاستطراد وذكر بستانه والله أعلم .

(نزهة الأنام 310-

317)

السَّ هم

ومن محاس الشام (السهم) [45]، وهو متصل بأرض الصالحيّة ، وهو درب ما بين دور وقصور وفاكهة وزهور ومياه تجري بهدير كالبحور . وفيه يقول القيراطي :

دمشق بواديها رياضٌ نواضرٌ بها يتجلي عن قلب ناظرها الهمُّ
على نفسه فليبك من ضاع عمره وليس له فيها نصيبٌ ولا سهمُ

ومن لطائفه قوله فيها وفي السَّهم :

بقاع دمشـ ق للأمير بشـ ائر فقف بمغاني جنكها مترنّما
بقاعٌ إذا قوس الرباب بسهمه رماها غدت بالوشي برداً مسهما

(نزهة الأنام 317-

318)

بصارو وبهران

ومن المحاسن أرض (بصارو) [46] و (بهران) [47]، وهما معدن التوت وأصل حُسنه

---

(45) كان هناك سهمان : السهم الأدنى موقعه في عصرنا طريق الجبّة على كتف نهر ثورا شرقي محلة الجسر الأبيض ، والسهم الأعلى بمحلة طريق الشيخ محيي الدين بأعلى الجبّة .

(46) من بساتين الصالحية المعروفة ، ذكره ابن طولون الصالحي في القلائد الجوهرية (1 : 315) ، وأثبت الشيخ دهمان موقعه في مخططه عن الصالحية بين محلتي الميطور والشبلية بأسفل نهر يزيد . قلنا : ينطبق في أيامنا كما ترى على حي ركن الدين .

المنعوت .

(نزهة الأنام

(318

الصالحية

ومن محاسن الشام (الصالحية) مشحونة بالزوايا والترب والمدارس حتى أن بها قصبة دون ميل تمشي فيها بين ترب ومدارس ببناء جميل ، استولى عليها المباشرون والنظّار ، فأزالوا منها العين و لم يبق سوى الآثار . فكم من مدرسة اندرست بعد الصلاة والتراويح، وأمست في ظلمة بعد تلك المصابيح ، وهي تقول : أصبحتُ حاصلاً، بعدما كان إيواني بالقرّاء عامراً آهلاً ، وهذه تقول : أضحيتُ مربطاً للبهائم ، بعدما كنت معبداً للقائم والصائم . وهذه تقول : اتخذوني مسكناً . وهذه تقول : جعلوني متبناً . وهذه تقول : هدّوني ، وأخذوا سقفي وكشفوني . وهذه تقول : أخربوا جداري وباعوا الباب ، وجعلوني مأوى للكلاب . والأوقاف تستغيث إلى المولى المغيث ، فيقال لهم : اسمعوا كلام الرحمن في محكم القرآن : {إنّ إلينا إيابهم ، ثم إنّ علينا حسابهم} .

فيا شوقاه لحسن (الجركسية) وحلاوة (الرُّكنية) ، ويالهفاه على (جامع الأفرم) و(الناصرية) ، تغيّرت تلك المعاهد ، وغُلّقت أبواب تلك المساجد والمعابد . إنّا لله وإنا إليه راجعون . إنّ هذا لهو البلاء الجسيم ، فلا حول ولا قوّة إلا بالله

---

(47) ذكر ابن كنّان الصالحي في القرن الثاني عشر الهجري بكتابه «المروج السندسية في تلخيص تاريخ الصالحية» (ص 66) : والنّيرب غربي الصالحية ، وهو من محاسن دمشق ، أوله بستان بهران . وذكر د. صلاح الدين المنجّد (تاريخ دمشق لابن عساكر ، 2 : 337) : كان في النّيرب الأعلى بين النهرين مكانان اسمهما بهرام وسيلون . قلنا : أما السَّيلون فهو موقع مشفى المواساة اليوم ، وأما بستان بهران فكان يقع جنوبي وغربي الفواخير ، بين محلتي الباشكاتب ونوري باشا في عصرنا ، أي أول بساتين النّيرب غربي الصالحية .

العلي العظيم .

وبالصالحية نهران فيها يجريان : (ثورا) و (يزيد) ، وكم عليهما من غرفة وقصر مُشيد

يُحكى عن ابن الصائغ الحنفي أنه لما قدم من القاهرة إلى دمشق المحروسة نزل في (الجسر الابيض) عند الأمير مجير الدين بن تميم ، ونهر ثورا يمر بداره المأنوسة ، فأجلسه على جانب النهر لأجل برد الهواء ، فرأى شمس الدين ابن الصائغ ما يمرّ من الفواكه على وجه الماء وصار يتناول ويأكل ما استطاب ويضع قدّامه منه ما أعجبه ، ثم التفت لابن تميم وقال له : أنت يُغنيك هذا النهر عن شراء الفاكهة بفيض فضله العميم . وأنشده في الحال ارتجالاً :

يقول وقد رأى ثورا خليلي يفيض بسائر الثمرات فيضا
أيكفيكم فلا تشرون شيئا فقلتُ نعم ، ونبيعُ أيضا

فقال ابن الصائغ : وهذه الفاكهة أليس يرميها في النهر أرباب الغيطان ؟ قال له ابن تميم : إنما هذه من اشتباك الأشجار وانحنائها عليه ، فيلقيها النسيم عندما تشتبك الأغصان ، وأما البساتنة فإنهم يضعون فواكه مجموعة على أبواب البساتين ، كالزكاة لمن يمرّ بها ويحتاج إلى شيء فيأخذه من الفقراء والمساكين .

وأُخبرتُ في القديم أن بعض الفقراء يضع مكتله على رأسه ويسرح في طرق البساتين ، فيعود وقد امتلأ مكتله مما يسقط من الأثمار ، من غير أن يتناول بيده شيئاً . وفي البساتين من يزرع أشجاراً للفقراء يعرفونها بالتكرار ، وغالباً ما يُزرع من ذلك على الطرقات ليقرب تناولها . انتهى .

وغالب أهل الصالحية يُهادون سكان المدينة بالبَلَح والأُترُج والكبّاد ، لنموّ حسنه عندهم ونضارته التي هي في ازدياد .

(نزهة الأنام 320-323)

جبل قاسيون

ومن محاسن الشام (جبل قاسيون) ، فإن الصالحيّة في سفحه وتحت ذراه ، وهو جبل مبارك به آثار الأنبياء والصحابة والأولياء ، وبه (الكهف) ويقال إنه كهف أصحاب القصة ، وبه مغارة الدم يقال إن كل ليلة جمعة يرى بها قطرة دم ، وبه محاريب الأربعين محل تعبّدهم .

وبه ينبت من عند الله تعالى من الأزهار والأشجار ما لا ينبت في غيره ، وسقيه بالأمطار . فمن أزهاره القرنفل والخزام والشيح والسمّاق والزعرور والزيزفون والخرنوب.

(نزهة الأنام

(45-39

قرية منين

ومن محاسن الشام قرية (منين) ، خضرة نضرة وهي شمالي جبل قاسيون ، وبها السيدان الجليلان (الشيخ جندل) و (الشيخ أبو الرجال) أعاد الله علينا من بركاتهما . ويقال إن الشيخ جندل لا يقبل من ينام عنده ، فإذا نام الإنسان حول الضريح يفتح عينه يجد نفسه ملقى خارج المزار ، وقد اشتهر ذلك عنه .

وإلى منين يُنسب الجوز المنيني . وبها الثلج الذي يقيم من العام إلى القابل ، ويُحمل ثلج السلطان إلى القاهرة مدّة العام ، وما يستعمل بدمشق الجميع منها يخزّنونه في حواصل معدّة له .

وينبت في الثلج الريباس ، وينبت في جبال الثلج أيضاً أمير باريس ، قال ابن البيطار هو البرباريس وبالفارسية الزّرشك . وينبت بهذا الجبل الصنوبر .

وثمّ أشياء لا تنبت إلاّ في الأراضي الحارّة كالقُلقاس ، فإنه يطلع بأرض قرية الغور من أعمال دمشق ولا ينبت في غيرها من أرض الشام . ومنها الموز وقصب السكّر .

(نزهة الأنام 345-

356)

غوطة دمشق

قلت : وأما محاسن الشام [48] فإنها لا تحصى ، وغوطتها الجامعة للمحاسن لا تُستقصى وقد جاء في الأخبار عن كعب الأحبار رضي الله عنه : «غوطة دمشق بستان الله في أرضه».

وعن أبي أمامة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلّم تلا هذه الآية: {وآويناهما إلى ربوة ذات قرارٍ ومعين} ، قال : هل تدرون أين هي ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : هي في الشام بأرض يقال لها الغوطة مدينة يقال لها دمشق هي خير مدائن الشام . وفي رواية عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما بلفظ : «قال هي دمشق» .

قال الذهبي وأجمع سوّاح الأرض والأقطار على أن متنزهات الدنيا أربعة ، وهي: (صغد سمرقند) و (شعب بوّان) و (نهر الأبلّة) و (غوطة دمشق) .

قال أبو بكر الخوارزمي في رحلته : رأيتها كلها فكان فضل غوطة دمشق على الثلاث كفضل الأربعة على غيرهن ، كأنها الجنة وقد زُخرفت وصُوّرت على وجه الأرض .

وما أحسن قول الشيخ علاء الدين علي بن المشرف المارداني وقد أنشدنيه شقيقه ركن الدين محمد عند قدوم أخيه إلى دمشق المحروسة في سنة إحدى وعشرين وثمانمائة :

ليس في الحسن للشآم نظير ... لايغرّنك بالبلاد الغرور
كلّ ما تشتهيه نفسك فيها ... وبها البشر والهنا والسرور

(48) كُتب في محاسن الشّام وفضائلها مصنّفات جزيلة ، من أشهرها «فضائل الشام» للرّبعي .

قلتُ للركب مُذ أنخنا عليها وتراءت ولدانُها والحور
هذه الجنة ادخلوا بسلام بلدٌ طيّبٌ وربٌّ غفور

وقال الشيخ عبد الله الأرموي رحمه الله : دمشق من أي جهة أقبلتَ عليها تجدها حلّة بيضاء طرازُها أخضر .

وقال الشهاب محمود من رسالة : وأما دمشق فكأنها وجه الحبيب ، وقد دار به العذار الأخضر الرَّطيب .

وقال الشيخ عبد الولي الحضرمي رحمه الله : سُحْتُ البلاد ورأيت ما بها من الأعاجيب ، فلم أنظر كصغد سمرقند ، وهو نهر تحف به قصور وبساتين وقرى مشتبكة العمائر مقدار اثني عشر فرسخاً في مثلها ، وهي في وسط مملكة ما وراء النهر . ورأيت شعب بوّان وهي بقعة مذكورة بنيسابور طولها فرسخان وقد التحفتها الأشجار ، وجاست خلالها الأنهار . وهذا الشعب لبوّان بن أيوح بن أفريدون ، وفيه يقول أبو الطيّب المتنبي من قصيدة تشتمل على وصفه :

يقول بشعب بوّان حصاني أعن هذا يُسار إلى الطعان
أبوكم آدم سنّ المعاصي وعلّمكم مفارقة الجنان

ومررتُ بنهر الأُبلّة وهي من أعمال البصرة ، طوله أربعة فراسخ وعلى جانبيه بساتين كأنها بستان واحد قد مُدّ على خط الاستواء نخله كانه غُرس في يوم واحد . ودخلت إلى دمشق وتنزهت في غوطتها ، أجدها أحسن من الثلاث وأكثرها خيراً ، طولها ثلاثون ميلاً وعرضها خمسة عشر ميلاً مشتبكة القرى والضياع لا تكاد الشمس تقع على أرضها لغزارة أشجارها واكتناف أغصانها .

وقال الميدومي في كتابه (لطائف الأعاجيب) : كان بغوطة دمشق أشجار تحمل الواحدة منها أربع فواكه كالمشمش والخوخ ، والتفاح ، والكمثرى . وبها ما يحمل الثلاث

وأقلّهن اللونان من الفاكهة .

قلتُ : وهذا موجود إلى يومنا هذا ، فإني رأيت بها الكرمة الواحدة تطرح العنب الأبيض والأسود والأحمر ورأيت بوادي النيربين شجرة توت تطرح التوت الأبيض والأسود . وهذا من صنعة الفلاحة يسمى التطعيم ، وهو أن يُؤخذ قطعة خشب من التفاح ويُشق ساق شجرة كمثرى تكون بساقين ، وتوضع تلك القطعة في إحدى الساقين المشقوقة ، وتشدّها بخرقة وتسقيها وتعاهدها إلى أن تلحم بها ويخرج الورق الجديد ثم تثمر .

رَجْعٌ إلى بقيّة كلام الميدومي ، قال : وكان غرسُ الأشجار في بعض البساتين كالسُّطور التي تُقرأ . انتهى والله أعلم .

(نزهة الأنام 356-360)

صناعات دمشق

ومن محاسن الشام ما يُصنع فيها من القماش والنسيج على تعداد نقوشه وضروبه ورسومه . ومنها عمل القماش الأطلس بكل أجناسه وأنواعه [49]. ومنها عمل القماش الهُرْمزي على اختلاف أشكاله وتباين أوصاله . ومنها عمل القماش الأبيض القطني المصور لأحياء القصور ، وأموات القبور . وفيها أيضاً عمل القماش السَّابوري بجميع ألوانه وحُسن لمعانه .

وفيها تعمل صناعة الذهب المسبوك والمضروب والمجرور والمرفوع والممدود والمرصوع . وفيها تعمل صناعة القرطاس بحسن صقاله ونقيّ أوصاله . وفيها تعمل صناعة القرضية ودباغاتها المرضية . وفيها تعمل صناعة الزموط والأقباع وتحمل لسائر البلاد والضياع . وفيها صناعة الحرير بالفتل والدواليب والسرير . وفيها تعمل صناعة السلاح ، بما فيها من

(49) وهذا يُضارع ما أدركناه بعصرنا من أصناف البروكار والدّامسكو والأغباني والدّيما .

الأعاجيب والاقتراح . وفيها تعمل صناعة الموشّى والمدهون بما تحتار فيه النواظر والعيون . وفيها تعمل صناعة النحاس من الضرب والتفصيل والنقوش التي تشرح صدر الناس . وفيها صناعة ألواح الصقال ودهن ألواح صغار الكتاب ، وجفان القصع وتفصيل القبقاب .

وغالب ما ذكرناه من هذه الصنائع تتبدل عليه أيادي الصنّاع من الواحد بعد الواحد إلى أن ينيف على عشرة صناع حتى تتم .

واعلم أن هذه الصنائع استخرجتها الحكماء بحكمتها ، ثم تعلمها الناس منهم وبعضهم من بعض ، وصارت وراثة من الحكماء والعلماء ومن العلماء للمتعلمين ومن الأستاذين للتلامذة للصناع . هكذا نقله ابن جماعة في شرحه على نقول العيد ، انتهى .

(نزهة الأنام 362–364)

قافات دمشق وخيراتها

ومن محاسن الشام ما يُحمل منها إلى الديار المصرية عشرة قافات انفردت بها ، وهذه مسمّياتها : قصب ذهب ، قبع ، قرضية ، قرطاس ، قوس ، قبقاب ، قراصيا ، قمر الدين من المشمش ، قريشة ، قنّب .

وكنت في هذا المحل أكتب ، وإذا بشخص خليع يغلب عليه الخَبال والدخل يتردّد إلي من أهل مصر العتيقة يقال له «تعاتير» ، جاء إلي وقال : عبّر لي هذا المنام : رأيتُ الليلة في النوم رجلاً جليلاً من أهل الشّام ، أعطاني قَصعة بها آثار قُطن فيه بعض قُضامة مربوطة بخيط قنّب . فأردتُ أن أُدخل عليه سروراً ، فقلتُ له : يا تعاتير ، من مناسبة الحال القضامة ، وهي ذهب وفضّة في وعاء مشدود معقود ، تناله من بعض رؤساء الشاميين . فسُرَّ بذلك وفارقني .

فأخذت أتعجّب من الاتّفاق وذكر هذه الأربعة قافات المجلوبة من الشام إلى القاهرة .

وفيما أنا في مثل هذا السياق ، إذا أنا به في اليوم الثاني جاءني وهو يضحك ، فقلت : ما بالك وما خبرك ؟ قال : فارقتُك فأخذتُ لي قطعة جبن ورُطَب وجلست آكلهم برغيف في عقبة قدّام المقياس ، وإذا برئيس شامي في خدمته عبيد وغلمان نزل إلى تلك العقبة ، وقال للنوتي : اطلع بنا المقياس لتروره ، وزوّرنا الآثار ، وقال لغلمانه : لاقونا بالخيل إلى الآثار . فنَهَرَني بعض العبيد وقال : ما تخرج ! فقال له سيّده : دعه يؤانسنا . وسألني عن اسمي ، فقلتُ له : الناس يسموني تعاتير ، وإنما اسمي أبو الخير . فتهلّل وجهه وقال : هذا المكان ما اسمه ؟ فأقول له كيت وكيت ، وهذا يُعرف بكذا .

إلى أن توجهنا إلى دَرَج الآثار وأراد الطلوع ، وإذا بمنديل سقط منه في المركب ، فبادرتُ لمناولته إياه ، فقال لي أعط منه للنُّوتي ديناراً وخذه لك بما فيه . فقبّلتُ يده ، وقال لي : ما تروح معنا ؟ قلت له : مَرسومُك هذا النُّوتي ابن حارتي ، وأرجع معه . فقال : أُدعُ لنا . وتركته وأنا لا أصدّق من الفرح ، فقلتُ لبعض غلمانه : أيش يقال لهذا الرئيس بين الشاميين ؟ قال : هذا القاضي بدر الدين بن المزلّق (50). فدعوتُ له وانصرفتُ أجد بالمنديل خمسة دنانير ذهباً وسبعين فضّة ، فدفعتُ للنُّوتي ديناراً ، وجئت لأتشكّر منك على تعبير المنام وأُخبرك بتفسيره . فقلت له : هذا أعجب من الأول . انتهى .

وغالب ما عددناه وأوردناه من محاسن الشام انفردت به دون غيرها ، ويُحمل منها لغالب البلاد لكثرة خيرها . ومن أعاجيبها أن خيرها في الغالب لغير بنيها ، حتى أنه يُنسي الأهل والأوطان ، ولو فارقها لعاد إليها على طول الزمان .

وقال القاضي الفاضل :

يقولون لي ماذا رأيتَ بشامهم ... فقلت لهم كل المكارم والفضل
فبلدتهم خير البلاد وأهلها ... بإحسانهم تُغني الغريب عن الأهل

(50) بنو المُزَلّق من أسر العلم الشهيرة بدمشق زمن المماليك ، لا ندري أين طوّح بهم الدّهر .

(نزهة الأنام 364-

367)

فصول السّنة بدمشق

ومن محاسن الشام أن كل نزهة ذكرناها ، لها أوان يتفرّج أهل البلد فيه ، وزمان يتعاهدونها به ويرجعون إليه . ومن محاسن الشام صيفيتها ، وأنها معلنة بحياة الأزهار ونمو الأثمار . وشتويتها مُؤذنة بموت الأشجار بالاصفرار ، وتغسيلها بعد التجريد بالأمطار .

لكن يعتدّون للشتاء بالأسمان والأدهان ، ويموّنون البيوت بالحبوبات ، ولحم القديد والمعسولات والفاكهة المعلقة ، والحلاوات المؤنقة . ويكنّون في الأماكن المبخرات ولا يخرجون منها .

فإنها بلدة كثيرة المحاسن ، وماؤها غير آسن . وهي مباركة وفيها البركة وعيشها رغد في السكون والحركة . ولكن استقري من كان مولده فيها لم يزل في قبض [51]، ما دام بها إلا أن يترل إلى تحت الأرض . ويقال إنه لا يوجد بها اثنان من أهلها على قلب واحد متصافيان .

(نزهة الأنام 368-

373)

بركات دمشق

ويُقال إن من قَصَدها بسوء ونواه أكبّه الله تعالى فيه وأعثره . ولما قدم عبد الله ابن

---

(51) يراد بذلك أن مناخ دمشق يورث الاكتئاب . راجع ما كتبه الحاج خورشيد المُسائل الحلبي في رسالته الطريفة : «مقولة كشف اللثام عن أحوال دمشق الشام» ، في كتابنا هذا . أما قوله : لا يوجد بها اثنان من أهلها على قلب واحد متصافيان ، فيعني أن بها علة الحسد والتباغض . ومن يقرأ أخبار الحسد بين علماء دمشق في كتب التراجم ، كالكواكب السائرة للغزّي ، مثلاً ، يجد في هذا القول نصيباً غير يسير من الصحّة ، للأسف !

علي بن عبد الله بن عباس ، رضي الله عنهم ، دمشق وحاصر أهلها ، فلمّا دخلها وهدم سورها وقع منه حجر كان عليه مكتوباً باليونانية ، فأرسل خلف بعض الرهبان فطبعه وقرأه فإذا عليه مكتوب : وَيْلَكِ أُمُّ الجبابرة ، من رماكِ بسوء قصمه الله . وَيْلٌ من الخمس الأعين ، نَقْضُ سُورك على يديه بعد ألف سنة . فوجدوا الخمس الأعين : عبد الله بن علي بن عبد الله بن عباس بن عبد المطّلب .

فهي بلدة كثيرة البركات غزيرة الخيرات ، نِعْمَ بلدة الأنبياء وموطن الأصفياء والأولياء . وبها صحابة من الأجلاّء ، ومقابرها حوت أماثل الفُضَلاء .

(نزهة الأنام 373-374)

جبّانات دمشق ومن بها من السادات

ومنها جبّانة باب الصغير بها بلال الحبشي رضي الله عنه ، وبها السيدة سُكينة بنت أبي بكر الصدّيق [52] رضي الله عنهما ، وبها السيدة زينب بنت الإمام علي رضي الله عنهما ، وبها معاوية رضي الله عنه ، وبها أُويس القَرَني رضي الله عنه ، وبها أبو عبيدة بن الجرّاح على ما قيل خارج الجامع المعروف به .

ويليها مقبرة محلّة القروانة ، وبها جماعة من الأجلاّء والفضلاء .

ومنها جبّانة باب شرقي ، بها أُبيّ بن كَعب ، رضي الله عنه ؛ وبها جبل ابن مُعاذ ، رضي الله عنه ؛ وبها ضرار بن الأزور ، رضي الله عنه ؛ في حارة السّادة القدماء ، عفا الله تعالى عنهم .

وتليها مقبرة الشيخ أرسلان ، أعاد الله علينا وعلى المسلمين من بركاته ، وعنده جماعة

---

(52) هذا غلط ، فالصواب أنها السيّدة سُكينة بنت أحمد السّبطي ، ولها في باب الصغير قبر يحمل كتابات كوفيّة فاطمية مشجّرة ، من أجمل روائع الخط العربي .

من الأماثل والأجلاّء الأفاضل .

وخارج باب توما شرحبيل كاتب وحي رسول الله ، صلى الله عليه وسلّم ، والسيدة خولة [بنت الأزور] رضي الله عنهما .

وجبّانة بيت لهيا ، بها سادة وأعيان وصالحون لهم قدرٌ وشان .

ويليها مقابر باب الفراديس ، بها أبو الدحداح [الصحابي] رضي الله عنه ، وبها عبد الرحمن بن أبي بكر الصدّيق ، رضي الله عنهما .

ومقبرة سويقة صاروجا ، بها صالحون من أجلّ المسلمين .

ومقابر الصوفية ، بها جماعة من العلماء أئمّة الدين وصالحي المسلمين ،كابن الصلاح وابن تيميّة وابن المبارك ، وغيرهم .

ويليها مقبرة القنوات وباب السريجة ، وبها علماء الأمة وأهل الرحمة . آخرمن دفن بها شيخنا المرحوم العلاّمة محب الدين البُصروي الشافعي ، رحمه الله .

ومنها جبّانة الحمرية ، وبها المرحومون من الأولياء والصالحين .

ومنها مقابر محلّة السيدة عاتكة ، رضي الله عنها ، ويقال إن في ظاهرها ضريح الماسك لركاب النبي ، صلى الله عليه وسلّم ، رضي الله عنه .

ومنها جبّانة محلة القبيبات ، وبها العلماء العاملون والمجاذيب والصالحون كالسيد الشريف الشيخ الزاهد العالم تقي الدين أبي بكر الحصني الشافعي ، أمدَّنا الله بمدده .

وهذه جملة المقابر التي في المدينة الخارجة عن مقابر الصالحية والقابونين وغيرذلك . وثَمَّ صحابةٌ في قرى الضواحي ، رضي الله عنهم ؛ كسعد بن عُبادة رضي الله عنه بأرض المنيحة ، وتميم الداري ، رضي الله عنه ، بقرية تميم التي سمّيت به ، وأبو الدرداء رضي الله عنه، فإنه داخل قلعة دمشق ؛ والسيدة زينب الكبرى بنت الإمام علي بن أبي طالب ، رضي الله عنهما ، وهي أخت أم كلثوم الكبرى التي تزوجها عمر رضي الله عنه ، وكانتا مع أخيهما

الحسين لما قتل وقدمنا الشام . وهاتان والحسن والحسين ومُحسن الذي مات صغيراً أولاد الإمام علي من فاطمة ، رضي الله عنهما ، ثم تزوّج بعد موت فاطمة وتسرّى ، فجاءه بنون وبنات ، ومن جملة البنات زينب الصغرى وأم كلثوم الصغرى . وهكذا ذكر شيخنا الحافظ برهان الدين النّاجي رحمه الله تعالى ورضي عنه .

وقال الشيخ العارف أبو بكر الموصلي ، رحمه الله تعالى ، في كتابه (فتوح الرحمن) : توفيت السيدة زينب الكبرى بنت علي رضي الله عنهما بغوطة دمشق عقيب محنة أخيها ، ودُفنت في قرية من ضواحي دمشق أسمها راوية ، ثم سمّيت البلدة بها ، فالآن يقال للبلدة الستّ ولا تعرف إلا بقبر الست ، رضي الله عنها .

قال : وكنت أزورها في أول أحد من العام ، ومعي جماعة من أصحابي الفقراء ، ولا ندخل إلى قبرها بل نستقبله ونغضُّ أبصارنا ، لما قرّره علماؤنا في أن الزائر للميت يعامله كما لو كان حيّاً من الاحترام . فبينما أنا في البكاء والخشوع والحضور ، وكأني بها وقد تراءت لي في صورة امرأة كبيرة محترمة موقّرة لا يقدر الإنسان أن يملأ نظره منها احتراماً . فأطرقتُ فقالت : يا بُنيّ زادك الله أدباً ، ألم تعلم أن جدّي رسول الله صلى الله عليه وسلّم وأصحابه كانوا يزورون أم أيمن لكونها امرأة محترمة ؟ وبشّر الأمة أن جدّي محمداً وجميع أصحابه وذرّيته يحبّون هذه الأمة ، إلا من خرج عن الطريق فإنهم يبغضونه . فلحقني إزعاج [53] من كلامها غيّبني ، فلمّا عدتُ إلى الحسّ لم أجدها ، فواظبتُ على زيارتها إلى يومنا هذا . انتهى .

وبالقرية المذكورة ضريح السيد الجليل مدرك [الفَزَاري الصحابي] ، أعاد الله علينا وعلى المسلمين من بركاته .

وهذا الذي وصل إلينا من معرفة من بدمشق من الصحابة رضي الله عنهم أجمعين . وثَمّ فيها من الأنبياء والصحابة والأولياء الصالحين غير ما ذكرناه ، لكن لتوالي المحن واندراس العلم والمعاهد والدِّمَن وبانقراض المخبر انقطع الخبر فلا عينٌ ولا أثر .

وأما فضائل الشام فكثيرة ومحاسنها جمّة غزيرة ، وبركاتها مشهورة وأخبار خيراتها

---

(53) لا يريد بمعنى الإزعاج المضايقة ، وإنما الانبهار والدَّهشة لرؤياها ، رضي الله عنها .

مأثورة . ولهذا أطلقنا عنان القلم في غيضاتها وروضاتها وقطوفها الدَّانية للمتفكر في متنزهاتها ، وهيَّمنا إلى الدور في تسلسل أنهارها ونبّهنا الأحداق في حدائق أزهارها .

(نزهة الأنام 374-384)

* * * * *

وصف دمشق

من خلال نصوص نادرة لبعض الرحالين الأوربيين

من القرن الرابع عشر إلى القرن السابع عشر للميلاد

80

لم تزل دمشق منذ القدم واحدة من عواصم الدنيا المعدودات ، ولدت فيها حضارات وعاشت شعوب ودول ، وازدهرت علوم وثقافات وفنون . وما برحت هذه المدينة الخالدة دوماً قبلة أنظار الناس ، يتوافدون إليها من كل حدب وصوب ، ويتقاطرون طلباً للعلم والراحة والبهجة ، أو للسياحة والزيارة والتجارة .

ومن جملة هؤلاء الذين زاروا دمشق ، عدد كبير من الرّحالين الأوربيين الذين اعتادوا زيارة بلاد الشرق لأغراض شتى ؛ كالسفارات والبعثات أو السياحة والاستطلاع أو التجارة والحج ، وقد جذبتهم دمشق إليها بما أوتيته من جمال وغنى ومتعة للقاصد والوافد . ولم تأخذ هذه الرحلات شكلها الفعلي إلا في القرون الوسطى بمصاحبة الحملات الصّليبيّة على الشرق ، وبقيت بعد جلاء هذه الحملات ذات وتيرة منخفضة ، حتى حلول القرن الثامن عشر ، ثم بلغت رحلات الأوربيين إلى الشرق أوجها في القرن التاسع عشر بظهور المكتشفات الحديثة وحاجة الدول المعاصرة إلى التعامل والتبادل التجاري ، ثم سهولة طرق المواصلات نسبيّاً آنذاك

بنتيجة ذلك ، وصلتنا مذكّرات مئات الرحلات إلى الشرق في القرنين المذكورين ، وأما ما قبل القرن الثامن عشر فلا نجد من هذه الرحلات سوى عدد ضئيل (باستثناء الأراضي المقدّسة : فلسطين) ، وهذا ما دعانا في هذه النشرة إلى التركيز على بعض هذه الرحلات النادرة .

نطالع في هذه النشرة أربعة نصوص قصيرة لأربعة رحّالين أوروبيين زاروا دمشق : الأولان منهم زارا المدينة في عهد المماليك ، في القرنين الرابع عشر والخامس عشر (الثامن والتاسع الهجريين) ، أحدهما رحّالة إنكليزي والثاني بورغندي . والآخران زارا دمشق في العهد العثماني في القرنين السادس عشر والسابع عشر (العاشر والحادي عشر الهجريين) ، وأحدهما رحّالة فرنسي ، والآخر بورتغالي .

دمشق في القرن الرابع عشر

نص للرحّالة الإنكليزي «جون موندقيل» 1322 - 1356 م

Sir John Maundeville

أشهر وأظرف رحّالي القرن الرابع عشر ، معاصر الرّحالة البندقي ماركو بولو ورحّالتنا الكبير ابن بطوطة الطّنجي ، يعرّفنا بنفسه بقوله : «أنا جون موندقيل الفارس .. المولود في إنكلترة .. ركبتُ البحر في سنة 1322 م ، في يوم القديس ميخائيل .. وزرتُ بلاداً مختلفةً وجزراً كثيرة ..» .

شغلت أسفار موندقيل وروايات اهتمام معاصريه ، ففيها أوصاف لبلاد الشرق التي زارها : سورية ومصر والعراق وفلسطين . وقد نقل عن مصادر مختلفة أخباراً وقصصاً متنوعة (ومنها خرافي) حشاها في كتابه . ونستطيع أن نضمّ المؤلف إلى زمرة الدعاة إلى إعداد حملة صليبية جديدة .

نُشرت الرحلة في لندن عام 1848 ضمن مجموعة : «الرحلات الباكرة في فلسطين» ، بعناية توماس رايت :

Wright, Thomas: Early Travels in Palestine, London, 1848.

وفي كتاب رحلات جون موندقيل وصف ممتع لدمشق التي زارها أثناء حكم الدولة المملوكية بأيام السُّلطان الناصر محمد بن قلاوون (1294-1341 م) غالباً ، وكانت دمشق تمرّ بأزهى عهودها خلال حكم نائب الشام سيف الدّين تنكز [54]، فصارت في عهده من بعد القاهرة أرقى مدن الشرق وأبهاها . وفيما يلي وصف موندقيل للمدينة ، ترجمناه عن الإنكليزية :

---

(54) للمقارنة راجع نصوص الرحالين العرب حول دمشق آنذاك ، كابن فضل الله العمري وابن بطوطة الطنجي ، في كتابنا : دمشق الشّام في نصوص الرّحالين ، 2 : 471-548 .

بعد أن أخبرتُ القارئ عن سكان بعض البلاد التي مررتُ بها ، أعود الآن ثانية لأصف طريق العودة :

فمن أراضي الجليل – التي تحدّثتُ عنها – يعود المسافرون أدراجهم إلى دمشق ، وهي مدينة حسنة وفخمة جداً ، ومليئةٌ بكل أنواع البضائع . تبعد عن البحر ثلاثة أيام ، وعن القدس خمسة أيام . يحمل إليها التجار بضائعهم على الجمال والبغال والخيول والهجن والدواب الأخرى ، وتصل إليها البضائع بحراً من الهند ووإيران والعراق وأرمينية ، ومن ممالك أخرى عديدة .

كانت هذه المدينة قد بنيت على يد «هيليزيوس داماسكوس» Helizeus Damascus ، الذي كان تابعاً لإبراهيم النبي وخادماً ، قبل مولد إسحاق . ولأنه كان يأمل أن يرث إبراهيم ، فقد بنى المدينة وسمّاها باسمه «داماسكوس» Damascus . وفي هذا المكان الذي أقيمت فيه دمشق قتل قابيل أخاه هابيلا . وبقرب دمشق جبل سنير Seir

يوجد بدمشق عدد كبير من ينابيع المياه ، وتنتشر فيها وحولها البساتين البديعة المُترعة بعموم أصناف الفاكهة . إنها مدينة لا تُقارن من حيثُ جمال حدائقها للاستجمام . وهي مدينة كبيرة مليئة بالسكان ، ويدور بها سورٌ قويٌ مزدوج ، وبها العديد من الأطبّاء .

دمشق في القرن الرابع عشر

نص للرحّالة البورغوندي «برتراندون دى لا بروكير» 1432 - 1433 م

Bertrandon de la Broquièrre

بورغوندية Bourgogne إمارة أوروبية تقع إلى الشرق من فرنسا أسّسها أقوام ذوو أصل جرماني . وفي بدايات عصر النهضة الأوروبية بلغت هذه الأمارة شأناً عظيماً من القوة في عهد دوقها فيليب الطيّب Philippe III le bon ، بحيث أضحت واحدة من أعظم الإمارات الأوروبية . ويبدو أن فيليب كانت تراود مخيلته أحلام غزو الشرق في حملة صليبية

جديدة ، فأوفد برتراندون دى لا بروكيير في مهمة استطلاع أحوال الشرق مدنياً واقتصادياً وعسكرياً .

ولقد أظهر لنا دى لا بروكيير نفسه الغرض من كتاب رحلاته في المقدمة بقوله : «إنّه كتبه ليجذب قلوب الناس الراغبين في رؤية العالم ، وليرضي سيده دوق بورغوندية ، وليقدم المعلومات اللازمة عن البلاد الواقعة ما وراء البحار لمن تحدّثه نفسه من ملوك أوروبا وأمرائها بفتح بيت المقدس» .

أبحر دى لا بروكيير عام 1433 م متّجهاً إلى القدس ، في عهد السُّلطان المملوكي الأشرف بَرْسْبَاي ، وبعد زيارتها ذهب إلى باقي بلاد الشام دون أن يُتاح له زيارة مصر ، وتنقّل في هذه البلاد مفتّح الأذن والعين ، فوصف مدنها وصفاً مُسهباً وخصّ الطرق الحيوية بعناية دقيقة . وختم دى لا بروكيير كتابه بالحديث عن قوّة المماليك العسكرية وخططهم الحربية وسلاحهم وعدّتهم .

ونُشر كتاب برتراندون دى لا بروكيير في لندن عام 1848 بالإنكليزية ، ضمن مجموعة الرحلات المذكورة سابقاً ، بعناية توماس رايت :

Wright, Thomas: Early Travels in Palestine, London, 1848.

كما أعيد نشره بالفرنسية في باريس عام 1892 ، بإشراف شيفر :

Le Voyage d'Outremer, edit. Ch. Schefer, Paris, Leroux, 1892.

أما بالنسبة لزيارة دى لا بروكيير لدمشق عام 1433 م (= 836 هـ .) ، فكانت في عهد النائب المملوكي جارقطلي ، الذي ولي دمشق بين 835-837 هـ . ، وكان ذا سيرة حسنة . وها هو ذا النص فيما يلي :

تعرّفتُ في بيروت على تاجر بندقي يدعى جاك برفيزين فنصحني بالسفر إلى دمشق ، مؤكداً لي أنني سأجد هناك تجاراً من البندقية وقطالونية وفلورنسة وجنوة ، وغيرها .

وتستغرق الرحلة من بيروت إلى دمشق يومين . والعادة المتّبعة عند المسلمين تجاه الأجانب في جميع أنحاء الشام هي أنه لا يُسمح لأجنبي بدخول الشام راكباً ، فلا يجرؤ أجنبي على دخولها إلاّ ماشياً .

وعلى هذا ، قام المكاري بإنزالنا أنا والسيد سانسون قبل دخول المدينة . ولم نكد ندخلها حتى هرع إلينا إثنا عشر عربياً التفّوا حولنا لمشاهدتنا ، وكنتُ ألبس قبعة ذات إطار عريض لم يعتد أهل البلاد على رؤية مثلها ، فرفع أحدهم عصا كانت بيده وأطاح بها عن رأسي . والحقّ أني هممتُ بأن ألطمه بجمع يدي لولا أن المكاري وقف بيننا ودفعني جانباً ، وجاء عمله هذا من حُسن حظي ، إذ أن حوالي ثلاثين أو أربعين شخصاً أحاطوا بنا في الحال ، ولا أدري ما الذي كان سيحلّ بي لو أنني لطمته .

وأورد هذه الحادثة لأبيّن أن سكان دمشق قوم أشرار يجب على الإنسان أن يحتاط لنفسه بينهم ، ويحدث مثل هذا في جميع بلاد المسلمين . وثبت لي بالتجربة أن على الإنسان أن يتجنب المزاح معهم ، وألا يبدو خائفاً أو فقيراً ، إذ يصبح هدفاً لاحتقارهم . وعليه ألاّ يتظارهر بالغنى لأنهم شديدو الجشع ، كما يعرف جميع من نزلوا في يافا وتكلفوا مبالغ باهظة .

ويبلغ عدد أهل دمشق كما سمعتُ مائة ألف نسمة ، وهي مدينة غنية ومركز تجاري ، كما أنها ثاني مدينة في السلطنة بعد القاهرة . ويحفُّ بها من الشمال والجنوب سهل واسع ، وفي غربيها جبلٌ قامت على سفوحه ضواحيها . ويشقّ المدينة نهر تتفرع منه مجار عدة .

وتحيط الأسوار بالمدينة دون الضواحي ، وذلك لكبر الضواحي واتساعها . ولم أر أوسع من بساتينها ، ولا أفضل من فواكهها ، ولا أوفر من مياهها . ويقال : إن مياهها متوفرة إلى درجة تسمح بوجود نافورة في كل بيت .

ووالي دمشق نائب للسُّلطان ، ولكن السَّلاطين عملوا على كبح جماح الحكام وإبقائهم تحت إمرتهم بسبب ما قاموا به من ثورات . وفي دمشق قلعة حصينة تقوم على أحد جوانبها باتجاه الجبل ، وتحف بها الخنادق ، ويعيّن السلطان للقلعة نائباً ولا يسمح لنائب الشام بدخولها . وخربت القلعة في سنة 1400 م على يد تيمورلنك ، ولا تزال بقايا التخريب ظاهرة .

ويقوم بجانب بوّابة بولس حي كامل لم يعد بناؤه حتى الآن . وفي المدينة خان مخصص للودائع ، ولتأمين راحة التجار وإيداع بضائعهم ، ويدعى خان بركوت Berkot [55] لأنه كان في الأصل بيتاً لرجل يحمل هذا الاسم وأظنّه فرنسياً . وقد حملني على هذا الظن وجود شعار زهرة الزنبق منقوشاً على أحد أحجار البيت ، ويبدو هذا النقش قديماً قدم الجدران . ومهما يكن أصل هذا الرجل فقد كان شهماً ، ولا زال يتمتع بسمعة طيبة في هذه البلاد . ولم تقو جيوش الفرس والتتر خلال حياته أن تنتزع أية قطعة من الأراضي الشاميّة [56]، إذ كان يخفّ إلى ملاقاة جيوشهم ويلاحقهم حتى ما وراء حلب عند النهر الفاصل بين الشام وفارس . وأستطيع أن أستنتج أن هذا النهر هو نهر جيحون الذي يصبّ في بلاد التركمان [57].

وقد وقر في ذهن أهل الشام أنه لو مُدَّ في أجله لما تمكن تيمورلنك من دخول بلادهم ، وعلى كل حال فقد أمر تيمورلنك عندما أحرق دمشق بالإبقاء على بيت بركوت ، وإقامة حارس ليحفظه من امتداد ألسنة اللهب إليه ، الأمر الذي حفظ البيت ودلّ على مروءة تيمورلنك .

وأهل دمشق يكرهون الأجانب . ويلجأ التجار الأوروبيون إلى بيوتهم في المساء ، ويقفلها عليهم أناس معينون لهذا الغرض ، ويفتحونها في صباح اليوم التالي عندما يروق لهم ذلك .

---

(55) هكذا كتب اسمه بالأصل ، والحق أن بعض الرحالين الآخرين ذكروا أن إقامتهم بدمشق كانت مخصصة بخان برقوق ، ويبدو أن هذا ما عناه الكاتب . أما شعار زهرة الزنبق فرغم أنه استُعمل للملكية الفرنسية ، فهو قبل ذلك من شعارات (رنوك) أمراء المسلمين في القرون الوسيطة . انظر بحثنا «وصف دمشق في القرن السابع عشر» ، ص 42 .

(56) حكم السلطان المملوكي الظاهر برقوق بين 792-801 هـ (1390-1399م) وكان قد اعتاد الخروج من مصر إلى الشام لمناجزة المغول ، ونجح بصدهم . فبعد وفاته ، دخلوا الشام عام 803 هـ ، ودمّروا حلب ودمشق .

(57) كتب رايت ناشر الرحلة يقول : لا شك أن دى لا بروكيير يريد بهذا النهر نهر الفرات .

ولقيتُ في دمشق الكثيرين من تجار جنوة والبندقية وكلابريا وفلورنسة وفرنسا ، وقد جاء تجار فرنسا لشراء مختلف الأشياء ، وبخاصة التوابل ، وينوون نقلها إلى بلادهم بطريق بيروت في السفينة القادمة من ناربون . وبين هؤلاء التجار جاك كور Jacques Cœur الذي قام بأعمال عظيمة في فرنسا ، وكان يُشرف على ملابس الملك . وقد أخبرني بأن السفينة كانت إذ ذاك في ميناء الإسكندرية ، وأن السير أندرو ورفاقه الثلاثة سيركبونها من بيروت .

وسيوف دمشق خير السيوف ، وأفضل ما يُصنع في بلاد الشام [58]، ومن الطريف أن يرى الإنسان طريقة الصنّاع في صقلها ، ويقومون بهذه العملية قبل سقيها ، ويستخدمون لهذا الغرض مقبضاً من الخشب تُثبت به قطعة من الحديد يُجرونها على شفرة النصل ، وبذلك يسوّونه كما يسوّى مسحج النجارة سطح الخشب . ثم يسقون النصل ويلمّعونه ، وهذا التلميع بلغ حدا من الإتقان بحيث أن المرء إذا أراد أن يصلح من شأن عمامته اتّخذ من نصل سيفه مرآة . وأما سقي السيوف فعلى غاية الإتقان ، و لم أر سيوفاً أمضى منها قط .

وتُصنع في دمشق وما حولها من الديار مرايا من المعدن تكبّر الأشياء كالزجاج العاكس للنور ، رأيتُ بعضها وقد عرّضت للشمس فعكست من الحرارة ما كان كافياً لحرق لوح من الخشب على بعد 15 أو 16 قدماً .

وفي اليوم التالي لوصولي شاهدتُ قافلة الحجاج عائدة من مكة ، وقد قيل إنها كانت تتألف من ثلاثة آلاف من الجمال . وفي الواقع استغرق دخول الحاج المدينة يومين وليلتين ، وقد كانت هذه المناسبة ، على مألوف القوم ، يوماً بالغاً في الحفاوة .

وقد خرج والي دمشق يحفُّ به مقدموا المدينة ، لاستقبال الحجيج إجلالاً للقرآن الذي كانوا يحملونه ، وهو كتاب الشريعة الذي خلّفه محمد لأتباعه .

وكان ملفوفاً بغلاف من الحرير عليه كتابة عربية ، وكان الجمل الذي يحمله مجلّلاً بالحرير . وكان يتقدم الجمل أربعة من حملة المزمار والطبول والكوسات الكثيرة وكلها تدقّ ،

(58) هذا الكلام يدلّ على أن صناعة السيوف الأصيلة لم تنقرض بدمشق إثر نكبة تيمورلنك .

وكان يحيط بالجمل نحو ثلاثين شخصاً يتنكّب بعضهم الأقواس ويشهر آخرون السيوف ، ويحمل غيرهم البنادق ويطلقون النيران بين الفنية والأخرى [59].

وكان يتلو الجمل ثمانية رجال أجلّاء يعلون إبلاً سريعة العدو ، وخيولهم الجموحة مجلّلة بالقماش المزركش تعلوها سُروج مزخرفة ، على جاري عادة القوم هناك . وقد تلا ذلك هودج مغطى بالقماش الجميل يحمله جملان ، وفيه سيدة قريبة للسلطان ، وقد كان ثمة عدد كبير من هذه الدواب المجلّلة بالقصب المذهب . أما الحجيج فقد كانوا عرباً وأتراك وبرابرة ومغولاً وفُرساً ، وغير ذلك من المسلمين .

* * * * *

دمشق في القرن السادس عشر

نص للرحّالة الفرنسي «بيير بولون» 1546 - 1549 م

Pierre Belon du Mans

بيير بولون واحد من أشهر رحالي القرن السادس عشر ، قام برحلة دامت ثلاث سنوات ، زار فيها بلاد اليونان وبعض بلدان القارة الآسيوية ، وخصّ فلسطين بأوصاف مسهبة ، كما زار مصر والجزيرة العربية وبلداناً أخرى عديدة . وتتميز أوصافه بالدِّقة وقوة الملاحظة .

وطُبع كتاب رحلات بولون في باريس عام 1553 ، ثم تُرجم إلى اللاتينية وأعيد طبعه مراراً :

(59) كانت الأسلحة النارية معروفة في ذلك العصر ، بين أيدي فرسان المماليك ، وإن كان استخدامها غير منتشر على نطاق واسع ، كما كان الحال لدى العثمانيين في القرن التالي السادس عشر . راجع كتابنا : حوادث دمشق اليومية غداة الغزو العثماني للشام ، صفحات مفقودة تُنشر للمرّة الأولى من كتاب «مفاكهة الخلان في حوادث الزمان» ، لابن طولون الصالحي ؛ دار الأوائل بدمشق 2002 ، ص 105 .

Les Observations de Plusieurs Singularités et Choses Mémorables trouvées en Crèce, Asie, Judée, Egypte, Arabie, etc. (1546-1549), Paris, 1553 .

زار بولون دمشق في خلال رحلته ، وكان ذلك بعد ربع قرن من الفتح العثماني لبلاد الشام ، الذي تم عام 922 هـ . = 1516 م . ولذا فيمكن لنا اعتبار وصفه لها ذا قيمة خاصة ، على اعتبار ندرة المصادر التي ذكرت دمشق في أعقاب الفتح مباشرة . وها هو ذا وصفه ، ترجمناه عن الفرنسية :

تتميّز دمشق بوفرة كبيرة في المياه ، تستمدها من نهر خريسورواس Chrysorrhoas (نهر الذهب) الذي يتعرّش بالبساتين المخضوضرة من منبعه حتى مصبّه ، أما فروعه في المدينة فهي ضيّقة ومتعرّجة . وفي المدينة بازار (أي سوق) بديع للغاية ، وهو مغطى في أعلاه . أما دور دمشق فتبدو بأجمل ما يكون وبناؤها بديع ، لكن ألطف ما فيها مداخلها المسقوفة التي تجلب لها التهوية والانتعاش .

ولدمشق أسوار مزدوجة كما هو الحال في القسطنطينية (استانبول) ، وليست خنادقها المملوءة بالماء على عمق كبير ، ومنها تسقى أشجار التوت الأبيض التي يُربى عليها دود القز لإنتاج الحرير . وعلى كلا السورين أبراج كثيرة متقاربة ؛ إذ أن كل برج مضلع ضخم يقوم بين اثنين آخرين أصغر منه ، وهما مستديران وأحدهما أكبر من الآخر . وهناك قلعة صغيرة مضلّعة خارج نطاق الأسوار غير أنها تبدو كما لو كانت لحماية المدينة فقط ، وذلك لأن الضواحي أكبر من المدينة مرتين ، كما أن الأسواق توجد في هذه الضواحي ، أما المتاجر والبزستانات (أسواق الأقمشة) فهي داخل نطاق الأسوار .

وأبواب المدينة مغطاة بصفائح من الحديد ، على عكس أبواب القاهرة المغطاة بالجلد . وإلى جهة الشرق يقع برج مضلّع نُقشت على أعلاه كتابة بحروف عربية يقال : إنها جعلت عليه حين استعيد من أيدي الصليبيين ؛ لأنه تحت هذه الكتابة قليلاً تشاهد زهرتا زنبق منقوشتان على الرُّخام ، وهما شعار فرنسا أو فلورنسة . ولكن إلى جانب هاتين الزنبقتين

نُقش اسم شخص ، ينفي أن تكون هذه الشعارات عائدة إلى فرنسا أو فلورنسة [60].

تبدو دكاكين الصناعات اليدوية كتلك التي في القاهرة . والبضائع في الشام عموماً وفي دمشق تباع مقابل وزنات نقدية تدعى الرطل Rotulo ، وهو يعادل سبع ليرات (7 Livres) ، كما في مصر تماماً . وفي المدينة دكاكين يُصنع فيها كاغد الورق الدمشقي . يحلجون القطن فيفصلون عنه البذور ، ولديهم لهذا الغرض صفحة من الحديد طولها قدم واحد ، وثخنها مقدار أصبعين يضغطون بها القطن فوق السندان ، فتخرج عندئذٍ البذور المكوّرة من أمام القطعة الحديديّة .

دمشق في القرن السابع عشر

نص للرحالة البورتغالي «سيباشتياو مانريك» 1629 - 1643 م

Sebastiao Manrique

مانريك راهب بورتغالي ، انطلق من بلاده عام 1629 م في رحلة طويلة إلى بلاد الشرق ، فزار بلداناً عديدةً في القارّتين الأوروبيّة والآسيويّة ، وتوجّه في آخر هذه الرّحلة إلى الشّرق الأقصى ، وزار كلاًّ من الصّين والهند . وبعد ذلك قفل عائداً إلى بلاده ، فعاد إلى الشّرق الأوسط مارّاً ببغداد ، ثمّ توجّه منها إلى دمشق التي مكث فيها شهراً ووصفها كما سنرى ، وذهب بعد ذلك إلى السّاحل الشّامي وغادر البلاد من مرفأ صيدا إلى قبرص فمالطة ، حتى وصل إلى بلده البرتغال ، حيث اختتم رحلته عام 1643 .

ويتّصف أسلوب مانريك بالرواية الشخصيّة ، فنجده يهتمّ بذكر ما وقع معه من أحداث أكثر من اهتمامه بوصف ما يرى . وكذلك يشتمل أسلوبه على ازدراء واضح لكلّ الشعوب التي زار بلادها ، وعند كلامه على سكّان الشّام ودمشق من المسلمين أتى بافتراءات

(60) ذكر هذا البرج أيضاً الرحالة الفرنسي لوران دارفيو ووصفه في كتابه «مذكرات الفارس دارفيو» ، ولقد قمنا بترجمة ما جاء عن دمشق فيه (عام 1660م) في كتابنا «وصف دمشق في القرن السابع عشر» . وعملنا بحثاً حول البرج المذكور وشعارات زهرة الزنبق بدمشق فيه ، ص 42-46 . والطريف أن البرج الذي كان مجهول الموقع في أيامنا ، تم اكتشاف قاعدته في حفريات أجريت عام 2000 ، بعدما كنّا نبّهنا إليه في كتابنا المرقوم .

في غاية الرقاعة والبذاءة ، وقد حذفنا ذلك من الترجمة الحاضرة ، كما كنّا حذفنا بعض ما يشين في نص دي لابروكيير ، وتركنا ما يُحتمل ليدلّ على نظرتهما .

قامت بنشر كتاب مانريك جمعيّة «هاكلوت» الجغرافية البريطانيّة The Hakluyt Society المختصّة بنشر كتب الرّحلات الأوربيّة إلى بلاد الشّرق [61]، وطبع الكتاب في لندن عام 1917 .

The Travels of Fray Sebastien Manrique, London 1927.

وفيما يلي وصف مانريك لمدينة دمشق :

بعد مضيّ سبعةٍ وثلاثين يوماً على مغادرتنا بغداد ، حططنا الرّحال في مدينة دمشق العظيمة ، أو كما يسمّيها أهلها «الشام» Sciam ، عاصمة بلاد الشام قاطبةً ، والتي يطلق عليها بعض الكتّاب – نظراً لمكانتها الفائقة – اسم «جنّة الأرض» . ولديهم من الأسباب الكثير لإطلاق هذه التسمية ، فبالإضافة إلى مناخها الصحّيّ الرائع العائد إلى هوائها اللّطيف النّقي ، تنعم بوفرة عظيمة في المياه الرّقراقة التي تجري في أنحاء المدينة قادمة من عدّة ينابيع .

والمدينة مشيّدة في وسط سهل فسيحٍ على سفح جبل لبنان Libanus ، وتبلغ مساحتها فرسخين . ويحيط بها سور مزدوج متين ، ترى في بعض جنباته تلك الشّعارات (الرنوك) الظّافرة العائدة إلى ذلك القائد الفرنسيّ الشّهير الماجد ، الذي خلّد اسمه بشجاعته ومآثره الباهرة ، حتى صار اسمه بين أسماء التسعة الأوائل من مشاهير الرجال [62]. ولا زال على السور المذكور بوّابة يُسمّيها المسيحيّون «بوّابةَ بولس» ، وقريباً منها يحدّدون المكان

(61) نشرت الجمعية من هذه الرّحلات مئات الكتب ، التي تؤلف مكتبة ضخمة ، ولم يُترجم منها إلى العربيّة شيءٌ ، كما لو أنها كانت مختصّة بجزر الواق الواق ، وليس بلادنا .

(62) يلاحظ تمجيد الكاتب لفرنسا ، لأنّه على مذهب الكاثوليك الذي كانت فرنسا تُعدّ الحامي الأول له . وأخطأ الكاتب أيضاً بنسب شعار زهرة الزّنبق بدمشق إلى فرنسا (رغم أنّه لم يصرّح بذكرها لكنّه يعنيها) ، والغالب أنّها شعار نور الدّين الذي رمّم سور دمشق .

الذي كان يقوم عليه مترل حنانيا التقيّ .

وهذه المدينة محميّةٌ أيضاً بقلعةٍ تقوم في وسطها ، وهي مبنيّة بشكل مربّع ومسوّرة بجدران صلبة ومحاطة بخندق ، ولها مدخل واحد فقط في جهتها الشّرقيّة ، يُعبر إليه على جسر يمكن رفعُهُ إلى الأعلى عند الضرورة بواسطة سلاسل حديديّة .

والمدينة مجمّلة بحدائق غنّاء بهيجة ، وكذلك بعدّة مبانٍ فخمة ، وأهمّ ما فيها مسجدها الكبير (أي المعبد الإسلامي) ، والتكيّة التي يترل بها الحجّاج [63]، وحمّامات السُّوق ، ومنها ساحة فخمةٌ للغاية مربّعة الشّكل ومحاطةٌ بإيوانات جميلة ذات أقواس ، تمتلئ دائماً بمختلف أصناف الأطعمة .

وهذه المآكل تنمو بكميّات وافرة في ضواحي هذه المدينة الغنيّة ، نظراً لخصوبة تربتها وللسِّقاية الوافرة التي تنالها من المياه العذبة لنهري «أبانا» و «فرفر» المنسابَين فيها ، وهذا ما دعا النّعمان الآرامي إلى امتداحها في التوراة .

وثمّة سبب آخر لمكانة هذه المياه عدا عن إخصابها للتربة ، وهو تميُّزها بخاصيّة معيّنة تفيد الصَّيقليّين (أتباع ڤولكان Vulcan) - أي صنّاع السّيوف - بإنتاج أجود الشّفرات وأقساها ، وذلك بتسقيتها في هذه المياه .

وكذلك فإنّ حقول هذه البلاد الخصبة تغلّ زيتوناً طيّباً ذا حبّات كبيرة ، وبعض أشجار الزّيتون هنا تحمل في مواسمها ثماراً أكبر من الزيتون الضّخم الذّائع الصّيت الذي ينمو في منطقة «الشّرف» Aexarafe في إشبيلية . ومما لا يقصر عن هذا كلّه أهمّيّة في زيادة عظمة وغنى مدينة دمشق ، وجود مصنع هام بها كبير ومشهور [64]، به أنوال عديدة تُنسج عليها أصناف متعددة من الأقمشة الحريريّة المُقصَّبة ، والمنسوجات المطرّزة بخيوط الذّهب والفضّة . وعدا هذا المصنع ، هناك في جميع أنحاء المدينة أنوال أخرى عديدة في كثير من الدور

---

(63) أي التكيّة السّليمانية في المرج الأخضر ، التي بنيت عام 962 هـ /1554-1555 م .

(64) هذه معلومة هامة عن تركز حرفة النسيج آنذاك بدمشق في مصنع محدد كبير .

الخاصّة .

بعد أن أتممنا مشاهدة وتفحّص كلّ هذه الأشياء ، حصل ما منعنا من متابعة رحلتنا على التوّ ، وذلك لأنّ جميع الأقمشة العائدة إلى جمّالنا ودليلنا احتُجزت بسبب بعض الدُّيون التي استحقّت عليه ، وطالما أن أقمشتنا أيضاً كانت معه ، فقد وجدنا أنفسنا مجبرين على الانتظار في هذه المدينة ما يزيد على ثلاثين يوماً على حساب وقتنا .

وخلال هذه الفترة ، أُتيحت لنا فرصة مشاهدة رحيل قافلة محمل الحج ، التي تذهب في كلّ سنة إلى مكّة ، حاملةً أصنافاً متنوّعةً من البضائع . وهذه القافلة تتألف من ستة آلاف جمل كما علمنا ، ومن جمعٍ غفيرٍ من الناس ، منهم تجار ومنهم مكارية ، وفضلاً عن عدد كبير من الحجّاج الذين يذهبون بإيمان عميق إلى مكّة .

ولقد كان من عادة هؤلاء البرابرة عندما يحين موعد انطلاق قافلة الحج تشكيل موكب عظيم وفخم ، وتسييره عبر الطرقات الرئيسيّة في المدينة . ويرافق هذا الموكب الباشا Baxa – أي والي دمشق – مصحوباً بالأُبَّهة ، ومعه مجموعة تمثّل أعيان البلد وأشرافها . ويسير الجميع مرتدين الحلل النفيسة الزّاهية ، ممتطين خيولهم المطهمة ذات الجلائل المزركشة ، بينما يسير الباشا وأمامه الشّعار المميّز الذي يشير إلى منصبه [65]، وخلفه ثُلّة من العسكر النّظاميّين بلباسهم الرسميّ التركيّ . وفي وسط كلّ هذه الأُبّهة والأنساق تُحمل على طول الموكب كسوة خضراء من قماش الأطلس المطرّز بالذّهب ، إنّها هديّة سوف تقدّم إلى ضريح محمّد .

وعند اختتام مسيرة هذا الموكب الجليل تغادر القافلة المدينة . ثم بعد أيام من رحيلها قدّر الله هطول ثلوج كثيفة ، ممّا أدّى حسب ما سمعناه من أخبار إلى دفن ثمانية عشر ألفاً من الجمال تحت الثُلوج ، والعديد من الفقراء وعامّة النّاس . ورغم أن ما حدث كان يتوجّب علينا النظر والتفكير ، فقد تلقّيناه دون فرح ، وذلك لأنّه كان نذيراً بالعاصفة التي قد تصيبنا نحن ، وكذلك لأنّ الآباء الفرنسيسكان الكبوشيين المقدّسين ، الذين حللنا في بيتهم ، كانوا

(65) هذا الشعار الذي يميّز الباشوات الولاة كان يتألف من السنجق (الراية) العثمانية ، ويُعقد في أعلاه عدد من ذيول الفرس (طوغ أوجاليش) ، ويدل عددها على رتبة الباشا .

يقومون بكل جهد ممكن لتأمين سفرنا . وبخاصّة الأب الرّاهب ميكيل آنخيلو فرانثيس Miguel Angelo Frances الذي فضلاً عن مساعداته لنا ، كان يعمل ما بوسعه لتسفيرنا ، بما تتميّز به كنيسته من مساعدات كبيرة تلقّتها من أتباع نفس المذهب في سانت أوغستين ببلاد فارس وبعض المناطق الأخرى في الهند . ولهذا السبب لم يألُ هذا الرجل المخلص أي جهد لمساعدتنا .

وهكذا ، كنّا أتممنا استعداداتنا للانطلاق عندما صادف وصول قافلة إلى دمشق قادمة من حلب ، وكان بين ركّابها رجلان يهوديّان من موظّفي الجمرك . وعندما علم هذان اليهوديّان بقدوم بعض البورتغاليّين إلى دمشق من الهند في القافلة الآتية من بغداد ، قاما على الفور بالذّهاب إلى الباشا وإطلاعه على أمرنا ، وأخبراه بأنّنا أتينا محمّلين بالأحجار الكريمة ، وأنّنا تركنا سلوك الطّريق المعتاد بغية التّهرُّب من دفع المكوس الواجبة علينا في حلب ، وأنّنا كذلك أخفينا البضائع التي كانت بحوزتنا ، والتي تخصّ ملك البورتغال Grand Senor .

فعندما أعلم الباشا بهذا الأمر ، أرسل على الفور جنديّين من الينيجريّة (الإنكشارية) صحبة اليهوديّين ، فقدما رأساً إلى منزل الآباء الكبوشيّين ، علماً منهما أنّنا كنّا هناك . فلم يجدا في المنزل سوى الرّاهب الأب ميكيل آنخيلو وزميلي في السّفر الرّاهب آنسلم Anselm ، فأخذاهما فوراً إلى الباشا بعد أن قاما بختم المنزل بختمه . وفي هذه الأثناء سرعان ما وصلتنا الأخبار بما حدث إلى كنيسة الموارنة التي كنت قد ذهبتُ إليها لحضور القُدّاس ، مع الراهب الأب أنطونيو نانتانس Antonio Nanetense ، وهو شخص فرنسيّ . وعندما علم هذا الأخير بما وقع ، اصطحبني على التّو عبر بعض الأزقّة الخلفيّة وأودعني في منزل أحد الموارنة الكاثوليك . وقد تلقّانا هذا الشخص بكلّ حفاوة ، ومن ثمّ قام بإخفائي في مكان خفيّ تحت الأرض ؛ حيث لم يكن هناك من نور سوى ضوء شمعة واحدة .

وقد لبثتُ في هذا المكان تسعة أيام بمشقّة بالغة ، بينما قام هذان اليهوديّان الغادران باحتجاز كل ما وصلت إليه أيديهما من أمتعة ، ولم يتركا لنا حتى الخرائط والأوراق التي كانت بحوزتنا . ولكنّهما عندما لم يعثرا على ما تصوّرا وجوده معنا ، خفتت حدّة تعنّتهما

وأطلقا الرّاهبين بعد معاملة قاسية . وحيال ما حدث ، قام الأب آنخيلو بإرسال الأب آنسلم إلى بيروت ، ومن بعده أرسلني إثر بضعة أيام على طريق صيدا التي وصلناها بفضل العناية الإلهية بسلام ، بعد مسيرة خمسة أيام . لكننا وصلنا شبه متجمّدين ، بسبب الثُّلوج الكثيفة التي أصابتنا على الطريق .

* * * * *

مصادر البحث :

1 – روّاد الشرق الإسلامي في العصور الوسطى : نقولا زيادة ، مطبعة المقتطف والمقطّم ، مصر 1943 .

2 – دمشق في عهد المماليك : نقولا زيادة ، منشورات مكتبة لبنان ، بيروت 1966

3 – وصف دمشق في القرن السابع عشر ، من مذكرات الفارس دارڤيو ، نشرها أحمد إيبش ، دمشق 1982 .

4 – دمشق الشام في نصوص الرحالين والجغرافيين والبلدانيين العرب والمسلمين من القرن الثالث إلى القرن الثالث عشر للهجرة : أحمد الإيبش ود. قتيبة الشهابي ، منشورات وزارة الثقافة ، دمشق 1998 .

5- Wright, Thomas: Early Travels in Palestine, London 1848.

6- Broquièrre, Bertrandon de la : Le Voyage d'Outremer, Editeur: Ch. Schefer, Paris, Leroux, 1892.

7- Belon du Mans, Pierre: Les Observations de Plusieurs Singularités et Choses Mémorables trouvées en Grèce, Asie, Judée, Arabie, etc. Paris, 1553.

8- Manrique, Sebastien: Travels of Fray Sebastien Manrique, published by Hakluyt Society, London, 1927.

* * * * *

مقولة كشف اللّثام
عن أحوال دمشق الشام
وهي مقارعة طريفة بين حلب ودمشق

لأديب حلبي من أواخر القرن التاسع عشر
الحاج خورشيد أفندي المسائل

في عام 1984 ، حصلتُ على نسخة مصوّرة من مخطوط طال بحثي عنه ، وكنت قرأتُ عنه مقالاً في مجلة التراث العربي الصادرة عن اتحاد الكتّاب العرب . أما هذه النسخة فكانت في الواقع هدية من صديقي المستشرق الفرنسي ، الإسباني الأصل ، «جان يول ياسكوال» ، ولعلّه - كما يدلّ اسمه - حفيد المؤرّخ القرطبي الشهير ابن بَشْكُوَال ، خلف بن عبد الملك الأندلسي (1101-1183 م) .

وهذا المخطوط هو «مقولة كشف اللّثام في أحوال دمشق الشام» ، التي ألّفها الحاج خُرشد أفندي المسائل الحلبي ، بمدينة حلب عام 1311 هـ . = 1893 م ، يضمّ مقارعة أدبية طريفة بين حلب ودمشق ، الأمر الذي كان دوماً مثاراً للمنازعات والمفاضلات ، وحتى الحسد أو البغض أحياناً ؛ فيروي المؤلف أنه زار دمشق في العام المذكور ، وأحبّ أن يطّلع

بنفسه على حقيقة ما يبديه الدّمشقيون من «دعاوى طويلة عريضة» في فضائل مدينتهم ، والحجج الواهية الباطلة التي يحاولون فيها اختلاق المثالب في حقّ مدينته حلب ، التي يراها خير مدن الدّنيا قاطبة .

وتعود معرفتي بالنص المذكور ، إلى ما كنتُ قرأته في المجلة المشار إليها ، في العدد 8 من السنة الثانية ، الصادر في شهر تموز عام 1982 .

في العدد المذكور ، نشر الأديب الحمصي الأستاذ عبد الإله نبهان نصّاً للحاج خورشيد نفسه ، مؤلف المقولة ، بعنوان : «مقولة السَّوط المضفور للجاهل المغرور» . وإن كان أخطأ بوضوح عندما جزم بقوله : لمؤلف مجهول ، رغم أن ما جاء على المقولتين يؤكد أنهما لمؤلف واحد ، ما هو إلا الحاج خورشيد المُسائل الحلبي . والعبارة الختامية في مقولة كشف اللثام : «تمّت على يد كاتبه الحاج خرشد المسائل» ، لا تدلّ بوجوه من الوجوه على كونه مجرّد ناسخ للنصّ ، بل هو المؤلف حتماً ، بدليل تطابق تاريخ النسخ (15 ربيع الثاني 1311 هـ .) على تاريخ الرّحلة وذكر واقعة حريق الجامع الأموي (في 4 ربيع الثاني من العام ذاته) ، التي وقعت بعد خروجه من دمشق ، كما يقول ، بيوم واحد .

كانت المخطوطتان ملكاً للورّاق الدمشقي الشهير رفيق حمدان ، وقياس مسطّرتهما 14 × 21 سم . وتقع «مقولة كشف اللّثام» في 53 صفحة ، وعلى الصفحة الأولى عبارة تملّك : «ملكه الفقير إليه تعالى محمد ناجي الكردي خادم أموي حلب ، عُفي عنه ، في 27 ربيع الثاني سنة 1311» . ولغتها سقيمة تغلب عليها العاميّة والرّكاكة ، وتفشو بها أغلاط النحو واللغة . أما العبارة الختامية «تمّت على يد كاتبه ..» فخطّها وحبرها مغاير لباقي النسخة ، مما أوقع الأستاذ النبهان في حيرة من أمره ، والمسألة واضحة ، لا لُبس فيها ولا شك .

وأخيراً ، يروي النبهان نبأ عثوره على مخطوط صغير بعنوان : «سانحة أدب من ساحة حلب» لمحرّرها خورشيد أفندي الكردي ، وتمّ نسخه بحمص في عام 1321 هـ . . ونجزم بأن هذا ما هو إلا مؤلف المقولتين السالفتي الذكر .

أما مقولة «كشف اللّثام في أحوال دمشق الشام» ، فهي مما يدخل في باب التأريخ الحضاري ، وتضم أراء يغلب عليها التعصّب ضد دمشق لصالح حلب . لكنها ، برغم كل

ذلك ، تفيد بتقديم صورة مفيدة وطريفة عن دمشق وأحوالها الاجتماعية وسلوكيات أهلها في أواخر القرن التاسع عشر ، مع ذكر لبعض الحوادث والشؤون التي يندر أن يطالعها القارئ في مواضع أخرى .

[ص 1]

بسم الله الرحمن الرحيم

أقول وبالله التوفيق : طالما كان يقرع سمعي خبر المناقشات التي تجري بين أهالي دمشق وبين الحلبيين ، وما يبديه الدمشقيون [66] من التنكيت والتبكيت عليهم ، وذلك بخصوص أفضلية دمشق على حلب مناخاً وتجارة وصنعة وزينة وسكاناً ، وغير ذلك من الدّعاوى الطويلة العريضة . فكثيراً ما كنت أودّ أن أستطلع بنفسي حقيقة الأمر ، إلى أن كتب الله لي السفر إلى دمشق في حاجة ، وحقّق لي ما كنت أؤمّله . فجعلت أنظر في أحوال تلك المدينة نظر الناقد البصير ، وكانت مدّة إقامتي بها كافية لاستقصاء أغلب الأحوال وكشف حقيقة الحال .

وبعد رجوعي إلى الأوطان واجتماعي بالأحباب والخلاّن ، طلبوا مني أن أضع مقولة أصف بها مدينة دمشق ، وما شاهدتُ هناك مما يُستحسن ويستقبح . [ص 2] فلم يمكنني إلا الإجابة لطلبهم ، فشرعتُ بها وسمّيتها : «كشف اللثام عن أحوال دمشق الشام» . فهَاكَهَا ، خالية من الشوائب والتعصّب [67] والكذب القبيح ، مع التزام جانب الإيجاز ، إذ بالحقيقة لا يقتضي هذا المقام إطالة الكلام وهذا الخصام . وما نورده كاف في مقابلتهم بما جعلوه دَيْدَناً لهم من التبكيت والتنقير على أهل حلب دون باعث ظاهر ، اللّهم إلا أن يقال : «البُغض في الأهل والحسد في الجار» [68] .. أعاذنا الله من شرّ الحاسدين وكيد الشامتين .

---

(66) بالأصل : وما يبدونه الدمشقيين .
(67) سيورد الكاتب في مقولته هذه عكس ما يدّعيه هنا .
(68) لا نتوقع أن أهل الشام يحسدون حلباً ، بل يظنّون أن لدمشق المزيّة في أغلب الأمور . إنما للأمر خلفية تاريخية قديمة جداً ، هي النزاع القبلي بين

فأقول : إن مدينة دمشق هي بلدة يروق منظرها ويطيب عيشها لمن يأتي إليها من البلاد الفقيرة الجرداء ، كالحجاز والعراق وأفريقية ونحوها ، لا لمن يأتي إليها من البلاد المخصبة الغنيّة بمحاصيلها [69]، ذات التربة الجيّدة والمناخ المعتدل والفواكه الشهيّة والمعيشة الهنيّة ، كمدينة حلب .

فإن الحلبي لا يرى لتلك المدينة مزيّة على مدينته [ص 3] في شيء من الأشياء ، إلا أن يقال : تروق لبعض أوباش حلب لأمور ظاهرية لا تخفى على نباهة القارئ الفَطِن [70]، وذلك لا عبرة فيه .

الهـ . . ـواء

ومعلومٌ أن من أوّل ضروريات المدينة هو الهواء الذي منه حياة الإنسان والحيوان ، فهواء دمشق رديء باتفاق الأطباء ، لكونه على الدوام متحللاً للأبخرة والغازات التي تنجم عن مستنقعاتها الكثيرة ، عندما تكابد مع المواد النباتية التخمّر العفن ، فتدخل هذه الأبخرة والغازات السمّية أجسام الإنسان بالتنفس ، وتفعل به فعل السموم .

وهذا مما لا ريب فيه ، لأن كل بلدة كثرت فيها المياه والمستنقعات كان هذا شأنها ، خصوصاً إذا أضيف لذلك انخفاض المكان وانحجابه عن الأشعة الشمسية كدمشق ، فإن المقبل عليها لا يكاد يرى منها شيئاً حتى يدخلها ، ولذلك ترى غالباً على ألوان أهلها الاصفرار .

عشائر القيسية (في حلب مثلاً) واليمانية (في دمشق وحمص مثلاً) ، وكانت بين الفريقين جرت في الماضي مذابح مريعة يطول شرحها . وعين الأمر ينطبق بين حماة وحمص مثلاً . أما الشاميون فهم «يستغلظون» بعض الحلبيين ، بينما نرى أولئك «يستمرقونهم» ! سامح الله الجميع .

(69) في عصر المؤلف ، لم تكن لتُقارَن بدمشق وجمال طبيعتها ومتنزهاتها مدينة مهما كانت .

(70) لعله يلمّح إلى فشوّ المنكرات والملاهي بدمشق ، كما يدّعي .

وقد أشار إلى ذلك الشيخ عمر [بن] الفارض ، رحمه الله ، بقوله : [ص 4]

جِلّقٌ جنّةُ مَن تَاهَ وبَاهَا ورُباها مُنيتي ولا وَبَاها
قيل لي صِفْ بَرَدَا كوثرها قلتُ غالٍ بَرَدَاها بِرَدَ[ا]ها

وحلب في ذلك على العكس ، فهي جيدة الهواء لعدم وجود المستنقعات ، مرتفعة الموقع ، ولذلك ترى أهلها سليمي البنية صحيحي المزاج . فلو لم يكن فيها سوى مزيّة جودة الهواء لكفى في تفضيلها على دمشق ، ولذلك قال الشيخ سعد الدين أبو سعيد محمد بن الشيخ محيي الدين [بن] العربي :

حلبٌ تفوقُ بمائها وهوائها وبِنائها والحُسنُ في أبنائها
نورُ الغزالة [71] دون نور جمالها والشُّهبُ تَقْصُر عن مدى شهبائها
ظلّتْ يحومُ النصرُ من أبراجها فبُروجها تحكي بُروجَ سَمائها
والسُّورُ باطنُه ففيه رحمةٌ وعذابُ ظاهره [72] على أعدائها
بلدٌ يظلُّ به الغريبُ كأنّه في أهله فاسمعْ جميلَ ثنائها

المـ . . . ـاء

وأما ماء دمشق فرديء أيضاً ، لكن لا لكونه رديئاً من أصله ، [ص 5] بل لما جرى عندهم من العادة الرذيلة ، وهي إلقاء الزّبل فيه لسدّ مسامات كيزان الأقنية . فلا يخفى ما يحمله الماء من هذه المادة القذرة ، وتهديه إلى الأهالي شُرباً واغتسالاً . وهذا الذي

(71) الغزالة : الشمس .
(72) اقتباس أدبي من القرآن الكريم : {فضُرب بينهم بسور له بابٌ ، باطنُهُ فيه الرّحمَة وظاهرُهُ من قبله العذاب} - الحديد : 57 .

حمل الشيخ عبد الغني النابلسي ، رحمه الله تعالى ، أن يقول [73]:

أتْعَبَتْني أبقرُ الشّام وهي في نقض وإبرام
وَاعَنائي كم أعلّمهم ثم ألقى جهلهم نامي
زبلُهم في الماء صيّرهم شربه من غير أفهام
لم يرقوا بالمواعظ إذ ما هم من حجر هام
كلّهم لا يعرفون سوى قبح أفعال وآثام
بطنهم والفرج أهلكهم مثل ثيران وأنعام
فتراهم لا عقول لهم إنما هم أسرُ أوهام
عصبة البُهتان ضلّوا ولم يختشوا زلاّت أقدام
فيّ قد زادت وساوسهم وابتلوا في داء برسام
فلذا هم يخلطون بنا فرط تحقير بإكرام
وإله الحقّ مطّلع بأموري خير علاّم
قادر في الحال يأخذهم بي على قهر وإرغام
ما أنا من جنسهم وبنو آدم هم مثل أصنام
فكأني بينهم وأنا الـ . [ص 6] العربي من نسل أعجام
وأنا من خبث عصبتهم بين عذّال ولوّام
مولدي فيهم ولا عجب جوهر في صدف كامي
لست منهم لانفرادي في الـ . بيت عنهم منذ أعوام
قسوة فيهم وفرط جفا لم يخف مرثيهم رامي

(73) القصيدة مشهورة له في ذمّ أهل دمشق ، وكانوا رموه بالزندقة إبّان خلوته الصُّوفية ببيته .

وابتلوا بالبغي من حسد مثل أمراض وأسقام

قد أتى في مُسند ابن عدي خبر عن جُلّ أقوام

قال خير الخلق سيّدنا الجفا والبغي في الشام

وهذه العادة ، ولله الحمد ، مفقودة في حلب ، فإنهم يسوقون الماء في أقنيتها بواسطة نشارة الخشب الطاهرة النقيّة فترى الماء عندهم كالزّلال ، خصوصاً في الصهاريج المعدّة لتبريد الماء مدّة الصيف ، فهي من أطيب المياه وأطهرها وأعذبها . ولا يخفى أن الماء أخو الهواء في شدّة احتياج الإنسان إليه .

المسكن

ثم من ضروريات الإنسان المسكن ، ولمّا كان جميع بيوت دمشق مشحوناً بالبقّ والبعوض والنمل والدّود وغير ذلك من الهوام ، كانت مصيبة عظيمة على الساكنين . وكنتُ أظن قبلاً أن اصفرار أغلب أهل دمشق [ص 7] ناشيء من فعل هوائها الرّطب العفن ، ولكن تبيّن لي بعد التأمّل أن فعل الهوام المذكورة له دخل في ذلك أيضاً ، إذ لا يمكن للإنسان هناك أن يعتاض في النهار [عمّا] يخسره من دمه في الليل ، ولو أراد الإنسان أن ينام خارج البيوت تخلّصاً من هذا الأذى ألجأته رداءة الهواء ووخامته إلى داخل البيوت قسراً . فكأنّ بين الهواء والهوام اتفاقاً على استتراف وإفساد دم أهل الشام .

البناء

وأما بناؤها ، فحيث أنه كان من الطوب والتراب ، ما خلا البنايات الأميرية والقُشَل العسكرية وبيوت الأوروبّاوية ، وبعض بيوت أغنيائها ، كان منظرها يقبض النفوس ، خصوصاً بشاعة منظر ستائرها المعمولة من عيدان القنّب والطين . وينشأ عن جميع

ذلك في الصيف غبارٌ يعمي الأبصار ، وفي الشتاء وُحُولٌ تذهب بالاصطبار . وأقسم بالله أن منظر قرية بِنِّش وكثير من قرى حلب ، يروق للعين أكثر من منظر دمشق .

وأما ما يقال عن داخل [ص 8] بيوتها من كونه مزوّقاً ومزخرفاً بنقوش جميلة ، فهذا شيء لا يهمّ الغريب .

الأسواق

وإن كانت أسواقها عريضة عالية السقوف ، فهي خالية من الترتيب ، حيث ترى الخبّاز بجانب البزّاز ، والجزّار بجانب العطّار ، والحبّال بجانب البقّال ، والدخّاني بجانب الحلواني ، والقوّاف بجانب الصحّاف ، وهلمّ جرّا . ولا يخفى عى الفَطِن ما يجده المشتري في ذلك من العناء ، عمّا لو كانت أمكنة الباعة مترتّبة كل صنف بصنفه ، خصوصاً للغريب ، لأنه ربما يقضي أكثر نهاره في التفتيش على مطلوبه . ولذا كانت حلب في ذلك فائقة على دمشق أيضاً ، لأن الترتيب في المبيعات [فيها] من الأمور الملتزمة جداً .

وصف حلب لابن جُبير

قال ابن جُبير في مدح حلب ، بعد كلام كثير ، اكتفينا منه بما يأتي [74]:

حلب [بلدةٌ] قدرها خطير ، وذكرها في كل مكان يطير ، خطّابها من الملوك كثير .

كانت في القديم ربوةً فيما يقال ، كان يأوي إليها ابراهيم الخليل عليه السلام [ص 9] بغَنَمه ، فيحلبها هناك ويتصدّق بلبنها ، [فلذلك سمّيت حلب ، والله أعلم] . وبها مشهدٌ كريم

---

(74) قابلنا ما ورد على نص رحلة ابن جُبير ، مطبعة السّعادة بمصر 1908 ، ص 230-233 . ولو كان مؤلفنا راجع ما كتبه ابن جُبير عن دمشق ، لوجد ما يشوقه ويمتعه أيضاً .

منسوب إليه ، يتبرّك الناس بالصلاة فيه .

ولها قلعة شهيرة الامتناع ، بائنة الارتفاع ، معدومة الشبيه والنظير بين القلاع ، تترّهت حصانةً أن تُرام أو تُستطاع ، قاعدة كبيرة ومائدة من الأرض مستديرة ، منحوتة الأرجاء موضوعة على نسبة اعتدال واستواء ، فسُبحان من أحكم تدبيرها وتقديرها ، وأبدع كيف شاء تصويرها وتدويرها .

ومن كمال خِلالها المشترطة في حصانة القلاع [75]، أن الماء بها نابع وقد صُنع عليه جُبّان [76]، والطعام يصبر فيها الدهر كلّه ، وليس من شروط الحصانة [77] أهم من هاتين الخلّتين .

ويطوف بجبلها سوران حصينان ، يعترض دونهما خندقٌ بالماء فلا يكاد البصر يبلغ مدى عمقه . وسورها الأعلى مجلّل ، كله أبراج منتظمة فيها العَلالي المُنيفة [78] قد تفتّحت كلّها طيقاناً ، وكل [ص 10] بُرج منها مسكون .

والبلد ضخم جداً ، جميل ترتيب الأسواق .

المفاخرة بحلب

وكان سيف الدولة ، رحمه الله تعالى ، يفتخر بحلب ويقول : «حلبٌ معقلي ، وشاعري المتنبّي» .

وكان جميل باشا ، رحمه الله تعالى ، يقول : «لو كانت عربستان مملكة مستقلة ،

---

(75) بالأصل : ومن جمالها الزائد على المُشترَط لحصانة القلع . صوّبناه من نص الرّحلة .
(76) بالأصل : صُنع عليها جفان .
(77) بالأصل : الحصان .
(78) بالأصل : القلاع المنيعة .

لوجب أن تكون عاصمتها مدينة حلب» . وكثيراً ما سعى في أن يجعلها مركز أوردى [79] في مدّة ولايته عليها ، فما توفّق في ذلك .

البُقول والزروع والفواكه

وأما بُقُولها - يعني دمشق - فهي أدنى من بُقول حلب في اللّذة والفكاهة ، وأغلى قيمة منها . وقد ذكر ذلك ياقوت الحموي في كتابه (معجم البلدان) ، فقال :

وشاهدتُ من حلب وأعمالها ما استدللتُ به على أن الله تعالى خصّها بالبركة وفضّلها على جميع البلاد ، فمن ذلك أنه يُزرع في أراضيها القطن والسُّمْسُم والبطيخ والخيار والدّخن والكرم والذُّرة والمشمش والتّين [والرُّمّان] والتفاح [والفستق والزيتون] [80]، عذياً لا يُسقى إلا بماء المطر ، ويجيء مع ذلك رَخْصاً [81] غضّاً رويّاً [ص 11] يفوق ما يسقى بالمياه والسّيح في جميع البلاد . وهذا لم أره فيما طُفتُ من البلاد في غير أرضها .

وهي تفوق البلاد بأشياء ، كما قال الشاعر :

حلبٌ سَمَتْ ببُقولها وبمائها ... وببُرّها وبسَمْنها ولُحومها
والتينِ والبطّيخ والعَسَل الشهي ... والفُستق القرشي وجَني كُرومها
وبما يُصاغ من الحليب وزيتها ... تلك التي انفردتْ بطيبِ طُعومها

وقد قيل للشّهاب السَّهْرَوَرْدي [82]: «أخرج من حلب فإنّك مقتولٌ !» ، فقال : «حتى آكلَ من بطّيخها» .. فكان شهيد البطّيخ !

ولقد نُقل البطّيخ منها في زمن السلطان الأشرف بَرْسْبَاي إلى مصر ، والآن يُنقل منها

(79) اوردى : كلمة تركية ordu ، معناها : جيش .
(80) ما بين حاصرتين ليس في معجم البلدان ، بل زاده المؤلف من عنده .
(81) رَخْص : طري .
(82) المتصوّف المشهور ، أعدمه صاحب حلب الظاهر غازي ابن صلاح الدين عام 587 هـ .

إلى دار السّعادة برسم سيدنا أمير المؤمنين [83].

وكذا يُقال في فواكه حلب سوى بعض الأنواع ، فإنها في دمشق أجود من التي في حلب ، كالمشمش الحموي والتفّاح والكمّثرى والدّرّاقن . على أنه لو كان عندهم أكثر من ذلك بكثير ، لفاقت عليهم حلب بالفُستُق الجميل اللون اللذيذ الطعم ، الذي يقال عنه (نُقل الملوك) ، وهو [ص 12] كذلك .

اللحم والخبز

وأُلحق بالفستق اللّحم واللّبن وما يتألف منه ، والخُبز أيضاً ، ففي دمشق اللّحم ليس زكي الطعم والرائحة ، لأن مرعى الغنم عندهم من قُمامات البساتين ، مثل البيقية وورق اللّفت والحلبة ، ولذلك كان طعم اللّحم والحليب عندهم تافهاً .

وسبب كراهيّة طعم الخبز أيضاً الطواحين ، فإنه لّما كان ماء أنهرهم قوياً ، يشتدّ دوران أحجار [84] الرّحى على القمح فيجعل حرارة قوية في الطحين ، فيكون سبباً في فساد طعم الخبز . وأيضاً يخلطون الطحين بالذّرة الصّفرة لأجل تحسين لون الخبز ، بخلاف الخبز في حلب ، فإن أكثر طحينه يطحن في المدار على الدواب بلطافة ، من غير ما يصير حرارة في الطحين . حتى طواحين الماء فيها خالية من الخاصيّة المذكورة ، ولا جرت العادة بأن يخلطوا الطحين شيئاً ، لأن قمح حلب لا يلزمه شيء يحسّنه ، ولذلك اشتهر بأن خبزها أطيب خبز في الدنيا .

حارة المرقص

ومن أقبح العادات في دمشق [ص 13] وجود حارة المَرْقَص ، وهي سكنى المومسات

---

(83) دار السعادة أي استانبول ، وكانت تُدعى «در سعادت» ، أما أمير المؤمنين فعبد الحميد !

(84) بالأصل : حجار .

، واقعة داخل المدينة ، فإنها تحوي من هؤلاء الفاحشات على مئات ، فهنّ كشجر العلّيق في طريق الناس ، إذ يعلقن بكل مارّ . فالحمد لله على خلوّ حلب من هذا المُنكر [85].

والظاهر أن هذا داء قديم فيها ، لأن العلاّمة مجد الدين الشيرازي ذكر ذلك بقوله : (قال الشاعر)

تجنّبْ دمشقَ ولذّاتها وإن غرّكَ الجامعُ الجامعُ
فسُوقُ الفُسوق بها قائمٌ وفَجْرُ الفُجور بها ساطعُ

منقول من كتاب «تحفة الأصحاب» ، الموجود في مكتبة الملك الظاهر بدمشق .

الطيش والجهل

وأما من جهة خُلُقهم ، فإن أكثرهم أهل خفّة وطيش ، ومن جملة الأدلّة على خفّتهم وطيشهم عملهم العراضات في أيام توصيل الأنفار الذين أصابت أسماءهم القُرْعَة العسكريّة إلى سراية المُشير .

وذلك أن دائرة العسكريّة تطلب أنفار كل قُوْل ، في يوم مخصوص على حدة [ص 14] حسب مرغوبهم . وقد جَرَتْ العادة عندهم أن تجتمع شبّان ذلك القُوْل ، ويأتيها المَدَد من محلاّت أخرى ، فيصيرون جيشاً عرمرماً حاملين السيوف والتّراس [86] وبعضهم النَّبابيت وآخرين البنادق ، ويمشون جمهوراً من غير ترتيب ، وفي وسطهم الأنفار العسكريّة . ويأخذون باللعب بهذه الأسلحة وإطلاق البنادق والفُرود في أثناء مشيهم ، وفي مقدّمتهم الطبل

(85) فأين ذهب حي بَحْسيتا الشهير إذاً ؟ وليت المؤلف ما فتح هذه السّيرة ، وأحرجنا بنشرها في هذه الصحائف . غير أن قدم النص يمنعنا من حذفها ، فلذا نتركها على كُره .
(86) كذا بالأصل ، وصوابها : الأتراس .

وربما يشخّصون هيئة عنتر وعبلة ، فتصير الخيل والجمال والرّجال والنّساء والأولاد كَبْكَبة تمتدّ نحواً من ألف ذراع ويدخلون بهذه الهيئة في أسواق المدينة ، لأنه لا بدّ من كونهم يمرّون من جانب جامع الأموي ليقروا الفاتحة لسيّدنا يحيى عليه السّلام ، فتُسمع لهم جلبة تصمّ الآذان ، من نحو قعقعة السّلاح وصوت إطلاق البارود (87) وحِدى الفرسان وضرب الطبل ورُغاء الجمال وصهيل الخيل .

فيا لها من ساعة مَهُولة ، يتخيّل للغريب الجاهل عاداتهم أنها معركة دمويّة . وكثير من أهل الأسواق يغلقون دكاكينهم ، خوفاً من النّهب والخطف ومن نار البنادق أو الدّخان المنعقد والغبار .

ولا يزالون على هذه الحال حتى يصلوا إلى سراية المُشير ، وهناك لا بدّ وأن يُظهروا شيئاً من براعتهم بلعب السيوف والنّبابيت أمام الهيئة العسكرية أيضاً ، ثم يسلّمون الأنفار المذكورين ويرجعون إلى أماكنهم .

فكم من ولد تدوسه الدّواب ، وكم من رجل يصاب بجراح بسيوف اللاعبين ، أو لطم نبّوت أو نار البارود ، وكم من امرأة تُخدش أو تُنخس أو تُقرص أو تُضغط .

ويستغرقون في هذه العراضة نحواً من خمس ساعات تقريباً ، وعندما يصلون إلى أماكنهم والغبار والدّخان يعلو ثيابهم ووجوههم ، ينظرون في أعطافهم مختالين ، كأنهم قافلين من جهاد العدوّ وقد فازوا بالنصر المُبين .

وفي ثاني يوم يكون دور قُوْل (88) [ص 16] آخر على هذا النمط ، وهلُمّ جرّا حتى نهاية الطلب . ولكن بعد أيام تنعكس القضيّة وهو يوم تسفير الأنفار ، فهناك عراضات البكاء والنّواح من كل جانب ، لأن جميع نساء المدينة اللواتي لهنّ أولاد مسافرون ، تشترك في هذه العراضة ، وكذا رجالهم .

وقد قلتُ لبعضهم : «لو أنكم جمعتم ما تصرفونه على هذه العراضات من النفقات ،

---

(87) بالأصل : البارودي .
(88) القُول : كلمة تركية kul ، معناها : عسكر .

ووزّعتم ذلك على المحتاجين من هؤلاء الأنفار ، لكانوا استعانوا بذلك على غربتهم ، وهان عليهم بعض مصابهم ..» .

أجابوا : «هذه عادتنا من القديم لا يمكن تغييرها !» .

وكذلك يفعلون في توصيل العريس ليلاً إلى بيته .

فأين هذه الخفّة من سكينة أهل حلب ؟! فإن الأنفار المطلوبين للعسكريّة يذهبون بجملتهم دفعة واحدة في يوم الطلب إلى سراية الحكومة بغاية الأدب ، فإذا كمل اجتمعهم تأتي الموزيكا العسكرية وتمشي قدّامهم وهي تعزف ، حتى يصلوا سويّة إلى القشلة الهُمايونيّة [89]، وقد انقضى الأمر فحيّا الله الأدب وأهله . [ص 17]

مدح حلب

ومن هنا قال أبو العلاء المعرّي يمدح حلب :

يا شاكي النُّوَبِ انهضْ طالباً حَلَبا ... نَهوضَ مضنىً لحسم الدّاء ملتمس

واخلع حذاءَك إن حاذيتها ورعاً ... كفعل موسى كليم الله في القُدس

وقال أيضاً :

حلبٌ للوليِّ جنّةُ عَدْنٍ ... وهي للغادرينَ نارُ سَعيرِ

والعظيمُ العظيمُ يكبر في عينيه ... منه قدر الصغير الصغيرِ

فقُويقُ في أنفس القوم بحرٌ ... وحصاةٌ منه نظيرُ ثبيرِ

موازنة بين المدينتين

(89) القشلة : كلمة تركية kisla ، معناها : ثكنة عسكرية . أما الهُمَايونية فتعني السلطانية ، والكلمة تركية ذات أصل فارسي .

ويمكنك أن تعمل موازنةً بين أهل المدينتين ، من كلام صاحب قصيدة الفراسة ، وهي قصيدة طويلة يترجم بها ناظمها غالب البلاد الشهيرة . فمن قوله في حلب :

وحلبٌ خزانةُ الذكاء وموطن العفّة والحياء
طالعُها للغُرَبا سعيدُ وهي لمن فيها شِفا أكيدُ
لكنها تُعطي دقيقَ العِلمِ لأهلها من بعد لطف الفهمِ
لكنها نتيجةُ التلاحي وموطنُ المراء والكباحي
والعصبيّاتُ لديهم وافرة ومسحةُ الحِذق عليهم ظاهرة

[ص 18] وفي دمشق يقول :

عند دمشقَ منظرٌ أنيقُ يعرِفُهُ العدوّ والصّديقُ
وفي بَنيها منظرٌ عجيبٌ وخُلُقٌ نتاجُه غريبُ
لهم ودادٌ حَسَنٌ وبِرُّ لكنّه عن ظاهرٍ يغرُّ
وفيهُمو شَكاسةُ الأخلاقِ وغِلْظةٌ تنبو عن الشّقاقِ
ودادُهم إمّا شهدْتَ وافي فإن تَغِبْ فالودُّ فيهم خافي
وفيهُمو نجابةٌ وباسُ لكنّها ليس لها إيناسُ
وفيهُمو غلاظةٌ وحِدّة وفيهُمو على الغريبِ شِدّة

منقول من كتاب «كنوز الذهب» لأبي ذرّ المحدّث ، ومجهول الشاعر صاحب القصيدة

عودٌ على مدح حلب

وقد مدح حلب جماعة من الملوك والوزراء والعلماء والشعراء ، فمن ذلك قول الملك الناصر ابن الملك الأشرف :

سَقى حلبَ الشّهباءَ في كلّ أزمة　　سحابةَ غَيث نوؤها ليس يقلعُ
فتلك دياري لا العقيقُ ولا الغَضَا　　وتلكَ رُبوعي لا الزّرودُ ولَعلعُ

وقال أبو فراس الحَمداني [90]:

وأبيتُ مُرتهَنَ الفؤاد بمنـ　　ـبج السَّوداء لا بالرَّقَة البيضاء
الشّامُ لا بلدُ الجزيرة لذّتي　　وقُويقُ [91] لا ماءُ الفُرات مُنائي

وقال الصّلاح الصَّفدي متشوّقاً إلى حلب ، وهو مقيم بدمشق :

مَنْ مُبلغٌ حَلَبَ السَّلامَ مُضاعفاً　　من مُغرم في ذلك أعظم حاجةٍ
أضحى مقيماً في دمشقَ يرى بها　　عَذْبَ الشّراب من الأسى كأجاجةٍ

وقال ... ... :

قُلْ لمن رامَ النَّوى عن بلدةٍ　　ضاقَ فيها رزقُهُ من حَرَج
علّل القلبَ بسُكنى حلبٍ　　إنّ في الشّهباء بابُ الفَرَج

وقال الشيخ عمر بن الوردي ، رحمه الله تعالى [92]:

---

(90) من مهموزته التي مطلعها : أقناعة من بعد طول جفاء　　بدنوّ طيف من حبيب ناء .
(91) بالأصل في القصيدة : «يزيد» ، أحد أنهار دمشق المعروفة ، فكيف تراه صار قويقاً ؟
(92) في قوله توريات في منتهى اللطافة ، عن حلب وجبل الجوشن والفردوس

عليكَ بصهوة الشَّهباء تلقى بجَوْشَنها غاربةَ الزَّمان
فللعرفان في الفردوس ريحٌ يفوحُ شَذَاهُ من باب الجنان

وقال الشيخ شمس الدين محمد بن عفيف التّلمساني :

أقولُ والبارقُ العُلويُّ مبتسمٌ والرّيحُ مُقبلةٌ والغيثُ مُنسكبُ
إذا سقى حلبَ من مُزن غادية أرضاً فخُصَّتْ بأوفى قطره حلبُ
أرضٌ متى قُلتُ مَنْ سُكّان أربُعها أجابك : الأشرفان الجودُ والحَسَبُ
قومٌ إذا زُرتَهُم أصفوكَ ودَّهُمُ كأنّما لكَ أمٌّ منهمُ وأبُ [93]

قول للقنصل دارفيو في حلب

وفي كتاب «نهر الذهب» للغزّي عن دارفيو [94]، وهو قنصل لدولة فرنسا بحلب ، كان في حدود سنة 1191 [هـ .] [95]، قال في كتاب ألفه وسمّاه بـ . «تذكرة أسفاري» [96] ذكر فيه بنداً طويلة من الحوادث والأحوال المتعلقة بالبلاد التي دخلها في سفره ، ومن

وباب الجنان .
(93) وهذا والله يصحّ ولقد جرّبناه ، والله يحيّي حلب وأهلها ، ويعطّر منهم بالعافية الأردان .
(94) هو الرّحالة الفرنسي الشهير الفارس لوران دارڤيو ، أحد رحّالي القرن السابع عشر ، أمضى في الشرق 52 سنة (1635-1687 م) ، وتعاطى التجارة وأعمال قنصلية بلاده .
(95) هذا غلط ، فدارڤيو كان قنصلاً لفرنسا بحلب بين 1679-1686 م = 1090-1097 هـ .
(96) عنوان مذكراته ما ترجمته بالعربية : «مذكرات الفارس دارڤيو» ، وعنوانها بالفرنسية :
Mémoires du Chevalier d'Arvieux, Envoyé Extraordinaire du Roi à la Porte, Consul d'Alep, d'Alger, de Tripoli, & autres Echelles du Levant. (6 vols.)

جملتها حلب ، فإنه كتب فيها زهاء عشرين ورقة ضمّنها بعض أوصاف قلعتها وبناياتها وهوائها ومائها وأهلها ، اقتطفنا منه هذه الأسطر :

قال : إن الأمر الخارق للعادة هو امتياز الحلبيين وسموّهم على باقي شعوب الممالك العثمانية كلّها ، فإنهم أحسنهم طباعاً وأقلّهم شرّاً وألينهم جانباً وأشدّهم تمسّكاً بمكارم الأخلاق من جميع شعوب هذا الملك العظيم .

لابن مطروح في حلب ودمشق

وقد ذكر المدينتين الصاحب جمال الدين بن مَطْرُوح ، فقال في حلب :

على حلبَ الغرّاء مني تحيّة   لها أرَجٌ كالمسك والعنبر الوردي
وما هي إلا جنّة الخُلد بهجةً   ولا عجب شوقي إلى جنّة الخلد
[21]نعم ورعى الرّحمنُ فيها عصابةً   مناقبهم جلّتْ عن الحصر والعدّ

وفي دمشق يخاطب أهلها :

اتّخذتُمُ السّبتَ عيداً   وهذه سنّة اليهود
وكان يكفيكم ضلالاً   شُرْبُكم الماء من يزيد

بعض مثالب حلب

ولكن ولو مدحها المادحون ووصفها الواصفون بما هي خليقة به ، لا يمكن أن نغضّ

وكنا في عام 1982 نشرنا من مذكراته «وصف دمشق في القرن السابع عشر» (1660 م) . وكذلك ترجمنا منه وصفه المطوّل لحلب التي أقام بها 7 سنوات ، وسننشره في حينه .

الطَّرْف عن بعض عادات سيئة يستعملها بعض الأوباش الجهلاء ، منها خروج النساء خلف الجنازة رافعات أصواتهن بالبكاء والعويل والصّراخ والولاويل ، مما تشمئزّ منه النفوس فضلاً عن كونها من المحرّمات وملعونٌ فاعلها ؛ وقد أدرك النّصارى واليهود فظاعتها وسماجتها ، فسبقوا الإسلام إلى تركها .

ومنها منادمة العجائز مع «القْشير» [97] في ليالي بعض التعاليل بمحضر من المخدرات قاعدات عى الأسطحة ، وفي أرض الدار مئين من الرجال ، فهناك تسمع للجميع قهقهة عالية لما يقع بين العجائز والقشير من الكلام الفاحش ، وقد يكون مكشوف العَوْرة . ولا يخلو من أن يكون لبعض النساء الموجودات [ص 22] أقارب من الرجال الحاضرين . فيا لها من فظاعة لمن يُدركها ، ولكن القوم يظنون أن العادات تبيح المنكرات .

* * * * *

ومنها توصيل التهنئة إلى بيت صاحب الوليمة بالعراضة والطبل ، وربما كانت شاة أو خمسة أرطال من الأرز أو مثلها أرزاً وسكراً .

ومنها جمع الدراهم من الحاضرين في التعليلة إسعافاً لصاحب الفرح ، فمن الناس من يعطي في يد «الخَلْبُوص» قرشين أو ثلاث أو أكثر أو أقل ، ولكن يقسمها دفعات ، وفي كل دفعة يمدحه الخلبوص بارعاً في المدح ، يستدرّ الدراهم من الحمقى الذين يرتاحون لذلك البلاغة .

* * * * *

ومنها إذا عمل أحدهم وليمة لسبب ما ، دعا إلى بيته أزود مما تسع سفرته من الناس ، ثم يكلّف إلى الطعام نفراً بعد نفر ، فيحصل للعقلاء من السابقين بعض اشمئزاز ، لأنه يرى أن

---

(97) القشير هو مهرّج التعليلة ، كان يصبغ وجهه بالألوان ويلبس طرطوراً طويلاً ويشير بعصا في يده . راجع موسوعة حلب المقارنة للعلامة الأسدي ، 6 : 204 .

عيون المتأخرين ترمقه لأنهم يعلمون أنه لا نصيب لهم من الطعام إلا نفايته ، ويحصل [ص 23] للعارفين من المسبوقين انكسار قلب لأنه يتحقق إنما تأخيره كان لانحطاط مقامه عن غيره . فما كان أغناه هذا الأحمق من أن يدعو الناس إلى طعامه ، ويكدّر أناساً منهم ويحتقر أناساً .

ولكن لو عملتَ موازنة بينه وبين من يدعو مقدار مائتين من الناس إلى ليلة آخر دوره ، فنمتلىء داره بجميع مساكنها ، وقد يتفق أن يبقى أناس زائدة فيوزعهم على بيوت جيرانه . وربما كانت ليلة ماطرة ذات برق ورعد لأنه لا يكون ذلك إلا في فصل الشتاء ، فتصوّر مقدار المشقّة التي تحصل لصاحب الوليمة وأولاده وأهله وجيرانه في إيصال القهوة والأراكيل لهؤلاء المدعوين . وإذا كان عنده مغنيين أو نوبة فيلزم يدوّرهم على الجميع . وأعظم من الجميع تقديم الطعام المحلى نصف الليل ، فيدعو إلى السُّفرة زُمرة بعد زُمرة ، وربما ناس من المدعوّين لا يراهم صاحب الوليمة .. فإذا انقضت تلك الليلة وكلٌّ راح إلى حال سبيله ، وجدتَ الأماكن التي كانوا جالسين فيها كأنها مراغة جمال [ص 24] من الدَّوس بالنعال ورماد التنباك وقشور النّقل ، ووقوع مصباح الغاز على المخدّات وانقلاب كانون النار على البساط والتبوّل في أطراف الدار ، وهلمّ جرّا .. فلا شك أنه يهون عليك فعل الأول .

* * * * *

ولتعلم أن جميع هذه العادات آخذة بالنقصان ، بتقدّم المعارف والعلوم والآداب ، ومأمول زوالها بالكليّة قريباً إنشاء الله .

عَوْد على مدح حلب

ولنرجع إلى ما كنّا في صدده من مدح حلب ، فلو أردنا أن نسرد جميع ما قيل فيها نظماً ونثراً من الشعراء والأدباء لطال الشرح ، ويكفي أن أكثر خلفاء الأمويين كانوا يختارون سكنى حلب عى دار ملكهم ، فكان مُقام هشام في الرُّصافة شرقي حلب ، وعمر بن عبد العزيز في الخناصرة ، وسليمان بن عبد الملك في قنّسرين ، والوليد في جبل سمعان .

قضيّة الكوميدة

ويكفي هذا القدر في وصف حلب ، ولنرجع إلى وصف دمشق وأهلها فنقول :

يوجد عندهم تساهل في أمر النّاموس ، فمن جملة تساهلهم تشكيل الكُوميدة [98] التي شكّلها [ص 25] أبو خليل القبّاني عندهم ، فإنها كانت مؤلفة من غلمان جميلين يرقصون ليلاً على نغمات الأوتار أمام الجمهور من الرجال والأولاد ، وبعض الغلمان المذكورين يتزيّون بزيّ النساء ويحكونهن بحركاتهم وكلامهم . حتى تمادى الأمر إلى دخول بعض أولاد أكابر دمشق في زُمرة الراقصين ، ولمّا لم يكن لآبائهم قدرة على منعهم لعدم النصير عليهم ، وكاد يتفاقم امر ويكثر الفساد ، هيّجت الحميّة الدينية الشيخ سعيد الغبرة فتوجّه إلى الأستانة العليّة ، وبعد مجاهدة كلّية استحصل على إرادة سنيّة بتعطيل الكوميدة المذكورة من دمشق مؤبّداً ، فاكتسب بذلك رضاء الله تعالى ورضاء الناس من أهل الناموس ، ولكن تحمّل غضب أبي خليل المذكور وحزبه .

وبعد ذلك حضر أبو خليل إلى حلب ، وطمع في أن يشكّل بها نظيرها ، ولكن رجع منها صفر اليدين بخفّي حنين بعد جهد عظيم ، فالحمد لله على عدم رواج هكذا منكرات في حلب .

خَلق أهل دمشق

وأما من جهة خَلق أهل دمشق ، فيوجد منهم نحو الخمسة [ص 26] في المئة في لون الحَبَش ، فكأن كثيراً منهم مولع بتطعيم الباذنجان بالقرع ! ومثل هذا العدد منهم مخلوعين ومحدوبين ومعتوهين ، ويُظنّ أن سبب ذلك ناشيء من كون كثير منهم معرّضين للمرض اللّينفاوي الذي يتسبب عنه رخاوة العظام ، وهو من مقتضيات هوائهم الرّطب ، أو لكون

---

(98) الكوميدة : من الإيطالية comedia ، وكانت تسمّى بالشام أيضاً الكوميضة أو القوميضة . أما أبو خليل فهو أحمد بن محمد آغا آق بيق القباني (1841-1902) ، وهو جد جدّتي .

والديهم يتزوّجون غالباً وهم دون سنّ البلوغ .

ومن المعلوم أن الأولاد الذين يأتون باكورة ثمرة والديهم يكونون مختلّي المزاج وعُرضة للعاهات ، أو لكون أمهاتهم يبكّرن إلى المتنزّهات والفُرَج ويتركن أولادهن في القماط ، فينقلب الولد في رباطه فلا بدّ أن ينعوج شيء من أعضائه ، أو من مجموع ذلك ، والله أعلم .

ويوجد بينهم كثير من الذين شفتهم العليا لا تغطي أسنانهم فتبقى بارزة ، والسبب في ذلك على ما أظن أن أمهاتهم يتوحّمن على جمل المَحْمَل ، فإنهن مولعات بالفرجة عليه [ص 27] ذهاباً وإياباً .

ويكثر فيهم السّمان أو المنفوخون ، حتى أن البعض منهم يكون بقدر كردوشين (كردوش لقب رجل حلبي جسيم) ، وهذا ناشىء من بلادة طبعهم وبرودة دمهم .

وجميعهم أهل خرافات ووساوس [99].

الحُسن بين دمشق وحلب

وأما من جهة الحُسن فهو فيهم قليل جداً ، رجالاً ونساءً ، إسلاماً ونصارى ويهوداً ، ولا يصْدُق كل ما يقال عنهم في هذا المعنى . وقول الشيخ عبد الغني رحمه الله [100]:

ما بين جابيها وباب بَريدها قمرٌ يغيبُ وألفُ بدرٍ يطلعُ

فإن كان قوله هذا تصوّفاً فـ [ـلا] ندري معناه ، وإن كان تغزّلاً فهو من المبالغات الشعرية ، إذ لا يوجد جانب منه في كل دمشق ، فضلاً عن هذا المقدار في قسم منها . وأيضاً لو كل واحد من الألف غاب وظهر عوضه ألف ، لأشبه في التكاثر «مكروب» الكوليرة

(99) يتحدّث صاحبنا عن الخرافات ، وقبل قليل كان يحكي عن الوحام على جمل المحمل !

(100) ليس الشعر للنابلسي ، إنما هو من قصيدة مشهورة مطلعها : عرّج ركابك عن دمشق ..

[101]، وكانت ضاقت بهم دمشق بل وبرّ الشام في مدّة قليلة !

* * * * *

والمُحكم قول صفيّ الدين الحلّي [102]، رحمه الله :

لله درُّ سَمَا الشّهباء من فَلَكٍ فكلّما غاب نجمٌ أطلعتْ قَمَرا

[ص 28] وما أحلى قوله ، وكان قد جاء إلى حلب ومعه غلام ، فأخذه منه بعض أمرائها :

سقى حلباً صوب العهاد وإن وَهَتْ مواثيقُ من سكّانها وعهودُ
وحيّا على أعلى العقيقة مترلاً عيونُ ظباهُ للأسود تصيدُ
إذا ما انتضتْ فيه اللّحاظُ سُيوفَها فإن قلوبَ العاشقينَ غُمودُ
وَرَدْنا بها بيضَ الصِّفاح كليلةً فصاتْ علينا أعينٌ وقُدودُ
فللّه عيشٌ بالحبيب قضيتُه فُويقَ قُويقٍ والزّمانُ حميدُ

* * * * *

تفضيل جمال أهل حلب

وخلاصة القول أنه لا مناسبة بين جمال أهل حلب ودمشق ، فإن الأولى مشهورة بحُسن

---

(101) لا ندري بماذا نجيب .. ألم يعلم المؤلف بعد أن الشعر يقوم على المبالغات البيانية ؟ أم هل بوسعنا مثلاً أن نعاتب أبا فراس الحمداني لأنه في قصيدته المشهورة يناجي حمامة ؟
(102) لم نرَ أي مجال للمقارنة بين البيتين ، ولا شك أن الأول ألطف وأبلغ .

صُوَر أهلها ، وقد ذكر ذلك الدكتور فانديك [103] الأميريكاني في كتابه «المرآة الوضيّة» [104] حيث قال : وأهل حلب يتّصفون غالباً بحُسن الصورة والصوت والخطّ ، فإن ذلك عندهم أكثر مما عند غيرهم من أهل برّ الشام .

ومن النّكت الظريفة في محاسن أهل حلب هذه العبارة التي تُقرأ [ص 29] طرداً وعكساً ، وهي : «حلب أهلها بَلَح» .

مفاخرة أهل دمشق

وجميع أهل دمشق يحبّون الفخفخة والتفاخر والمُباهاة ، ولو بالمُحال ، كافتخارهم بضخامة أشجار زيتون بلدهم ، مع أن زيوتهم لا تصلح إلا لعمل الصابون أو الإيقاد ، لأنك إذا أحميته لتقلي به شيئاً هزمك برائحته المنتنة ، وهذا شأن الزيت الذي ينمو شجره سقياً . وهم يدهنون به الزبيب فيصير له طعم كريه ، وهو المسمّى عندهم بالزبيب الدّربْلي . والمترفهون منهم يأكلون من زيت بلاد حلب [105] .

---

(103) كورنيليوس ڤان دايك Cornelius Van Dyck (1818-1895 م) : طبيب وعالم مستشرق أميركي من أصل هولندي . أقام في بيروت مبشّراً بروتستانتياً ، وأتقن العربية وآدابها . شارك في تأسيس الكلية الإنجيلية السورية (S.P.C.) منذ عام 1866 م (وهي الجامعة الأميركية في بيروت اليوم A.U.B.) ، ودرّس فيها فكان من ألمع مستشرقي عصره . ترجم الكتاب المقدّس إلى العربية ، وله نحو 25 مؤلفاً بالعربية في العلوم والآداب . ترجمته في الأعلام لخير الدين الزّركلي ، الطبعة الثانية ، 6 : 77-78 . وراجع :

Dodge, Bayard: *The American University of Beirut, A Brief History*, p. 7.

(104) أي كتابه «المرآة الوضيّة في الكرة الأرضيّة» في الجغرافية ، ووصف حلب فيه يقع بين الصحائف 144-146 ، الطبعة الثالثة ، بيروت 1886 .

(105) لا زالت إلى اليوم أجود زيوت سورية ما تنتجه عفرين وسلقين وإدلب ، من ديرة حلب .

وكافتخارهم بجسامة بقرهم ومعزهم ، لأنها تعطي الحليب الكثير . نعم صدقوا ، ولكن ما أدراك ما طعم الحليب الذي يفتخرون به ؟ ما هو إلا طعم عصير السَّداب ، إذ ليس عندهم مرعى للدواب غير الحلبة وورق الكرنب كما تقدّم .

* * * * *

ويفتخرون أيضاً بعنب داريّا ، وهو في الحقيقة من العنب الزيني الذي عندنا ، والفرق بينهما كون الذي عندنا عدياً وذاك سقي ، ومع ذلك فهو غالٍ ، لأن رطلهم الذي هو عبارة عن ثمانمائة [ص 30] درهم يُباع عندهم بثلاثة قروش .

* * * * *

وأما افتخارهم بأنهارهم التي تشق المدينة فهي قذرة لكثرة ما يسقط فيها من أوخام المدينة ، فحيث ما جلستَ بجانب نهر في بيت قهوة أو روضة تشمّ منها رائحة كريهة ، إلا الأنهر المعدّة للشرب ، مثل قنوات وبانياس وتورا ويزيد ، فإنها لا يخالطها شيء سوى الزّبل لأجل سدّ مسام كيزان الأقنية . وهذا معفو عنه عندهم ، ولكن لا عافا الله زمرة قنواتيهم لأن عندهم من نشارة الخشبية أكثر مما في حلب ، فما ضرّهم لو استعملوا ذلك الطاهر بدلاً من هذا النجس ؟ إلا أن يقال إن القنواتية هناك من النّصارى فلا يبالون بالنجاسة [106]، والإسلام عى آثارهم سالكون ، وبأعمالهم مقتدون .

* * * * *

الخضار والحلويات والمآكل

---

(106) هذه دعوى مرفوضة ، فمفهوم النجاسة كمصطلح ديني ينبغي ألا يختلط بمعاني السلوك الحياتي للنظافة . فجميع أهل الشام وسورية من مسيحيين ومسلمين يدركون أساليب النظافة والعناية الصحية ، إلا أن ما يُعتبر نجساً لدى المسلمين كالخمر ولحم الخنزير ، ليس يعتبر كذلك لدى المسيحيين ، وكذلك فأحكام الطهارة والوضوء تختلف جذرياً .

وأظنّ سبب غلاء أسعار البُقول عندهم هو اعتناؤهم بالأشجار أكثر من البُقول ، وذلك ناشيء من جهلهم بفنّ الزراعة ، بخلاف البساتنة في حلب ، فإن أحدهم يستخرج بمهارته [ص 31] من مسكبة واحدة ما لا يستخرجه البستاني عندهم من مسكبتين ، وهذا أمر محقّق .

وأما الحلويات عندهم ، مثل البقلاوا والمعمول والغُرَيْبة والمأمونيّة وما أشبه ذلك ، فلا تقربها أبداً ، لأنه لا صناعة ولا بضاعة . لكنهم يتقنون عمل الفول المدمّس والمسبّحة ، وهم يتفنّنون كثيراً في تركيبهما ، فمرّة يعملونهما بالسَّمن – وما أدراك ما السَّمن – ومرّة بالزيت المعلوم ، ومرّة باللّبن ، ومرّة بالطحينة . ولكل من هذه التراكيب اسم خاص به ، مع أن الخسيس خسيس ولو تنوّعت تراكيبه وكثرت أسماؤه .

وأمّا ماء الحمّص الممزوج بالقِلي فلا بدّ لأحدهم أن يمرّ صباحاً على أحد باعته ويكرع منه مغرفة ، وهو عندهم بمثابة الشّاي عندنا .

وكما يفضّلون طبخ البندورة الخضراء على الحمراء ، كذلك يفضّلون الكرنب على كثير من الخضر .

الصابون والفحم

وصابونهم أسود اللّون أو سنجابي رديء لا يقوم بوظيفة تنظيف الثياب كما يجب ، فربما تحتاج لأجل غسل قميص ولباس إلى قالب منه برأسه . ولذلك [ص 32] تراهم يرغبون الصابون الذي يأتيهم من إدلب ، لأنه أجود من صابونهم بكثير ، مع أنه أردى صابون بلاد حلب .

ولمّا كانت جبالهم خالية من شجر السّنديان ، احتاجوا أن يتّخذوا الفحم من شجر المَحْلَب والبُطْم والحُور ، ولذلك ترى فحمهم عسر الاشتعال سريع الانطفاء ، وهذا الذي

دعاهم لعمل أقراص من الفحم للنارجيلة لا تطفى .

التربة والمراعي

وقصّابوهم لهم ولع بتقليد قصّابي حلب في عمل الكَبَاب [107]، ولكن هيهات ، فإنه كما قال أبو العلاء المعرّي :

هذه ماؤها فأين هواه . ـا ؟

فإن قلتَ : ولِمَ ذلك ، والغنم التي تُذبح في دمشق تُجلب أكثرها من حلب ؟ قلتُ : نعم تُجلب الغنم ، ولكن لا تجلب مرعاها معها ، وأنت خبير بأن طعم الشيء يتبع المرعى . فإنا نرى عسل سَرْمين يفرق في الطعم عن عسل إدلب والمسافة بينهما ساعة ، وما ذلك إلا من خواص المرعى .

ومن تأمّل في [ال]أزهار التي تُزرع في بيوت دمشق على تراب أسود كيف تكون قليلة العطرية ، [ص 33] علم السبب في الفرق بينها وبين ما يُزرع منها في حلب على [ال] تراب الأحمر المركّب من كلسات الحديد الذي هو من خصوصيات حلب ، ولذا كان جميع ما ينبت في أراضي حلب أزكى ريحاً وطعماً مما ينبت في غيرها . ولقد صدق من قال : «لله خواصٌ في امكنة والأزمنة والأشخاص» .

* * * * *

قضيّة الموزيكا

(107) أما هذه فعلى العين والرّاس .. صدق المؤلف وأوفى ، ولا يتمارينّ أحد حول هذه المسألة أبداً ، فلحلب طاعت فنون الطبخ ، وبخاصة اللحوم . أما الكباب فاختصاص حلبي محض . وحتى عندما تذوق في أحد مطاعم دمشق كباباً متميّزاً ، فما عليك إلا أن تسأل أحد الكراسين : شو الشيف عندكم منين ؟ سيقول لك بفخر : والله من حلب !

ومما يقضي بالعجب قضيّة «الموزيكا» . وملخّص المسألة هو أنه في العام الماضي سافرت من حلب إلى دمشق الموزيكا العسكرية التي رئيسها سليمان آغا القُول آغاسي ، بعد ما أقام في حلب زُهاء عشرين سنة . ويوجد في دمشق موزيكتان أخريتان .

وفي كل يوم بعد العصر تحضر واحدة منهما إلى سراية المشير وتعزف ، ويجتمع كثير من الأهالي للاستماع . ففي اليوم الذي تكون فيه نوبة الموزيكا الحلبية ترى الناس تهرع لسماعها ، وتراهم يخبرون بعضهم بقولهم : «اليوم دور الحلبيّة !» ، وفي باقي الأيام لا ازدحام

وإذا اتّفق لإحدى الموزيكتين أن قلّدت الحلبيين بلحن [ص 34] استرقته منها تسمع الناس يقولون : «شتّان ما بينهما !» . وأقسم بالله لو أن أحداً أخبرني بذلك لشككتُ في قوله ، إذ من المعوم أن الآلات الموزيكيّة العسكرية جميعها سواء ، والأنغام عندهم مربوطة بعلم النّوطة ، فمن أين حصل هذا الفرق بين الفريقين ؟ وهذا ما رأيته بعيني وسمعته بأذني .

وأرجع أقول : قد أثبت المؤرخون الحذق لأهل حلب في فن الأنغام والألحان من القديم ، والشاهد على ذلك وجود موزيكتين أهليتين ، الواحدة للإسلام والأخرى للنصارى ، فهم يعزفون بهما في الولائم والأفراح بغاية الإتقان على أصول النوطة ، وهذا مما انفردت به حلب عن غيرها من البلاد . فلعلّه يوجد في أنغامهم بعض نبرات وتراجيع مما يسمى في اصطلاح أهل الصّنعة «خرداوات» ، لا يضبطها علم النوطة ، كما عسر على الخطوط الإفرنجيّة ضبط حروف الحلق التي في اللّغة العربية .

ولّما كان سليمان آغا [ص 35] المذكور تقّن كثيراً من الأغاني العربية عن مطربي حلب ، فلا عجب إذاً فاق غيره من أهل هذه الصّنعة .

نقائض اللهجات

ومن جملة طباع الدمشقيين المفطورين عليها محبّتهم التبكيت على لهجة أهل حلب ، مع

أن لهجتهم من أقبح اللّهجات لأنها شبيهة بلهجة الجبيليّة (108) . وإذا سمعتهم يتكلّمون تخال أن فكّهم السّفلي مرتخي الأعصاب أو مختلّ تركيبه الطبيعي ، فينطقون «القاف» ألفاً ، و«الجيم» زاياً (109) مُعجمة أو جيماً كردياً ، و«الشين» سيناً (110) في بعض الأحوال ..

وقد كنتُ في مجلس منهم ، فأرادوا أن يُخجلوني ، كما هي عادتهم مع كل غريب ، فقلت لهم : قبل كل شيء ، اقرأوا لنا قوله تعالى : {والشّمسُ وضُحاها} ، ثم {قُل أعوذُ بربّ الفَلَق} .. فقرؤوهما من غير أن يغيّروا شيئاً من الحروف عن مخارجها .

فقلت لهم : يظهر لي أن جميع أهل دمشق متصنّعون يحبّون التخنّث ، لأنهم يغيّرون مخارج الحروف عمداً ، تشبّهاً بالأحداث . فهَبْ أن الغلمان أو البنات إذا قال أحدهم :

«ؤمتْ أبْل [ص 36] السَّمس ، لئيتْ أمي رايحة إلى المَرْءَصْ (111) لحئتها لئيتها مسطّحة بمشئّيت رزّال غريب .. ؤلت لها : أومي .. أبي يريدك . آلتْ : يضربْ أبوك ، خلّينا نشمّ الهَوا يُوْه ، أخيّر ما إنزل على المحكمة واطلّئو ، واشوف لي زوز غيره . ولَحشتْ لي أمَري (112)، أخدتو وزيت» ..

.. ربّما يُستعذب منهم سماع تلك الألفاظ ، ولكن من يطيق أن يسمعها من أهل الذقون مثلكم أو من عجائز النساء ؟ وما تنقمون (113) منا إلا أننا لا نغيّر مخارج الحروف في

(108) كلمة حق : لهجة حلب لا مُشاحَة في ثقلها ، أما رخاوة حنك الشوام فصواب لا نُماريه !

(109) الحرف (ژ) من الدّخيل على الأبجديّة العثمانية القديمة ، يُلفظ جيماً مرققة ، ويقابله بالفرنسية الحرف (J) ، كقولك : janvier . وفي الإنكليزية يُعبّر عنه بالحرفين ZH . والواقع أنه هكذا تُلفظ الجيم بدمشق ، وهذا ليس من العربية في شيء .

(110) لكن هذا في النادر ، كقولهم : سجرة (شجرة) ، سمس (شمس) ، سخص (شخص) .

(111) تقدّم ذكر هذا المرقص ، ولكن يعيب المؤلف أن يتحدّث بهذه الرّقاعة .

(112) القمَري عملة فضّية قديمة ، ذكرها المعلم نعّوم البخّاش الحلبي في يومياته الثمينة . انظر : الأدب الشعبي الحلبي ، للأب يوسف قوشاقجي ، ص 117 .

(113) بالأصل : وما تنقموا .

التكلّم مثلكم ، بل لغتنا على لغة القرآن !

فخرسوا عن الجواب ، وكأنهم أُلقموا حجراً ، وأخذوا بالضّحك وحوّلوا الحديث إلى غير موضوع .

تراب من على رأس من ؟

وأردتُ مرّة أن أغضب واحداً منهم غليظ الطبع ، فقلتُ له : لا يليق بكم أن تحطّطوا من قَدْر حلب ، وترابها على رؤوسكم !

فقال : بل تراب دمشق على رؤوس أهل حلب !

فقلت له : هذه دعوى كاذبة ، وأما قولي فصحيح .

فقال : وما وجه صحّة قولك ؟

فقلت : ألستم تشترون الترابة الحلبيّة (البيلون) وتغسلون بها رؤوسكم في الحمّام ، رجالاً ونساءً ؟

فحمله الحُمق على أن يقول : عليّ الطّلاء [114] عمري [ص 37] ما فكّيت عليها مصر [115]. ولعلّه كاذب [116].

* * * * *

قضايا الزواج والطلاق

ويوجد في دمشق سبعة محاكم شرعيّة ، وأغلب القضايا التي تُرى بهذه المحاكم دعاوى

(114) يريد : الطلاق .
(115) العبارة مُبهمة ، ولعله يريد : مصرية ، أي : لم أصرف عليها قرشاً ، ولا استعملتُها بحياتي أصلاً .
(116) بالأصل : كاذباً .

الطلاق ، فلا تكاد محكمة منها تخلو يومياً من أمر الطلاق . فلو رأيتَ ما يجري بين المطلّقين والمطلّقات لهالك الأمر جدّاً ، إذ لا ترى من مئة دعوى عشرين حقّة ، والباقي تزوير وبُهتان ، وشهود الزُّور لدى الباب قاعدون .

ومن جُملة ما رأيته في المحكمة السّنانية ، هو أن رجلاً كان غائباً في الحجاز ، ولّما حضر وجد زوجته متزوّجة بغيره .. فحضر إلى المحكمة وبثّ دعواه ، فأحضرها المُباشر إلى مواجهة النائب وسألها عن مُدّعى [117] زوجها ، فادّعتْ أنه طلّقها قبل سفره إلى الحجاز ، وأثبتت دعواها بشاهدين وكسبت الدعوى . فخرج الرجل يتعثّر في أذياله خجلاً ، وخرجتْ متهلّلة الوجه ، فالتفتتْ إلى زوجها ، وقالت له : «طءَ في ألْبَك .. تزوّزتْ تزوّزتْ !» [118] ..

فلعلّ أحداً يعترض علي ويقول : من أين عرفت أن الرجل كان المُحقّ والمرأة المُبطلة ، وأنت رجل [ص 38] غريب هناك ؟ أقول : حسب ما أخبرني من لهم اطّلاع على حقيقة الأمر .

* * * * *

وأعجب من ذلك أنه كثيراً ما يدّعي رجل في المحكمة على أناس خطب منهم بنتاً بكراً ، رآها بعينه وجرى العقد والنكاح ، وعند الاختلاء أدخلوه على عجوزة شَوْهاء . وهنا تكون [119] حيرة الحاكم ، لأنه نظراً لوقوع هكذا مواد يُعتقد صحتها ، ولكن معلوم أن الشريعة الغرّاء لا تُبيح للحاكم أن يحكم برأيه ، ولا يمكن للمدّعي أن يقيم شهوداً على مدّعاه . وغاية الحكم أن يطلب الحاكم من المدّعى عليهم اليمين .. (انخلي يا هلالة) .. [120]،

(117) بالأصل : مدعا .
(118) يعني : «طقّ بقلبك .. تزوّجتُ تزوّجتُ» .
(119) بالأصل : يكون .
(120) «انخلي يا هلالة» : مثل شعبي متداول ، قصّته أن بدوياً سرق كيساً من الطحين ، فلما جيء به إلى القاضي وأنكر دعوى السرقة ، طلب منه أداء اليمين ، فانفرجت أساريره وقال في نفسه : انخلي يا هلالة ! وهلالة هي

وبذلك تنختم المحاكمة . وهذا الأمر يقع كثيراً مع الغرباء الذين يجهلون حيل المحتالين ومكرهم ، الذين جعلوا ذلك مهنتهم وسبب معاشهم .

* * * * *

وربّما يزوّجون المرأة الواحدة عشر مرّات في السنة ، لأنهم لا يعرفون عدّة ولا مدّة ، وقلّما يُرى في دمشق رجل لم يتزوّج بعدّة نساء ، كما أنه لا يُرى امرأة لم تُطلّق من عدّة رجال . فإن كثيراً [ص 39] من سماسرة النساء دأبهم التحليل والتركيب ، فإن معيشتهم متوقفة على ذلك . فكلّما يرون غريباً يدورون حوله ويشوّقون له في التزوّج ، فإن كان يرغب أن يتزوّج بكراً فالمهر ألف قرش ، فإن لم يكن موجوداً معه جميع المبلغ يقولون له : يكفي أن تدفع الآن مائتي قرش ، واكتب بالباقي سنداً على نفسك ، ولك أن نُريك العروس بعينيك ، لأن الشريعة الغرّاء تُبيح ذلك ! ولكن يعلم الله كيف تنقلب العروس الجميلة بعد الرؤيا .

ونتيجة هذا الزواج تكون في الغالب خسارة الدّراهم التي دفعها من المهر ، فيقنع الغريب من الغنيمة بالإياب ، وهم يقنعون بما قبضوه تاركين السّند كرماً وسماحاً ، لأن الغرباء كثيرون ، فيزوّجونها بعد أيام قلائل لشقيّ آخر ، وهلمّ جرّا ..

* * * * *

السكّة الحديدية

ومما دلّني على خمول أفكار غالبهم ، هو أني أقمت ثلاثة أشهر في مدينتهم و لم أسمع من أحد منهم ذكر قضيّة السّكة الحديدية ، التي رخّصت الدولة العليّة لشركة فرنساوية [ص 40] بمدّها من دمشق إلى حلب إلى براجيك ، مع أن ذلك من الأمور المهمّة ، تجارة وسياسة ، التي

زوجته ، أي صار بوسعها الآن أن تنخل الطحين مطمئنة البال ، فالأمر يسير إذ توقف على حلف اليمين .

تهمّ كل محبّ لوطنه راغب في عمرانه . ولو سألتَ أحداً منهم عن ذلك لاستغرب منك هذا السؤال . حتى أن السّكة التي مُدّت من دمشق إلى حوران تمرّ على طول المدينة بجانب جدرانها ، فلا ترى أحداً منهم يهتم لرؤيتها غير الذين بيوتهم بجانب السّكة ينظرون إليها بدون قصد .

تعصّب الدمشقيين ضد حلب

ومن جملة جهل عوامهم قولهم إن سيّدنا يحيى أفضل من سيّدنا زكريّا ، عليهما السلام ، ويعلّلون عن السبب بأن الأول نبيّ ابن نبيّ ، وليس كذلك الثاني . فقلتُ لهم : يا جُهّال .. يلزم من ذلك أن يكون أفضل من سيّدنا محمد صلّى الله عليه وسلّم أيضاً ، والعياذ بالله من الجهل .

ولم يقل هذا مسلم ، ولا يحملهم على هذا الغُلُوّ إلا رغبتهم في سلب المزيّة عن حلب لؤماً وحسداً ، إذ الشائع عندهم أن أسلاف أهالي حلب اشتروا أسلافهم من التّمرلنك [ص 41] لّما مرّ بهم من حلب ، بزوج نعل وأطلقوهم [121]. وهم للآن باقين أرقّاء لأهل حلب . فهذا سبب بُغضهم للحلبي .

طُرفة نادرة

وقد سمعتُ أحدهم يتبجّح وينكّت على أسياده الموهومين ، فأردتُ أن أغيظه فقلتُ له

(121) يا للصفاقة والرّقاعة وتمادي البُهتان .. هيك تخّنتها كتير شيخي ! فالواقع أن أهل دمشق وأهل حلب يستوون في الوقوع بسبي المغول ، وما فعله هؤلاء في كل من حلب ودمشق شيء مهول تقشعرّ منه الأبدان . راجع ما كتبه ابن تغري البردي الأتابكي في كتابه «النجوم الزاهرة» ، نقلاً عن أبيه الذي كان شاهد عيان للفظائع التي اقترفها المغول بحلب . وقد ضمّنّا بعض ذلك في بحثنا (ثلاثة فصول تاريخية من جهاد حلب في القرون الوسطى) ، ضمن كتابنا «دفاتر حلبية عتيقة» ، الذي ينتظر حظه للخروج إلى النور .

اتّفق أن أحد التجّار الدمشقيين أتى إلى حلب ونزل ضيفاً على معامله الحلبي ، فبعد أن أقام عنده عدّة أيام توعّك مزاجه واختلّت صحّته . فأحضر له مضيفه طبيباً ، فأخذ يداويه عدّة أيام فام تنجع به الأدوية والعلاجات . فصرف هذا الطبيب وأحضر له طبيباً من الأطباء الماهرين ، فأخذ الطبيب يسأل [122] المريض عن سبب مرضه وعن أكله وعن شربه وعن جميع ما يقتضي السؤال عنه ، ثم قال لصاحب البيت :

أرسل أحداً من عندك بهذه الورقة إلى دكّاني فيحضر قنّينة بها ماء ، فيكون شرب المريض منه دائماً ، ولا يشرب ماءً قُراحاً أبداً .

فامتثل للأمر ، وصار المريض يتعاطى الدواء مدّة يومين فتحسّنت أحواله نوعاً ما ، ثم حضر الطبيب فرأى المريض [ص 42] يتقدّم إلى الصحّة فاستأنف الدواء .

وبعد يومين حضر الطبيب ، فرأى المريض نَقِهَ من مرضه تماماً ، فقال له : لازم الشّرب من هذا الماء ما دُمتَ موجوداً بهذا البلد !

ثم سأل صاحب البيت من الطبيب عن مرض ضيفه ، وما كان سببه . فأجابه : إن ضيفك هذا دمشقي ، وهو متعوّد على شرب ماء الزّبل في بلده ، ولمّا فقده مرض كما ترى . فالدواء الذي أرسلته له لم يكن سوى ماء منقوع فيه زبل مغيّر لونه بشيء من العقاقير ، فكان له الدواء الشافي [123].

فسأله : وهل ماء حلب الصافي الطاهر لم يوافقه ؟ فأجابه : بل هو الذي أضرّه ، كما يضرّ ريح الورد بالجُعل !

فلمّا سمع مني [الدمشقي] هذا الكلام ، انتفخ من الغضب وأسرع في الهرب .

أولاد البابا حسن

---

(122) بالأصل : يسئل .

(123) من الواضح أن هذا الطبيب - إن كانت القصة حقيقية - قد تعاطى الطبّ في المسلخ ، أو كان ينبغي سحب إجازة الطبّ منه وتحويله للبيطرة ، أجدى وأجدر .

ويوجد في دمشق عدد وافر من الأولاد الذين يسمّونهم هناك «أولاد بابا حَسَن»[124]، ومن نظر في أحوال هؤلاء الأولاد وما هم عليه من فساد الأخلاق وقبح الصورة وقذارة الثياب ، [ص 43] ونومهم في اللّيل في الشوارع والطرقات متوسّدين الكلاب ، وكلامهم البذيء الذي تنبو عنه الأسماع ، يتضح له ويعرف كيف يكون تصرّفهم إذا صاروا من جملة رجال دمشق في المستقبل ، ويفهم أخلاق أسلافهم وآدابهم . فكأن هذا الداء قديم في دمشق ملازم لها .

ويظهر ذلك جليّاً من كلام ابن المنير الطرابلسي ، في قصيدته التتريّة المشهورة ، التي يقول من جملة أبياتها :

وسكنتُ	جلّقَ	واقتديتُ	بهم	وإن كانوا	بَقَرْ
وأقولُ	مثل	مقالهمْ	بالفاشريّا	قد	فَشَرْ
مصطيجتي		مكسورةٌ	وفطيرتي	فيها	قصرْ
نفرٌ	ترى	برئيسهم	طيشَ	الظليم إذا	نَفَرْ
وخفيفُهم		مُستثقلٌ	وصوابُ	قولهُمُ	هَذَرْ
وطباعهُم		كجبالهم	جُبلتْ	وقُدَّتْ من	حَجَرْ

هزل الدمشقيين [125]

[ص 45] وأغلب أهل دمشق ميّالون بالطبع إلى كثرة المزاح والهزل والتهريج ، حتى إذا وُجد شخص في حلب بهذه الأوصاف يُقال عنه «مُدَمْشَق» ، أي متخلّق بأخلاق أهل

---

(124) التعبير من بقايا مخازي يزيد ورهطه ، الممعنة في البذاءة والافتراء على آل البيت . يُراد به الغمز من قناة سيدنا الحسن بن عليّ ، رضي الله عنهما ، لكن العظيم يبقى عظيماً .
(125) قبل هذه الفقرة قطعة مقدار صحيفة وثلاثة سطور . ضربنا عنها صفحاً لعدم مناسبتها .

دمشق ، كما يقال للعزيمة الكاذبة «عزيمة شاميّة» [126].

ولعامّتهم ولع زائد في تقليد أغنيائهم في ملابسهم ، ولو كان ما يلبسه عارية أو مستأجراً بالكرى [127] من السوق .

كلمة حق

ثم نقول : إنّا كتبنا ما كتبناه عن دمشق وشوائبها ، يشهد الله ورسله وملائكته ، ونحن نتأسّف عليها وعلى أهلها ، وكان بودّنا أنّا نراهم ومدينتهم أحسن مما ترجمنا عنهم ، لأنها مدينة إسلامية على كل حال وأقدم مدينة في العالم ، وهي مركز الخلافة الأموية ومصدر المحمل الشريف وعتبة الكعبة المنوّرة ، وأهلها جيراننا ويجمعنا [ص 46] وحدة الجنسيّة واللّغة والتّبعيّة .

فلا يسرّنا أننا نراها معكوسة الأحوال ، متلبّسة بأوصاف لا تليق بمدينة إسلاميّة مثلها ، مثل قهوة الدّفتردار بها [128]، وقعود النساء هناك مقابلات جمهور الشبّان حال كونهم في حالة الشّرب والعربدة . وكذلك المرجة والصُّوفانيّة [129]، وما أشبه ذلك .

بعض محاسن دمشق

ولا بدّ أن نذكر محاسنها كما يقتضي الإنصاف ، فنقول :

يوجد في دمشق حمّامات من الطراز الأول ، ومنتزهات ورياض يندر وجودها في غيرها

(126) أما عندنا بالشام فالتندُّر على «العزيمة الصالحانية» .
(127) بالكراء : بالأجرة .
(128) كانت هذه القهوة في أواخر القرن التاسع عشر توجد - حسب ما هو واضح - في الحديقة المعروفة بجنينة الدّفتردار ، بشرقي حديقة المنشيّة ، فاخترقتها في عصرنا نزلة التجهيز . وكانت تقع قبالة بناء مكتب الحقوق (وزارة السياحة حالياً) .
(129) الصّوفانية من متنزهات دمشق الشهيرة بظاهر باب توما .

من مدن سوريا ، مثل الهامة وأنهارها المتدفّقة ، والرّبوة وأشجارها المورقة ، والصالحية المقدّسة وهوائها ، ودُمَّر البهيجة وعذوبة مائها ، والمرجة الفيحاء وكواكبها السيّارة ، وسكّة الحديد ومراكبها الطيّارة ، وباب توما وقهواته ، ومركز طريق الشّوصة وعجلاته .

وأعظم وأشرف الجميع جامع الأموي وأنواره ، ومرقد سيّدنا يحيى عليه السّلام ومهبط أسراره .

حريق الجامع الأموي

واحسرتاه .. [ص 47] ثاني يوم خروجنا من دمشق ، ظهر الحريق في جامع الأموي قضاءً . وفي مدّة ساعتين عادتْ تلك البناية القديمة العظيمة الضخمة التي كانت تفتخر بها أهالي دمشق على جميع مدن آسيا أثراً بعد عين ، ولا حول ولا قوّة إلا بالله [130].

عَودٌ على متنزهات دمشق

ولكن يسوؤنا أننا نقول إن أكثر هذه المنتزهات ليس لأهل الناموس فيها من نصيب ، لأنه يُرى بها ما لا يحسن ذكره أو ما لا يوافق فكره . فنسأل العظيم بجاه نبيّه الكريم أن يقيّض لدمشق جماعة مثل الشيخ سعيد أفندي الغبرة ، فيصلحوا أحوالها وينفوا منها ما يشينها ، آمين

---

(130) في ضحوة يوم السبت 4 ربيع الثاني سنة 1311 هـ (الموافق 15 تشرين الأول 1893 م) ، شبّت النار في الجامع الأموي ، وسببها كان من عامل كان يقوم بترميم سقف المشهد الغربي ، أعدّ جمراً لأركيلته المشؤومة ووضعه على رصاص السقف ، فذاب واحترق ما تحته . وسرعان ما شبّت النار في أبواب الجامع وسدّاته وأركانه ، وأتت على بيت الخطابة فأحرقت ما به من المآثر ، حتى شملت المصحف العثماني الكبير الذي كان أتي به من بُصرى . وفي خلال بضعة ساعات كانت أجزاء كاملة من هذا الأثر العظيم قد تحوّلت إلى رُكام ؛ فتنادى أهل الشام إلى إصلاحه ، وبذلوا الجهود والأموال الجزيلة ، حتى تم إصلاح جناحه الشرقي في عام 1317 هـ ، والغربي في عام 1320 هـ . وقيل بلغ مجموع ما أنفق على ترميم الجامع 60 ألف ليرة ذهبية .

تفضيل المتنزهات الحلبية
على الدمشقية

ثم نقول : إن جميع متنزهات دمشق مقيّدة لا مطلقة ، سوى حارة الصالحية [131]، ومعنى المقيّدة أنه لا يمكنك أن تمدّ بصرك بها مئة ذراع حتى تصدّه الأشجار المحتبكة ، ومعلوم أنه كلّما امتد النظر ينشرح الناظر ، لا سيّما إذا تنوّعت المناظر . فلو قابلنا بين منتزهات دمشق ومنتزهات حلب ، التي منها جبل الجَوْشَن ومصاطب العشّاق وجبل النهر وجبل [ص 48] الشيخ فارس وجبّ الغزالات والأنصاري والشيخ مقصود وغيرهم ، لفضّلت الثانية على الأولى .

تصوّر ، هداك الله ، أنك جالس على ذروة جبل الجوشن مثلاً والأوان ربيع ، مُطلقاً عنان بصرك ، حيث يمتد مسافة خمسة أميال على الأقل من كل جهة ، على بساتين وسهول وجبال وقرى ومروج على ضفّتي النهر ، وأراضٍ كأنه فُرش عليها قماش أحمر [132]، مع منظر جميع المدينة وبهجتها ، مستنشقاً النسيم الذي كأنه منبعث من الجنان ، كيف يحصل لك الأُنس والسّرور والانشراح . وهناك اعمل موازنة بين المدينتين بالحقّ .

وأعظم من جميع ما ذُكر ، صعودك برج القلعة الشهباء ذات الجناحين ، فيخال لك أنك تطوف بأكناف السّحاب المخيّم ، بخلاف قلعة دمشق التي هي عبارة عن خان من خانات حلب ، فإنك لا ترى بها غير رؤوس جدرانها ورقعة السماء التي تخيّمها ، لأن موقعها أوطا من

---

(131) لم يكن حي المهاجرين قد بُدئ بعمارته آنذاك ، بل عام 1900 ، بعد 7 أعوام من زيارته ، وآخر الحدّ الغربي لضاحية الصالحية كان الفواخير ، وخلفه بساتين النّيرب أولها بهران .

(132) بالأصل : قماشاً أحمراً . فاتت مؤلفنا قواعد المبني للمجهول والممنوع من الصّرف .

بقيّة المدينة . ثم لو وضعتها مع قِشَل دمشق الخمس [ص 49] ضمن قِشلة [133] حلب (الشيخ يبرق) لوسعتهم ، فضلاً عن إتقان بنائها الذي هو من حجر وحديد ، وكسافة بناء أولئك الذي هو من الطوب والقرميد .

التجارة والصناعة

وأما من خصوص التجارة بين المدينتين ، فدمشق ترسل إلى حلب القمردّين وصايات جتارة وشيئاً من المدرّبيّات [134] والكمار ، وحلب ترسل إلى دمشق الخيل والغنم والسّمن والفستق والقطن والزيت والصابون والقصب وأواني النحاس والأغباني والبيلون والسّمك .

وأما من خصوص المصنوعات ، فإن دمشق تفوق حلب بشغل الجتارة والمدربيّات ، والحفر في النحاس والتدهين وترصيع الخشب بالصّدف ، وأدوات الحديد والفولاذ والجلود . وحلب تفوق دمشق بسحب شريط القصب والصياغة وشغل المسيغ وشغل الأغباني وشغل النحاس من جميع الأواني ، وصنعة البناء وطبخ الصابون واستخراج الزيت ، وشغل المراكيب وعمل القندرات وعمل الحلويات من جميع أنواعها ، وأشياء أُخر لا تستحق الذكر ، مثل المكانس والمنافخ وشربات الماء .

* * * * *

سبب شهرة دمشق

[ص 50] فإن قيل : إذا كانت دمشق كما وصفتَ ، فما سبب شهرتها في جميع الدنيا من القديم ؟

أقول : شهرتها فباعتبار الإقليم الشامي ، وحدّه من عريش مصر إلى الفُرات ، فإنه

---

(133) سبق أن ذكرنا أن القشلة كلمة تركية : kisla ، ومعناها : الثكنة العسكرية

(134) المدربيات : يعني مضرّبات الخزّ المطرّزة .

عُشّ الأنبياء كما هو مذكور في الكتب السماوية ، أعني التوراة والزّبور والإنجيل والفُرقان . ولأن أصحاب هذه الكتب انتشروا في جميع أقطار الأرض ، فبمداومة تلاوتها يتردّد ذكرها دائماً بينهم ، فلا عجب إذا شاعت شهرتها من هذا الخصوص .

وأما شهرة المدينة وحدها ، فكونها تشتمل على أمر ديني ، وبيان ذلك أن هذه المدينة واقعة برزخاً بين العمران ومفاوز الحجاز ، وكونها مركزاً للمحمل الشّريف ، ومنها تبتدىء مسيرة سير الحج ، ومنها يتعيّن وزير وقاضٍ وطبيب وعسكر لمحافظة الرّكب ، ومنها يخرج رَكب الجردة إعانةً لرَكب الحج في رجوعه . فمن أجل جميع ذلك يكثر تردّد ذكرها في جميع العالم الإسلامي ، كأن يقولوا : «في آخر شهر شوّال يخرج الحج [ص 51] من مدينة دمشق ، قاصداً الأراضي المقدّسة الحجازيّة» .. «وفي أواخر شهر محرّم الحرام يدخل الرَّكب إلى مدينة دمشق ، مقبلاً من الأراضي الحجازيّة» .. «وفي يوم كذا يخرج أمين الصرّة من دمشق قاصداً دار الخلافة العليّة» .. وما أشبه ذلك من الكلام المتعلّق بالحجّ .

وهذا الكلام يجري في جميع أشهر الحجّ ، حتى إذا رجع الحاج إلى بلاده وأراد أن يحكي لأهله عن سفرته ، فيبتديها من دمشق ، لأنه لم يجد صعوبة السّفر إلا من بعدها .

ومما يكسبها شهرة أيضاً ، كونها مركزاً لمعسكر الأوردى [135] الخامس السلطاني ، ويتبعها في نظام العسكرية أربع ولايات ، أعني حلب وآدنه وبيروت والقدس والدير . فمنها تُرسل الأوامر المختصّة بالعسكرية إلى هذه الولايات ، فترى الناس في تلك البلاد لَهجين بذكر دمشق ، فيقولون مثلاً : «أتت الأوامر من المشير في دمشق بأن تؤخذ القُرعة أو بجمع الرّديف أو تحوي الطابور الفلاني إلى فلان بلد ، أو بإطلاق سبيل الأنفار الذين أكملوا مدّة [ص 52] خدمتهم العسكريّة» ، إلى غير ذلك من الأمور التي يقتضي أن تُذكر بها دمشق كثيراً .

ولا يخفى ما تعطيه جميع هذه الأحوال من الشّهرة ، فلو كانت إدلب حائزة هذه الصّفات المارّ ذكرها ، لاكتسبت تلك الشّهرة على قلّة مائها . وأنتَ ترى أن مدينة القُدس أكثر شهرة في جميع الدنيا من مدينة دمشق مع قلّة مائها ، والله أعلم .

(135) ذكرنا مسبقاً أن الكلمة تركية : ordu ، وتعني : الجيش .

وأرجو ممّن نظر في هذه المقولة أن يغضّ الطّرْف عمّا وقع فيها من الخطأ ، ويسمح لي عن اللّحَن والرّكاكة ، إذ لا قُدرة لي أن أنمّق الكلام مُعرّباً ومحسّناً بأنواع البديع والبلاغة ، والُمنصف من يقبل العُذر ويغفر الزلاّت .

وصلّى الله على من لا ينطق عن الهوى ، وآله وصحبه وأهل بيته ، وسلّم تسليماً كثيراً ، آمين .

تمّ . . . ـت في 15 ر سنة 1311

تمّت على يد كاتب . . .
الحاج خُرشد
المسائل

من مذكرات جدّة أمي

فاطمة بنت محمد سعيد آغا البديوي

1869 - 1958 م

صور من الحياة الاجتماعية بدمشق

في أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين

بقلم حفيدها الدكتور عدنان آق بيق

كتب خالي عدنان :

قمتُ بتدوين هذه المذكرات على لسان جدتي فاطمة ، عام 1953 ، وكان عمرها آنذاك 84 عاماً ، وبالرغم من سنّها فكانت تبدو عليها علائم الصحّة والنشاط .. كانت تقضي نهارها قابعة في سريرها ، وقد رفعت الغطاء حتى وجهها ولفّت الشال على كتفيها وعصبت جبينها بالقَمْطَة وانكبّت على أشغال الصوف التي تحبّها .. وكانت سليمة الحواس ، تُدخل الخيط في ثقب الإبرة .. بيضاء البشرة قصيرة القامة ضاحكة الوجه ، لا تنقطع عن أداء فروضها الدينية في أوقاتها المحدّدة .

كانت جدّتي تشعر بلذّة فائقة في الحديث عن ذكرياتها ، وخاصة حين تجد من يستمع إليها ؛ أما أنا فكنت ممن يُجيد الاستماع ، فكانت طالما تحدّثني عن طفولتها وصباها ، ولكنها أيضاً كانت سرعان ما تنسى ما روته لي ، فتعود لتحدثني عنه ذاته بعد ساعة أو أقل . وذاكرتها كانت بالنسبة لأحداث الماضي قوية ، فتراها تتذكر كل التفاصيل ، ولكنها تنسى ما جرى لها اليوم والأمس .

وخلال إحدى زياراتي القليلة لدمشق عام 1953 ، سنحتْ في خاطري فكرة تسجيل ما كانت جدتي ترويه على مسامعي ، ولم ألبث أن شرعتُ بهذه الفكرة على الفور ، فرأيتني أجلس بجانبها والقلم والورق أمامي ، ومضت تنطلق في أحاديثها وأنا أسجل . ولما كانت تصمت في بعض الأحايين كنتُ أذكّرها فأسألها عن هذه الحادثة أو تلك ، فتعود لتروي وتروي ..

امتلأت أمامي صفحات وصفحات ، وجاء اليوم الذي شعرتُ فيه بأن جدّتي قد ألقت على مسامعي مُجمل سيرة حياتها ، وإن كان ذلك بوجه الإيجاز لا الإطناب . فها أنا ذا اليوم أحرّرُه كما سمعته ، دونما تهذيب أو تشذيب ، حرفاً بعد حرف وبنفس لهجتها العامية الشاميّة . وإنما رتّبتُ حكاياها بشيء من التسلسل التاريخي قدر الإمكان .

وآن أوان السفر من جديد ، فتركتُ هذه المذكرات لتبقى بين أفراد أسرتي صدىً باقياً

من أنفاس جدتنا المحبوبة ، ولتذكّر أبناءنا وأحفادنا بعبر مفيدة وصور طريفة من ماضي أسرتهم ومدينتهم الحبيبة دمشق .

وأخيراً ، فها هي فيما يلي قصة حياة جدّتي كما روتها لي .

* * * * *

قلتُ :

وها أنا ذا اليوم ، في عام 1998 ، وقعت بيدي هذه المذكرات الطريفة والقيّمة ، بعد 45 عاماً من تدوينها وبعد 40 عاماً من غياب صاحبتها عن مسرح الحياة ، فقرأتُ ما فيها ، ووجدتني في الواقع لا أعرف عن جدة أمي فاطمة البديوي أي شيء ، فأنا مع الأسف لم أدركها أصلاً ، فقد أبصرتُ النور بعد وفاتها بأربع سنين .

وكم شاقتني هذه المذكرات ، وشعرتُ بأنفاس صاحبتها وكأنها ترويها علي بنفسها وتنفعل بأحاسيسها وعواطفها ، طفلة ويافعة ثم صبية فكهلة وعجوزاً مسنّة . وكم أمتعتني حكايات وأضحكتني أخرى ، ثم كم اخترق الحزن قلبي ومزقه بسكين حادّة جارحة عندما مرت بي تلك الفصول المؤلمة عن وفاة أطفالها الثلاثة محمود وزهرة وجيهان . وبخاصة جيهان الحلوة التي كانت في ربيعها الثالث كالياسمين ، والتي راحت الأم تتذكر بلوعة لثغتها المحببة بكلماتها الرقيقة الطاهرة ، ثم انتزعها الموت بقسوة ، وهي لا تزال ممسكة بحبات الملبّس الدمشقي الأبيض ، فانطلقت روحها الصغيرة الطاهرة تزقزق فوق أسطحة الشام وذُرى قاسيون وبساتين الغوطة .

جيهان .. لك كل الرحمة أيتها الملاك الطاهر .

لم تتمالك نفسي البكاء المرّ مرة واثنتين وثلاثاً عندما قرأتُ هذه الحادثة المؤلمة التي لم أكن حتى دارياً بها ، ثم لم تقوَ عيناي عند كتابة هذه السطور على احتجاز الدمع من جديد ، فعجز القلم عن التعبير وحلّت محلّه العبرات الحارّة . هل هناك أبلغ من هذا النص المباشر الحادّ

الباتر بكل ما فيه من لوعة وألم ؟..

كم تمنّيتُ أن أحظى ولو بصورة قديمة باهتة لهذه الفقيدة الصغيرة ، أو على الأقل لو أعثر لها في تربة الباب الصغير على قبر أذرف أمامه دموعي على جيهان عمّة أمي ، تلك الطفلة البريئة التي اختطفها الموت قبل الأوان ..

تابعتُ القراءة ، وأنا أكتشف فصولاً تعبق بأنفاس صاحبتها التي بتُّ أشعر الآن حقاً بدمها يسري في عروقي ، ولمستُ بأن هذه الحروف لم تُكتب بالحبر بقدر ما كُتبت بلواعج صاحبتها وأحاسيسها العفوية الصادقة . وفيها اكتشفتُ فصولاً مهمّة من التاريخ الشعبي لشامنا الخالدة ، جدّة كل جدّة وأمّ كل أم .

* * * * *

كم أشعر الساعة بمسؤولية نقل هذه المذكرات إلى جمهور القراء المهتمين بتاريخ دمشق وتراثها الشعبي ، فهي في الحقيقة لم تعد مذكرات شخصية تتعلق بفاطمة البديوي فحسب ، بل هي أصداء حيّة من ماضي مدينتنا الحبيبة في أواخر القرن الماضي وأوائل الحاضر ، عاشتها كل جدّة وكل أم وزوجة وأخت وابنة من بنات دمشق .

لكنني أطلب من القارئ الكريم أن يعفو عن بعض الكُليمات التي قد يرى فيها بعض النبوّ ، وذلك أني آثرت ترك هذه النصوص القديمة على عاميّتها وعفويتها ، لم أعمد إلى تشذيبها أو تهذيبها ، بالضبط كما فعل خالي من قبلي . فما قيمة الأدب الشعبي إن نحن أعملنا فيه يد التغيير والتحوير والتهذيب ؟ إن قيمة الماضي لهي بنكهته الحقيقية وعراقته العفوية غير المتكلّفة ..

وختاماً ، فها هي ذي كلمات جدّة أمي أنقلُها كما وردت على لسانها ، وبقلم حفيدها عدنان .

أما العناوين فهي من عندي ، أضفتُها لتكون القراءة أسلس وأمتع .

وكذلك أشير إلى أنني قد عملت غاية جهدي للتحقّق من جميع الأحداث التاريخية الواردة في هذه المذكرات ، وكذلك سنوات وقوعها . وجهدت بالعثور على تواريخ المواليد والوفيات والزيجات للشخصيات الرئيسة الواردة فيها ، كيما يكون لها قيمة الوثيقة التاريخية المؤصّلة ، وربطاً للحدث بالمكان والزّمان ، والصورة إن أمكن .

وهذا في النهاية يمسي ما يمكن أن نُطلق عليه تاريخاً بمعنى الكلمة .

* * * * *

صاحبة المذكرات : فاطمة بنت محمد سعيد البديوي

1869 - 1958 م

كاتب المذكّرات ، حفيد صاحبة المذكرات

الدكتور عدنان ابن القاضي محمد آق بيق

أحمد آغا آق بيق ، زوج فاطمة البديوي

1866 - 1929 م

القاضي محمد بن أحمد آغا آق بيق

ابن فاطمة البديوي صاحبة المذكرات

1904 - 1976 م

«فنجان قهوتك عليّ»

كان جدّي آغا حارة ، بيطلع بإيده كل شي .. وكان في واحدة إسمها أم سعيد ، وإجت أم سعيد قالت له : «دخلك يا آغا .. سعيد بدّهم ياخدوه عالعسكرية .. بدّك تنفّد لي ياه ، وفنجان قهوتك عليّ !» . وتاني يوم ، إجت حوّا خانم ، قامت أمي قالت لها : «خدي يا حوّا خانم هالصرّة وعطيها لعمّي ، وقولي له هادا فنجان قهوتك !» ..

قامت حوّا خانم نطرت لحتى إجا ، فزّت لعنده وحاطّة شويّة بنّ بالصرّة ، وقالت له : «والله يا آغا ، والله مستحيّة ومخجولة .. تفضّل هدول !» .

قام فَرَدْهُم ، ويلاقي لك ياهن شويّة بنّ ، وحسّبها أم سعيد .. قام ركب فوقها ونزل فيها ضرب فين يوجعك ، وكان قايم من النوم مشمّر ومكشّف ، ويقول لها : «يا صفتكِ يا نعتك .. إيه أنا عاوز فنجان قهوتكِ ؟» . وكان هو مستنّي أم سعيد بالدقيقة .

وقامت أمي طار عقلها وتقول له : «دخلك يا آغا .. عمّي هي حوّا خانم مو أم سعيد !» .

بعدين جدي أبو أمي كان يسحب صلوات بالأموي ، قام ضرب المدفع ، قال : «الله .. ما عدت ألحق أشرب !» . قامت طخّت [136] فيه المادنة لصحن الجامع لحتى شرب . يبقوا بيت السّقّا أمبني كتير صالحين .

* * * * *

سوق مدحت باشا مأوى للكلاب !

وعمّي صالح [137] كان بدّو يشتري سوق مدحت باشا عالصفّين ، قامت أخته قالت له : «شو بدّك فيه ؟ هادا لسّه بيصير مأوى للكلاب» . قام سمع كلامها وما اشتراه . ولّما مات ، كل ولد مدري كم ألف ليرة دهب طلع له ، وراحوا ديّنوهم لبيت عمر باشا [138]، أكلوهم عليهم .

عرس أمّي

أمي ليلة عرسها ، كان أبو خالد البديوي - الله يرحمه - كهْنه وإختيار ، بقا باعت معه أبي أغراض للعرس ، قالوا : «إجا العريس .. إجا العريس ..» . شقّت أمي عيونها قامت لمحته وحَسَّبته العريس ، قامت غمّضت عيونها وما عادت ترضى تفتحهم . وبعدين لمّا فات أبي

---

(136) طخّى : تعبير عامّي دمشقي ، يعني أقعى وانخفض . أما أن «تطخّي» المئذنة ليشرب مَنْ عليها ، فهذه «تخينة» زيادة ، ولعله كان رأى ذلك في منامه !

(137) أي والد زوجها ، صالح آغا آق بيق ، أبو أحمد . والكنّة بالشام تنادي حماها «عمّي» ، وحماتها «مَرْت عمّي» ، أما الجيل الجديد اليوم فيؤثر على ذلك : عمّو وخالة .

(138) كنا لنتحاشى عن ذكر الأسماء ، غير أن ما بأيدينا هنا وثيقة تاريخية ، تعهّدنا ألا نحذف منها شيئاً ولا نحرّف فيها قيد أنملة .

وقعد هو ويّاها يحاكيها ما تردّ ، يقول لها : «افتحي عيونك» ، ما تردّ . قام ينادي لأمها ، قامت شقّت عيونها ولقته غير هداك ، وأبي يبقى حلو كتير ، ركدت وراه وجرّته وما خلّته يطلع .

بدلة عرس أمي كانت كلها قصب صَرْمَة (139) عروق عروق ، قعدت أمي وعمتي قصقصوها وعملوا لي ياها بدلات صغار على قدّي .. تنين صغار ما في حدا ينبّههم ويعلّمهم .. يبقوا يدقّوا اللحمة ، وقال هلّي ما تنعم يدعبلوها ويعطوها للقطاط .

الله يجيرنا من العين الصيّابة

لّما كانت أمي حبلى فيّ ، كان في واحدة اسمها شرّوف ، بس يا لطيف بيقولوا عنها عينها صيّابة وبتخرق   مرقت عليهم وكانت حبلة وراحت   وبعد منها مرقت بعد يوم مدري عشيّة ، وقالت لها : «قومي اولدي ، لإيمتا حاملة هالبطن وقاعدة ؟» . قالوا لها : ولدتْ . قالت : «منين ولدتْ ؟ امبارح ما كانت ولدانة !» .

قامت اتعسّرتْ وضعفتْ على أثر الولادة ، وبعدين الحكما قالوا لهم : «بدّكم ياها ولاّ بدّكم الولاد ؟» ، قالوا لهم : «لأ ، بدّنا ياها» . ومن بعدها ما عادت جابت اولاد (140).

لّما حَمَّرت

والله الحمد الله ، ماضي عليّ أيام .. مرة حمّرت وأمي لسّاها صغيرة وما بتفهم

(139) الصَّرْما كلمة تركية sarma مشتقة من فعل sarmak ، أي يلفّ ، يغلّف . تُطلق على الجوخ الثمين المطرّز بخيوط ذهبية أو فضية . وكان هذا النوع من التطريز يستخدم لعمل كسوة الكعبة الشريفة ، أو لمعاطف كبار الضباط والحكّام ، أو لأثواب العرس للنساء .

(140) من الواضح أنهم أجروا لها عملية استئصال للرّحم ، بسبب وجود تليّف أو التهاب ما .

بالاولاد ، وعمتي الله يرحمها كمان ما عرفوا يداووني . عشّشت الحميرة بعيوني وصارت تسيل .. ما خلّوا كحّال .. في واحدة يهودية بطالع الفضّة ، أخدت أربع ليرات دهب وما استفدت شي .. تاري هالسّيل معشّش .. وقتها أنا ورضا بلك العابد .

هيك لحتى بالأخير تبقى أم عارف الله يرحمها ساكنة بالسّاحة والقاعة ، وبيت أهلها بيت رمضان مشهورين للعيون ، أخدوني لعندهم ، يا ويلي الله لا يدوّقها لحدا .. يا لطيف .. قعدوا أبو عارف ومن عندها رجال ، كل واحد متل اللاّطة واحد على رجلّي وواحد على إيديّي ، وفتحوا عيني يجأروها ويسحبوا العرق بهالسنّارة ويقرطوا من سفله بالمقص قرط قرط .. سبعتعشر عرق حطّوهم عالورقة ، ويجيبوا بعدين هالملح وهالليمون وبيقطروا . وبعدين بيعطوه بالأخير للواحد إبرة ويحطّوه بعين الشمس وبيقولوا له : الضُمْهَا .

وكان في خَسْتَخَانه على طريق الصالحية وفيها وردشان [141]، وكانوا مشقّيت بيتنا بيت الإمام ، وابن الإمام شغلته بالخستخانه ، ياخدني لعنده يقلب لي هالجفن ويحك لي بالحجرة الزرقا ، ويسحبني متل العميا عالبحرة وأسفح أسفح على عيوني وأرجع .

وكان في حُكَما : نسيم اليهودي ، وواحد يهودي بالقساطلية ، وأبو صالح شورى بسوق القطن مواجه الخضيرية ، وراغب أفندي [شورى] طلع إجَزي [142].

وهادا يلّي بالقساطلية ، يَعْلَى آمته ، أخدوني لعنده وشارطوه على أربع ليرات .. قلب لي هالجفن وساوى لي عين ، ووقّف يقول لهم : «ما بساوي التانيه لتعطوني كمالة الأربع ليرات» .. وتفور أمي ، لراحت تديّنت من بيت شهيم وعطوه .

وبعدين سرقوني من أبي وأخدوني لبيت رمضان ، وفي إلنا قرايبين بيت فارس آغا ومانعينّي عن الميّ بعد ما قصّوا لي السّيل .. وكان في بالأوضة هلّي حطّوني فيها شربة ،

---

(141) وردشان اسم معروف لأهل دمشق في مطلع القرن العشرين ، وهو طبيب نمساوي كان مقيماً بدمشق في أواخر العهد العثماني . أما الخستخانة فكانت عند بوّابة الصالحية .

(142) إجَزي (أو إزَزي) : صيدلاني بلهجة الشام القديمة ، مصدرها من التركية : ecza أدوية .

الكامخت عليها هالسِّمك ، خلّيهم ليطلعوا وأمسك هالشربة وأكرع أكرع لأشبع ، ورجّعها ونام .

حطّوا لي درانيم على نقرتي ، ما أقدر أتحرك لا هيك ولا هيك ، وبعدين قلعوه وقشطوه بالموس هو واللّحم ، وحطّوا لي ورق هالسِّلق ، ويبقوا ينقعوا قمع رمّانه حلوة وقمع رمّانه حامضة بنجاسة ولد صغير ويكحّلوا فيها العين ، لأن بيقولوا : «بتجي على نجاسة ، وما بتروح إلا على نجاسة» .. والله قضّيت كتير ، بيقولوا : «يا ندري من بعد الجدري ، ويا عيون من بعد الحميرة» ..

يبقى يركّبني حسين على هالفرس ، ويسوق فيّ وياخدني على حارة اليهود ويكحّل لي عيوني ، ويتلفّت عليّ ويقول لي : «أنا ابن ناس ، أنا ابن نِعَم» ، ينخُر قلبي [143] .

أمّي وستّي وأم ستّي

أمي [144] أوقات تنهرّ ، تروح لبيت أهلها .. أبي شو بدّه يحاكرها ، يروح يركّبني على كتفه وياخدني .. ويبقى البوابات كل شويّه وشويّه بوابة ، يدقّ هالبوابه ويفتحوا له يصل للبوابة التانيه ، ينده : «يا حارس» ، يفتحوا له حتى يصل عالبيت .. تاني يوم ستّي تقول لها : «خطيّه يا بنتي ، هالبنت يداوروها» ، حتى ترجع ويتصالحوا ..

ستّي ما كان في منها ، بنت محمد آغا الحصني ، وأمها بنت السمّان .. وين بيت الحصني ، يبقوا يحطّوا الحلّة على وشّ البحرة ، ويحطّوا بوسط منها عصاية ، ويحطّوا اغراض الحلاوة مشان الحج ، وتدقّ نوبة المزاهر ، وتصير العصاية تفتل لحالها لحتى تستوي الحلاوة

---

(143) حول طب العيون بدمشق آنذاك ، انظر ما سيرد بمذكرات الدكتور شاكر الخوري 1876 .

(144) وكان اسم أم فاطمة آمنة السّقا أميني ، توفيت في بدايات القرن العشرين .

ويفرّقوا عالأهل ، ويصبّوا بالسحاحير وياخدوها عالحج .[145]

كان أبي[146] صاحب حظ كتير ، والله عشيّه لّما يجي يكتّ المصاري بصينية الأركيله الكبيرة .. كان بالأول عطّار ، وبعدين قعد بمشيخة الحارة .

* * * * *

بيت آق بيق بمحلّة تحت القناطر

كان بيتنا عتيق رمّة ، بعدين هدّوه وعمّروه وطلع بيت لايق تحت القناطر ، لكن ياحسرتي ما تهنّوا فيه ، باعوه واشتروا بيت القنوات[147]. وصارت تلبيسة أبوك فيه .

تحت القناطر[148] تبقى بيوت راتبة .. بيت الطَّرَقْجي ، بيت العادلي ، بيت البارودي ، وهالنّاح على هالصف بيت الإمام وبيت راشد ، مشقّبت منّه حارة بيت الشربجي ، كلّه أكابر وكلّهم مُسعدين ، قاطع منّه شويّه بيت الحسيبي وبيت الدالاتي . حارة محشية حشي كلها أكابر .

خالي عبد الغني السقّا أميني

خالي عبد الغني شو كان فالح ، تشوفه عين تراه عم يكرج ويركد ، اشترى ببستان البطيخي والبركة وبستان الباشا ، واشترى بيوت بالعمارة والقنوات . بَسْ يبقى قد حاله

(145) قبل شويّ «طخّت» المادنه ، قلنا : ماشي الحال .. بس كمان صارت هلق العصايه تفتل لحالها وتطبخ حلاوة ؟ تخينة هيك كتير والله يا ستّي !
(146) أبو فاطمة كان محمد سعيد آغا البديوي ، وليس لدينا تاريخ ولادته أو وفاته .
(147) أي محمد بن أحمد آغا آق بيق . وقولها «باعوه» كان حوالي عام 1942 بعد أن رمّموه .
(148) تحت القناطر محلّة كانت معروفة بين الخراب ومادنة الشّحم ، بطرف حي سيدي عامود .

بْخيل ، قال يمص العنبه والتِّفل يحطّه بالخابية ، قال يساووه خلّ .

* * * * *

في كان واحدة ببيت جدي إسمها أم عبدو ، جابوها لعند أمي ، وكانت أمي جايه جديد ، وعاشت عندنا وتجوّزت ، وأخدها مصري وإجاها اولاد ، وأنا لمّا وعيت عالدنيا قول لها «أختي آمنه» . وتبقى الله يرحمها تتخطّط بالشحّار وتاكل السمك وتقرط حسكه ما تقيمه .

سهرات الصيف

يبقى بيتنا يغلي غلي ، والله من عند الباب لراس الديار يفرشوا الفرشات ، الفرشة بجنب الفرشة .. يبقوا بالصيف يناموا بالدّيارات ، يمدّوا لهم هالبسط وتحتهم عبي يردّوهم عليهم حتى ما يتوسّخوا .. وفي تخت خشب كبير ، يفرشوا لأمي عليه ، ويقعدوا بهالفرشات عشيّة وتبدا السّير والقصص ؛ كتير شي ظريف بالكترة ، وبالأخص إذا كان في ضَو قمر . ويبقى بيتنا ما يخلى من الضيوف ، دوم يغلي غلي .. خصّا بيت يوسف آغا ، أهل عمتك أم ديب ، شو يحبّونا ونحبّهم ، والرّخار بيت يوسف آغا دوم بيتهم يغلي غلي ، يبقا لهم المعضّمية ويجيبوا قاقون عجبه والله . والتانيات يجوا لعندهم المعاضمة .

مرّة كانوا نايمين عندهم المعاضمة ، قاموا بهالليل دنيه رمضان ، صار السّحور ، قامت ميمونه حماته لأبو قاسم ، قامت بدّها تسحّرهم وبدّها تفوت لبيت المونة ، يبقا له باب من المربّع هلّي نايمين فيه . وفاتت على مهلها طالعت الاغراض ، وقامت ضَرْ . ـت [149] وهي طالعة بالعتبة ، قام واحد قال له للتاني : «قوم صار السّحور ضَرَب المدفع !» .

والله رمضان كان له رنّة .. تشوف على هالسّحور يساووا خشاف برمّان ، ويقعد

---

(149) كنّا قد اعتذرنا في المقدّمة عن بعض الكُليمات النابية ، فعُذرنا تحت باطنا ، وكل مين ذنبه على جنبه .. إيوه !

عمّي أبو اسماعيل ياكل ويحكي سير ، ويبقى يضحك يطير هالخشاف من تمّه ومناخيره .

يقعد أبي على بكرا يغلي هالشاي ، ويحطّوا هالقريشة وهالجبنة وهالزّيتون ، ويجي أبو اسماعيل يحكّ بالساقط ، يحكّ ويحرّك فيه الشاي بعدين ويضحك .

* * * * *

بقا لّما يجوا يزوروا بنات محمود باشا ، عندها أمي أمّون قاعة وعليها جنينة ، تفتح باب القاعة عالجنينة والجنينة إلها طالع ميّ ، من كتر هالميّ تطلع كزبرة البير مشاط مشاط ، وتبقى عالحيطان نازلة من عيونها . وروح لعندهم نحوّش ونبيع لبعضنا عروق ألماس ، يعني من كزبرة البير ، ونلعب بهالديار «بشتكْها» [150]، نقعد نص قعدة ونفقش بإيدينا ، وننطّ نعمل طمّيمة .. حَيَّلاّ [151].

كانوا بيت يوسف آغا بصقاق البركة [152].. اصأللّه بيت كبير ، وكانوا حسن آغا ومصطفى آغا وعلي آغا وخليل آغا بهالبيت كل واحد إله قرنة ، وكلهم ونسوانهم بالبيت وكلهم على فرد قلب .. خصّا ميمونة الله يرحمها ووسيلة مرت تلّو وآمنة مرت الديري وحسيبة وعاتكة وعليا وحُسُن .. يبقوا يخيّطوا سوا مريم وحسيبة ومروة ، ويجي خليل آغا يقعد على هالتخت بأرض الديار ويفرّق عليهم الكِره .

بيت العابد

وبيت العابد .. يبقى عبد الغني باشا ورضا بك وخالد ورشدي اولاد محمود باشا ، ما صفي منهم حدا غير رضا بك ، كلهم راحوا ، اصأللّه هديك الإيامات .. محمود باشا يبقى له محارة بيضة عالية ويركبها وخدّام يركد وراه ، واولاده كلهم جَخ .

(150) بشتكها : كلمة لا معنى لها ، مجرد تنغيم لفظي ، مثلها مثل هشتك بشتك .

(151) حَيّ الله : كناية عاميّة تعني : لا على التعيين .

(152) زقاق البركة حي في محلة السّويقة آخذ إلى سوق باب السّريجة ، وقربه زقاق حطّاب .

مصطفى بك كان عند السلطان ، وبيت العابد كانوا كلهم القايمّقام والمتصرّف .. يقولوا وقتها الدولة كلها لبيت العابد .. هنّه يوظفوا وهنّه يعزلوا ، وهنّه الكل باكل ..

حادثة جوزي أحمد آغا آقبيق

جدّك الله يرحمه عاش حياته بعذاب رجله .. كان في بالجُدَيْدة عرس أبو عبدو غزاله ، وكان جدّك صغير .. انعزموا عالعرس وطلعوا ، وكان صغير وحلو ولابس هالقصب ، وفي واحدة بيت الحنّاوي عينها البعيدة بتصيب .. كلّه من الله .. قوّصوا جاجة فاتت بقلب السياج ، إجا بدّه ينكشها يطالعها ، داير الزناد ناح رجليه .. علق الزناد بالعلّيق قام طلع على رجليه وشعلت قواعيه .. طفّوا له قواعيه ، وجابوا جمل ، حطّوا هيك خيشة تبن وهيك خيشة تبن ونزّلوه عالشام .

وما كان حكما متل هلأ تفهم .. كان ديب الساطي الله يرحمه داوى له ياها ، ولكن ضل خردق من جوّا .. المخ طلع وعضام رجليه مع منّو .. هيك صرّة . وشو طالعوا بارود ، يبقوا يدكّوا الجفت بارود وخردق وحديد وخردق ، وكله طلع على رجليه .

وعاش حياته كلها بعذاب رجله ، وأخوه قاسم راح بالرعبة .. حزقت بقلبه وراح فيها .. انصاب بمرض القلب ، والله كان قاسم وقاسم .. قاسم أفندي يشتغل بالسرايا ، يعني الاتنين تشرّكوا بهالعرس . شو حياته جدّك ، لولا ما جسمه قوي ، صفّت رجله على طاق اللحم . يي عالسلاح ، والله الواحد عمره ما يقرّب عالسلاح !

وقائع عائلية

قاسم أفندي خلّف سعدية وعبد القادر أبو قاسم وأنور ومحدّين وأسعد ، وسعدية أخدوها بيت الزّين . وقت مات قاسم ضلّت مرته أم عبد القادر ببيت حماها ، ويبقى قاسم أفندي عزيز عالعيلة ، وجدّك كان صغير فاتوا فيه : «أخوك ومرت أخوك واولاد أخوك !». بعدين غصبوه وكتبوا كتابه

عليها . وليلة العرس هرب وسكن عند أم عارف ، جابوه وبرطلوه بالمصاري .. نافلة ، مو ممكن .

وكانوا حاكيين فيّ وبعدين بطّلوا ، ولكن حطّوا علينا وأخدوني . وقت أخدوني ، عمتي نقلوها من البيت .. (تبقى أم عبد القادر مرت جدّك عمتي) .. واستأجروا لها بيت بالقنوات بالتعديل ، كل يوم ياخد لهم طبخ . وبعدين اتفقنا وقعدنا سوا ، وتبقى بسيطّة وقلبها نضيف . ولكن بعدين تركها ما صار له قلب يحطّها ويقعد وكانت مرت أخوه .. لكن ضلّينا قاعدين سوا لحتى ماتت .

يوم عرسي

وقت عرسي [153] صاروا يتماتلوا فيه ، يقولوا : «متل عرس بيت آقبيق» ، وعمّي ما بدّو يجيب وقتها مغاني ، قاموا توسّطوا بيت اليوسف وقالوله : «يا أخي إنت كم صبي عندك ؟» .. وبعتوا خبر لسعدة وروزة ، وتبقى الخرشوقة شيتهم اسمها ليلى بنت أبو قفّة .. بنص الليل تقوم تهرّج وتقول : «يامو بدّي بانه» ..

والمداعي يقعدوا على تخوت ، وان كان في نسمة ولاّ برد ولاّ مطر يخيّموا البيت ، ويبقوا المداعي كل طقّة بطقّتها تجيب مشكاك قباقيب يربطوه بالحبلة ، يلبسوا بالعرس قباقيب شبراوية .

والعروس يفوّتوها على مخدع ، ويغمّضوا لها عيونها ويدوروها وشها عالقرنة ، هلّي بدّو يشوفها يفوت يكشف على وشها ويقول : «حصّنتك بالله» . وقبل ماتفوت ، واحدة تشلّحها الكندرة ، وواحدة تحبلها السّفرة ، وهيك كل واحدة إلها بخشيش . وتقوم واحدة تمسك محرمة وتلمّ هالألمات من هالمداعي .

---

(153) كان العرس في عام 1886 ، وكان عمر العريس أحمد 20 عاماً ، والعروس فاطمة 17 .

ويجيبوا هالغندرة ويغندروها ، ويشكّوا لها هالألماس على هالشَّبقة [154]، ويلحشوا لها ضفايرها ضفيرتين لقدّام ، وصدرها يعبّوه ألماس ، ويجيبوا هالميْذكيّة حمرة وعليها عروق دهب ، ويلبّسوها قبقاب مدهّب ، ويوقفوا قرايب العريس ويمسكوا معاها الشمع ، ويصرخوا : «أوْها .. أوْها» ، ليجي العريس . ويقدّموا لناح العريس ويطرقوا راسو براسها ، ويفوتوا يعدّوا .

ويجوا هالمغاني ويمدّوا محرمة قدّامهم ويمسكوا هالدفوف ويوصفوا : «اسم الله اسم الله يا زينة» .. وتجي هلّي عليها نقوطات ، ويشتغل وَرّ المصاري كلّ منّو على مقداره ، لتقلب المحرمة هالقدّ ، ويضبّوا هالمحرمة وياخدوها ويقعدوا هالمغاني عالتخت ويقسموها .

تبقى أسما السنونية جوق ، وسعدى وروزة جوق ومعهم ليلى بنت أبو قفّة ، والحولة جوق ، وأنيسة بنت جلالة جوق ، والكرّوزة جوق .. وأنيسة إلها رشّ دهب إله شكلة من هالكتف لهالكتف ، وكان يحبّها البكري ، وعيونها ما شفتهم على حدا ، وتوقّف تدبك وهالرشّ يعمل «خش خش» .

والعريس جلوته وحده .. أهل العريس وحدهم ، وأهل العروس وحدهم ، وهالنقوطات عم تلتحش وأول ما يفوت العريس يزلغطوا له ويقولوا «أوْها ، ارفع راسك واقشعها .. أوْها ، قبل ما تفتح مجمعها .. أوْها ، إن كان ما عجبتك .. أوْها ، لبيت أبوها رجّعها !..»

* * * * *

كل ما يجي أبي لعندي يبقى معي هالجيب .. يبقى لي ناموسيّة كبيرة من صدر القاعة للباب ، يوقف قدّام الناموسيّة ويملص من جيبه ويزتّ على ضهرها : البردقان ، الكَسْتنا ، البلح ..

وكانوا إن طبخوا حليب يسكبوا لي زبديّة هالأدّ ، كل يوم ما تنخرم السكبية .

(154) الشَبْقة كلمة تركية : sapka ، تعني : القبّعة ، غطاء الرأس .

أيام المشمش يجيبوا هالقطّافية الكبيرة ملانه ، ويحطّوها بأرض الديار ، ويحطّوا هالصحون ويحطّوا هالمشمش بهالصحون يخلص صف يطلع صف ، هيك لحتى تخلص .

شو كنت أتغندر !

«واه الوَاه» شو كنت أتغندر ، حطّ هالكحلة وهالخطوط ، وحطّ التشكيل على راسي ، وشعري كنت إكعي فيه لمّا روح عالحمّام ، وكنت إتشكّل بالياسمين .

ابقى روح لعند هالتجّار ناح خان الحماصنة ، آخد هالملايا القصب على أبي ، وفوط الحمّام كلها قصب آخد وامشي . صاحب سعد أبي من صغره قبل مشيخة الحارة ، والله يبقى يعبّي الدهب ويعدّهم بالصواني .

والله الصابون هلّي يجيبه عمّي صالح آغا ما شفت بعد هالصابون ، هلّي هالقدّ وطبعته هيك وروايح مسك . يجيب السحّارة ، ويحطّوا لي سلّم ، وداير ما فتل القاعة في حلقة ، يناولوني الصابون صفّها على هالحلقة ، وخلّي بين الصف والصف فاضي حتى يجي عليه الهوا .

عزايم الفياجنة

كل يوم يندقّ الباب .. مين ؟ إجت الفياجنة .. عندهم عرس .. يجيبوا حمال الحطب حملين تلاته ، ويروحوا هالنسوان عالسوق يتبضّعوا ويتجهّزوا . كل يوم نطبخ لهم مجدّرة ومناسف ، يقعدوا بأرض الديار وينصفّوا ، هيك صف رجال وهيك صف رجال . وبعد ما يقوموا عن الأكل يمسكوا دبكة ، ولمّا ينطّوا النطّة يصل راسهم للنانرجة ، ويقولوا : «دارك أبو أحمد يا دار .. دايم الدوم تضلّ عَمَار .. بوجود الأفنديّة ، دوم يجيلك زوّار» .

كانت مريم للطبخ ورحوم لأوض الفلاّحين ، واللحّام يبقى عالبوابة ، يوم العيد يجي يدبح الخواريف عنّا بالبرّاني من سنة لسنة ، مدري أدّيش ياخد الليرات الدهب ، ويبقى اسمه

«كلّه راح بَعْزَقَة»

والله كان عندي بيوت كتير ودكاكين .. بيت بصقاق البرغل [155]، ودكان بالبزوريّة ، ودكان بسوق الخجا ، وحصّة بالدَّرخبيّة ، وحصّة بجونية ، وحصّة بنجهة ، وجنينة خان زاده ، آ خيّو .. والله خلّف لي كتير أبي ، كلّه راح بعزقة يا حرام الشوم . واولاد عمّي لو كان صحيح ضابّين إيدهم كان عندهم شي كتير .

كان ابن عمّي أبو فايز يركب هالفرس ويشكل هالكرباج بالجزمة ، وفلاّحين تابعين وراه .. ويلاّ على هالضيع .. كان هو ماسك ضيع أبي ، ولمّا يترل يكون معبّي الخرجين تبع الفرس دهب .. يكبّوهم بأرض القاعة ويعدّوهم بالطاسة .

الفحم زمان أوّل

زمان أوّل ما كان في صوبيات .. كان في فحم مو متل هلأ .. حضّر المنقل قيم صفوته وأطمر كل طَمْرة هالأدّ ، وجيب هالطُّمرة وحطّ فوق هالطمرات وعود عمّره ، وحطّ هالدقّ ويشعل المنقل تلاقي الهبابيل الزرقا طالعة . بعد ما يقطع فوّته على هالمخدع ، يقعد لتاني يوم ، يروح الوشّاني نحفر على تاني طمرة .

يبقى عنّا بيت المونه في تتخيتة عالية وتحت منها فاضي ، عبّي فيه الفحم ، وعالتتخيتة صفّ الحطب ، تمّ صف الحطب لحتى يصل لسقف الأوضة .. حطبة حطبة أترسه للسقف .

والله يبقى خير كتير ، اصأَلله .. نجيب هالصينية ونحط هالفحم بالمطبخ ، ونساوي

(155) من أزقة الشاغور المعروفة ، ومنه حماتي السيدة رجاء تسابحجي ، طيّب الله أيامها .

كنافة اسمها «المغسولة» حليب وقَطر .. حطّ هالحليب يطشطش ، وحطّ فوقه قَطر وبعدين حليب ، تلات أربع مرّات . ولّما يستوي الطرف التحتاني أرفعها على كرسيين قش وأطرقها بالحيط لحتى تتلحلح وأعرف استوت .. طبّ فوقها صينية رَخَر وأقلبها ..

حياتي اليومية

أقعد بالليل وحطّ هالميّ ، ودقّر باب الحريم من خوفي ليترل عليّ حدا .. وأتناوق على هالطُّوَق عيني عليها .. إسها لي سهوة ، وقوم قول لحالي : تأخرت . وقت يطلعوا بالتراحيم كون بأول وقت يأدنوا الصبح كون بالمشرقة عم أنشر الغسيل .

وقوم على بكرة بكّير أطلع على هالياخُر [156]، ساوي هالفرشة تبع الدواب ، وجيب هالسطل ونضّفها وغسّلها وحسّها بالمحسّة وبالكبرة ، ومسّح لها عيونها وأعقد لها ديلها .

والسجّاد مدّه بهالديار ، وأنزل فيه فرك بهالطاسة على قفاها ، وبعدين قش وراها ، تلاقي هالقدّ الغبرة .

خير كتير كان ، والله السّمنة وقت أغليها وعبّيها بالتنكات تلاقي ريحتها متل المسك . وأبقى صوّل القمح وكوّمه على سماط الليوان لحتى ينشف ، وأبدره بهالمشرقة هالعلو ، نزّله من هالمشرقة وحطّه بهالكندوش .

واهلواه شو كنت شاطرة ، والله عمتك مسرّة [157] كانت حترل ورا الطَّبَق ، عم أطلق وأنا عم أغسل .. تقول لي مرت عمّي حسيبة ، الله يرحمها ، وقت كنا سوا : «والله بشتهي تقعدي للك شوية قدّامي» .. اصأتله ، تبقى متنيّة تقعد على هالتخت وتحطّ هالأركيلة

(156) الياخُر : كلمة فارسية الأصل ، تعني حظيرة الخيل والدّواب الملحقة بالدار العربية .
(157) يعني ابنتها مسرّة آق بيق ، ولدت حوالي 1898 ، وتوفيت إلى رحمة الله في عام 1979 .

من تمّها لتمّ عمّي .

حَبْلاس وصبَّارة وملبَّس

يبعتوا لنا من حاكورة المنتنة الحبلاس ، الصبّارة ، أشكال ألوان .. أيام الحبلاس حبلاس ، أيام الصبّارة صبّارة ، والله نعبّيها بالطّبق ..

ووقت ينقرا المولد شيت النبي ، الله مصلّي عليه ، المتولّي تبع الأموي يبعت لجدّك اتناعشر صرّة ملبّس . يقوم جدّك شو بدّه يبعت له نقيضها ، يساوي له كشك الفقرا ، لكن شو كشك فقرا : يجيب اللوز ، يدقّوه يدقّوه وينعّموه ، ويحطّوه بشاشيّة ويستحلبوه بالحليب ، ويحطّوا له عطر الورد وفستق ولوز وجوز هند ، ويحطّوه على وش الزّبادي كبب كبب . يقوا بيت آق بيق [158] كتير كتير جَخ .

* * * * *

(158) الكنية تركية : Ak-biyik ، معناها : ذو الشوارب البيض . أطلقت على جدّ العائلة في القرن الخامس عشر ، وهو متصوّف مشهور في مدينة بورصة تؤثر عنه حكم ، منها : «الدّنيا مزرعة الآخرة» ، وكان من مريديه السّلطان محمد الفاتح نفسه . ويُروى أن الشيخ آق بيق دده Ak-biyik dede ، كما كان يُدعى بالتركية ، بشّر السّلطان بفتح القسطنطينية ليلة 29 أيار 1453 م ، فتمّ له ذلك الفتح العظيم ، وعاد فقبّل يد الشيخ . هذا وقد هاجر فرع من العائلة إلى دمشق في القرن الثامن عشر ، وبقي بها إلى اليوم .

مصطفى أفندي آقبيق

يقعد مصطفى أفندي أبو ابن عمّك صبحي جوز أختك ، على هالليوان وننصفّ قدّامه ، ولا حدا يسترجي يحَرُك قدّامه ، أول ما حدا ينعس يقول له : نعست ؟ نقول له : لأ ، قاعدين !

وأم عبد القادر مرّة بالظاهر – غضب عنها – «زقزقت» قدّامه ، قام

حكى سيرة : كنت سهران ، ومدري شو ، لحتى جاب مناسبة وقال : «والحمار ضَرَ .
!» .

واولاده هلأ كلهم ظراف ، سارة وزاهية وصبحي ظريف [159]. بس ببيته كان عسر ، مرتّب ومرسّم ، لكن حلو وأكابري ، والعسكرية عاطيها استحقاقها ، هالسّيف وهالتّرتيب وهالنياشين .

الفريق مصطفى باشا آق بيق باللباس العسكري

من ذكرياتي

وين هديك الأيام .. كنت بالجْدَيدة أقعد بالشبّاك عند عشيّة ، وتلاقي على طرف النهر هلّي عم يعبّي ، وهلّي عم يغسل ، وهلّي عم يحكي ، وهلّي عم يغسل خاروفه .. شي بيسلّي .

---

(159) وأبناء مصطفى أفندي هؤلاء كانوا من زوجته الدمشقية من آل الجبّان . وقبلها كانت له زوجة أخرى في تركيا ، وله منها أولاد ، منهم الفريق عدنان وعاصم باشا آق بيق .

ووين بيت أبو بلال ، تلاقي يساووا لنا هالعزايم ويعملوا جهدهم الحليب ، البيض المسلوق ، الشاكريّة (ويقولوا لها : لبن أمه) . تبقى الجديدة شو بدّي قول لك ، كل يوم يطلع منها ميتين خيّال ضيوف ، ويبات فيها ميتين خيّال ضيوف .

كان بدّي تتفرّج يوم إجا الجراد .. تلاقي النساوين سارحة ، هلّي حاملة العصاية ، وهلّي حاملة التنكة ، وهلّي حاملة الطشت ، وينقروا عليها ويصرخوا : «يلّلا على الجراد .. يلّلا على الجراد !» . وتلاقي السَّمَا مُو مبيّنة .

بالجديدة قوم على بكرا بكّير ، ما يكون حدا قام ، قشّ قدّام هالبوّابة وكنّس المصطبة .. وحضّر دولات القهوة والأراكيل ، وعبّي هالجرّة من النهر يكون رايق .. يفزّ جدّك يقعد على هالمصطبة ، ويجوا بقا أبو الجود وأبو حسن وحسن الدّنا .

يترل جدّك عالشام بكّير وقت يجهجه الضوّ ، وقريب العصر ما إسمع إلا عم تصهل الفرس ، وأركد أفتح البوّابة وأسندها ، ويفوت بهالفرس وهالخرج تحته متعتع محشي حشي .

يبقوا بالجديدة يركّبوا العريس عالفرس ، ويحطّوا حجب الفضّة والقصب ويدندشوها متل العروس ، ويركّبوا هالعريس ويدوروا بهالبلد هالطبل وهالزّمر .

* * * * *

وقت كنّا بخان الشيح

وقت كنّا بخان الشّيح ، كنا من المغرب نسكّر هالبوّابة . ومرّة عرب حطّوا بجنب النهر ، قاموا إجوا كسارة (قطاعين الطريق) بدّهم يفكّوا الجمال وياخدوها . وبهالليل ما تسمع إلا قواص ، وطلعوا فلاحين خان الشيح من عالأساطيح يضربوا .. وقام جدّك وعمّك يركبوا هالخيل ، وتسلّحوا وطلعوا من هالبوّابة وغاروا على الكسارة وهرّبوهم ، وجرحوا واحد منهم وأخدوا فرسه ، وطلعت فرسهم سارقها من زمان ..

* * * * *

مرّة زارعين بالسحرة بخان الشّيح سحرة بطّيخ ، لكن شي كبيرة ، بقا عمّك صالح واقف عليها ، وبقا واحد عسكري جندرمة في محابيس آخدهم يودّيهم لقطنا ، وراكب فرس ومسلّح . ولمّا مرق لحش حكي للنسوان وعمّك واقف ، قام سبّه ، ولمّا سبّه صار يبعّد لورا ويغور عليه ويقوّص بهالمارتينة ، تلاقي الغبار يعجّ عجّ وعمّك يستنّى يقرّب لعنده وما يهرب ، وكان ولد صغير . ويترل فيه بالحجار ، وبعدين نطّ عليه وزتّه عن الفرس وخلّصه السيف والبارودة ونزل بوشّه بالحجر ، كان حيموّته ، وقاموا المحابيس هربوا .

وهداك نزل عالشام اشتكى ، وكان وقتها رستان بك يوزباشي جندرمة ، وراح جدّك وقتها وحكى لابن اليوسف [160] ، ورستان بك اشتغل له كتير حتى نفاه منها . وكانوا إجوا لهنيك تحاوطوا عالحوش وبدّهم يلقطوه ، ما قدروا له ركب هالفرس وهرب .

«أرض جونية مسكونة ، يا لطيف !»

جدّك قال لّما يطلع عالضيعة ويمشي بأراضي جونيه ، وتبقى مسكونة ، يصيروا يلعبوا له برجليه ، ورجليه بالركابات ، ويمشي ما يقطع بعقله . وعمّ أبي حسين آغا يروح على بيت جن ، وكانت مقطعة ، ويروح حاطط السلاح وما يهمّه شي .

«الله يصلحه جدّك»

مرّة في جيرانا بيت ديب نصري ، وإلهم قماري عالقاعة ، ومرّة سمعت حسّ غوشة

---

(160) يعني عبد الرّحمن باشا اليوسف ، محافظ الحجّ الشامي وأكبر المتنفذين في ولاية دمشق بأواخر العهد العثماني ، على دور السّلطان عبد الحميد والإتحاديين . ذكرناه في بحثنا :

"The Role of Leading Kurdish Families in Urban Politics of Late Ottoman Damascus, 1807-1918."

وشوابيش ، جايبين رسميّة بنت شيخ المكاريّة عم تغنّي وترقص وتفقُش ، وسمعت صوت جدّك الله يرحمه ، وأنا أتفلفل ويفور قلبي شو بدّي ساوي .. رحت في بنت عمتي عندها قاعة ، وبالصدر في ليوان ومكوّمة فيه الفرش واللّحف للسقف ، ورحت أنا تخبّيت ورا هالفرش ، وإجوا طلبوني
ما كانوا يلاقوني ويدوّروا يدوِّروا .. بالأخير قالوا لمريم : «قومي شوفي عند أهلها ؟» . قمت أنا لمّا لقيت مريم حتروح طلعت .

أضْرَبْ ، جدّك يروح يسهر ، من خوفي من عمّي قوم دقّر عليّ الباب ، يجي يدفش الباب يقول : «إجا أحمد الله يرضى عليه !» ، وهو وين ، يكون سهران .

يجي جدّك شربان بهالليل ، يبقى طاقين ، وراكب الفرس ياخدها ، يبقى على طرف الحارة بيّاع حليب على حلّة هالحليب المهلّبيّة .. ويقول لها : اشربي ! وصاحبها يخاف منه ، يهرب ويروح لأبي يقول له : «دخيلك ، هدا صهرك» . يجي أبي لجدّك يقول له : «والله استحي وشّي من العالم» ، يقول «مو أنا يا آغا ، هدا شريكي » (يعني الشراب) .

بعدين أضْرَبْ ، تاب واتمشيخ كتير الله يرحمه ، وراح عالحج . وحجّ وراح هو وأمي ، قعدوا بالمحارة هو بعينة وهي بعينة ، وراحوا حجّوا .

كان وقتها سعيد باشا [161] – الله يرحمه – باشا الحج ، كل ما مرق يقول له جدّك : «إيش يا ؟!» .. تقول له أمي : «يا ويلي ، باشا متل هادا بنقال له إيش يا ؟» .. يقوم يحرد ويترل ، تميل المحارة ، يركد ابن الشنواني يجلّسها .

الحجّ الشامي

(161) أي محمد سعيد باشا شمدين ، محافظ الحج (1870-1892 م) . وكان جدّ عبد الرّحمن باشا اليوسف - المذكور أعلاه - لأمه . أما اليوسف فتولّى الحج بين 1892-1918 م .

يبقوا الحج بساووا له رنّة كبيرة .. يوم يطلع المحمل لا يتمّ أسطوح بالدرويشية ، كل الدكاكين يكرُوهم .. الشبابيك ، الأسطحة ، كلها تلانة .. تقعد هالعالم وينضرب المدفع ، ولمّا ينضرب المدفع ياخدوا المحمل عالسَّنجقدار ويصلّوا عليه ، تبقى المشبرية ، يحطّوا السنجق هنيك . والشمع يلفّوه بالشال ، يطالعوه من بيت الطرزي بصقاق المبلّط ، ويحملوه زلمتين من كتف لكتف ، ويقولوا : طلع !

وتطوش هالعالم وتطرق هالمزّيكة ، وورا هالمزّيكة تجي الخيل ، تلاقي الخيل عم ترقص رقص . تلاقي اليوزباشي ، البينباشي ، على اكتافهم عم يلمع القصب وزنانير الصوف ، والياورات . مشقّيت منهم تلاقي الخيل عم ترقص رقص ، هيك ليصل المحمل .

ويصل ويجي ورا الخيل ، وقدّام منه اولاد العلي الخضري ، يلبسوا أبيض وجبّات خضر ، ويقولوا : الله أكبر .. الله أكبر . ويبقى المحملجي قاعد جوّا ومادد راسه ، والجمل عم يبعبع ، وهالرشّ الفضّة مدندش دندشة .

ويمرق هالمحمل وراه تخت الباشا عالبغال ، هالبغال حاطّين لهم هالأحمر ، وبعدين يجي أبو حلاوة ، وهالعقيل فوقهم بقلب بعضهم ونازلين بهالطبول وعم يشوبروا ، وورا العْقيل هالعربايات وهالعالم . هيك للعسّالي ، وعند العسّالي يلبّسوا المحمل التوب الأخضر .

كانوا يروحوا عالمحاير مفردة ومجوزة . ووقت يصل الجمل لشبّاك سعد الدين بالميدان يوقّف ويبعبع ، يطلعوا يعطوه دعبولة لوز وسكّر ، ياكلها ويمشي .

ووقت يجي الحج ، وقت يصل لمزيريب ، تطلع الجردة ويلاقوا للحجيّة ويرجعوا معهم

ما أحلى أيام العيد !

وقت الاعياد يبقى بقرنة القنوات في فضوة تبقى فيها قلاّبة ، وقدّام التعديل محارة دوم ملانة اولاد ، ويسحب صاحبها هالجمل . والقلاّبة قاعدين بهالقلاّبة وعم يقولوا : «يا

صاحب القلاّبة ، مَرْتَلك الطلاّبة .. وياصاحب المحارة ، مرتلك الحمارة .. ويا صاحب المرجوحة ، مرتلك الشرشوحة» ..

وجنينة خان زاده ، آ خيّو ، بالعيد يعملوا فيها تخت ، وتلاقي هالعالم بهالتخت ، الدربكّة والدفّ وبيّاع الكعك وبيّاع المخلّل .. تشوف العالم عم تغلي غلي .

وقت القلاّبة بتطلع ما بيهمّ ، ووقت بتقلب وتفتل بيلحش القلب . بي يه مصاريّي روّحهم بالقلاّبة ، دورتين تلاتة ، ويقولوا : عوّفت . وفي اولاد ما ترضى تترل ، تجدّد .. وبسوق القطن عربايات ياخدوهم ويجيبوهم ، وبترلة الدرويشية مشقّيت البيليك [162] كان يشتغل كراكوز .

(162) البيليك كلمة تركية beylik ، وهي دار السّعادة بأول سوق الحميدية ، كانت منزلاً لولاة دمشق حتى أواخر القرن الثامن عشر ، إلى أن عمّر الوالي كنج يوسف باشا سرايته .

اصألله زمان الحمّام

اصألله زمان الحماميم ، وقت النّفَسا نبقى نساوي جداد ، من جميع البهارات ، ندقّها وننخلها ونروح عالحمّام . ويوم حمّام الفسخ يفقسوا تلات أربع بيضات ويدهنوا لها بدنها .

ويوم الأربعين الجداد تجي البلاّنة ترش لها كل بدنها حتى يصير كل بدنها ، وبعدين تحط لها دلوك على وشّها ، وهلّي حاضرين ويفركوا لها ياه ، تتمّ قاعدة لحتى تعرق .. كل نتفة يفركوا لها بدنها ، وتجي هالبلاّنة تاخدها على جرن الحمّام وتنتف لها بدنها .

يبقى الحمّام إلو أهمّيّة .. نروح عالحمّام تبعت البلاّنة تحمل لنا هالبقج وتسبقنا ، وما تشوف بأرض هالحمّام إلا قشر الكرنب وقشر الجوز .. وتبقى أمي قبل يوم تساوي كشكة خضرة ، ونبقى نروح على حمّام عزّ الدين ، وما أطيب الكشكة الخضرة بهالحمّام ، نساويها ونحطّها بالزبديّة .. والرمّان الحلو والجوز أشكال ألوان .

بقا مريم الله يرحمها تغسّلنا ، يبقالها كل برّ هالأدّ [163]، وتحطّنا إدّامها وإلها كرسي مخصوص ومقصورة ما حدا يسترجي يقرّب ناحها ولّما تسخن الميّ تنده : «غنطوسة ، باردة !» .. وتحطّنا إدّام منها ، ولّما تعمل هيك براسنا تفركه فرك ، وتنده لغنطوسة تفوت غنطوسة تفرّكنا .

ما كان في حماميم بالبيوت ، والله هالحماميم بالبيوت طلعت حلوة .. شو ، قوموا انتعوا هالبقج وروحوا . نروح نحنا بالأكتر على حمّام الزين ، أهلي على حمّام القناطر ، وبترلة صقاق رامي كان في حمّام الصغير .. اصأله أكل الكرنب شو ما أطيبه بالحمّام ، نمسك الراس من دنبه ونطبشه عالأرض يروح .. يعني كل شهر حمّام .

خدّوج الدّاية الله يرحمها شو كانت منيحة ، دوم ألَدْ على ركبها .. والله أبي يوم أطلق ينفخ النار مشان تسخين الميّ ، وساوي تغطيسة .. يمدّوا لي حصيرة بأرض الديار وطرّاحة وقت أطلق ، وفوت عالحريم وسكّر عليّ وأتسطّح على حفّة المربّع وأتمرمغ ويتناوقوا عليّ .. الله يجعل عملنا منيح ، ما حدا بقيان ..

راح لي تلات ولاد !

وين .. أنا راح لي محمود وجيهان وزهرة وريّا أم منيرة ، وطرح بعيون الشيطان خمسة . شو جيهان متل الياسمين .. حلوة كنت أعمل لها ضفاير ، وعملت لها بسفلهم جواريخ حمر وتقعد بكتبيّة الليوان ، وتبقى قَرْطة وتقول : «لروح عالعثّة وأنكتها» .. عمرها تلات سنين ، طلعنا عالجديدة وسكنّا بآخر البلد ، وفي بيت الحتّاوي بجنب هلّي سكنّا عندها أم أحمد ، وهَيْ بيت الحنّاوي عينها صيّابة ، قامت نضرت الولدين وتكرفتوا هالاولاد ، ونزلنا من الجديدة بين الولد والولد عشرين يوم .. محمود ومحمود متل الخاروف ، وزهرة إن شا الله فالها معها .. آه ، إن شا الله بلاقيهم بالجنّة [164].

---

(163) قلنا سنترك العبارات على وضعها دون تحريف ، فعُذراً !
(164) لا زالت تطفر اللوعة من كلمات الأم الثكلى على صحائفنا هذه ، بعد

جيهان كنت عم إغسل ، وعاطيتها كم ملبّسة وهي قاعدة ، وما لقيتها إلا لَوتْ رقبتها وسلّمتها ، ولسّاتها كامشة الملبّسات بإيدها [165].

ووقت ضعفت زهرة ، أضْرَبْ ، شفت حالي راكبة بعرباية ، وولد على ركبتي .. نجس تلوّثت إيدي ، وقفت العرباية وقالوا لي : قومي اغسلي إيدك . وأسمع صوت ولد عم يبكي ببستان ، وألْطُش أنو لاقي شي طريق ما كنت لاقي أصَل لها ..

وقت توفّت جيهان ، شفت حالي متل كأني بقصر ، ولقيت روشن طلعت عليه ، وعليه جهان ووشّها مجلّل ببرنجكة قصب ووشّها عم يشعل شعل .

ووقت كانوا جيهان ومحمود ضعفا ، شفت حالي قاعدة على حفّة المربّع ، وما لقيت إلاّ واحد فات بلفّة بيضة وهالولاد مسطّحين ، وقال لي : هلأ بتريدي هاد والاّ هاد ؟.. وأنا ما كنت أسخى بهاد ولا بهاد .

الله يعيننا عليها ، يا حصرتي علينا ، بيحطّوا البلاطة فوقنا وبيمشوا وبيقولوا أنه بتلبسنا الروح ، وبنرفع راسنا بنطرق بالبلاطة وبنقول : «الله ! شو متنا ؟» . وبيجوا بقا بيحاسبونا ، هلّي من أهل الجنّة بيسألوه مين ربّك ، مين نبيك .. بيعرف . وهلّي من أهل النار – يا لطيف – بيقول : «ها ؟ ها ؟ ما ادري» . يا حصرتي علينا ، الله يجعلها عالإيمان .

طهور ابني محمّد

أبوك يوم ما تطهّر [166] طالعوه عالمربّع ، كان مربّع ورا باب الصقاق ، فوّتوه وسطّحوه جوّا ، وعلق برقبتي وما عاد يتركني ويقول : يامو يا يامو ، ويرجف .

وفاة أولادها بقرابة القرن ، ووفاتها هي بـ 44 عاماً .

(165) كم هو مؤلم وجارح هذا الوصف .. الله لا يورجيها لحدا . وكانت وفاتها بالحميرة .

(166) كقولة الكناية الشامية : من أيام طهور جدّي ! فهذا هو طهور جدي محمد آق بيق .

ووقت عمّك بدّهم يطهّروه كان ديب الساطي موجود ، وجابوه على أوضة الفلاحين ببيت جدّك ، ومن غير درايتي ، وكانوا قواعيه وسخين ورجليه وسخين ، وحالة .. وفوّتوه وطهّروه وطالعوه ومالي دريانة .

وقت الطهور بدّهم يطهّروا ولد بجيبوا خيل ، يركّبوه على هالفرس وقدّام منها هالمرفعجية ، ويحطّوا له الألماس عالطربوش ويجيبوا له برنجكة حمرة ويحطّوها على وشّه ، ويلبّسوه بابوج قصب ، وسعيد مصلّي عالنبي قدّامه يقول : قلب العامر يصلّي عالنبي . وهالعراضات ولعب السيف والترس .

وياخدوه ويزوّروه سيّدنا يحيى ، وياخدوه على هالبيت يغيّروا له قواعيه ويلبّسوه قواعي الطهور البيضا ، ويحطّوا هالسّفر وتاكل الناس . وبعدين يطالعوه ويطهّروه ، ومن عياط الناس .. «نبر وغضير ، وصلّوا على محمد» .. ما بتسمع بكا الولد .

جوازة ابني محمّد ودراسته

كان بدّي تشوف التلبيسة هلّي صارت لأبوك .. بيوت الأكابر كلها اجتمعت ، وأخدوه لبّسوه ونزل صافحهم كلّهم وبوّسوه ، وأمك [167] جابوها بعرباية ، ومزوّقين الشبابيك والخيل بشرايط زهر وتشاكيل .. نزّلوها ، وقف أبو ممدوح عمّك حملها وفوّتها ، ومدّوا لها قدّامها ليانات سجّاد . وكان عنّا اليواخر البرّاني ساووا الأكل وحطّوه بهاليواخر ، الفايت والطالع والدرّيبة وينزلوا من عالأساطيح ياكلوا ويطلعوا . والله الصرّة هلّي جابوا لها ياها وقتها ، وعطتها أمك لعمتك عَدْلا ، وفيها من جميع ما تطلبه النفس .

حطّينا أبوك بالإعدادية ببيروت ، يبقوا الواحد يحطّوه بالإعدادية ويطلع منها ضابط ، وبعدين يصير . وأبوك لو ضلّت كان هلأ يوزباشي بنباشي ، الله أعلم .. يبقى يقعد ، انشا

(167) هي إنعام بنت خليل آق بيق القبّاني (1908-1960) ، حفيدة أحمد أبي خليل القبّاني ، وأمها رئيفة السادات (توفيت عن 31 سنة) . وتزوّجت عام 1920 ، وهي جدّتي لأمي .

الله العمر إله ، عند عز الدين سلف أم ياسين ببيروت ، يحطّه بالأوضة لحاله ويروح هو يسهر ، ولّما يطلعوا الاولاد يطلع أبوك يدقّ لهم بالفرّيرة .

أول الكل حطّيناه عند خجا أيوس بحارتنا ، قام يوم الواحد تعوّق ما كان يجي .. وينه ؟ وينه ؟ بعدين رحنا لقيناه ورا الباب عم يبكي ، مغيّلة عليه ورايحة . لحتى راحوا وراها لبيتها وجابوا المفتاح وفتحوا له .

طلعنا عالمحطة يوم بدّو يجي من بيروت ، طلعنا لاقيناه واقف بتمّ الفركون صغير هالطوله . مدري ليش وقتها طالعناه ؟ إيه وقتها بطلتْ لو ضلّت دايمة كان هلأ ضابط ! قبلة يفوتوا عالرشديّة ، ويطلعوا من الرشدية يفوتوا عالإعداديّة .

قعد أبوك بالإعاشة [الميري] ، وقت ساووا الإعاشة وصار الغلا .. وبعدين توظف بالعدلية ودرس بمكتب الحقوق (168) .

وقت إجا من بيروت ، سافرت ريّا (169)، الله يرحمها . مو بعد بكتير كان حرب الترعة (170)، كان عمرها ثلاثين سنة ، سافرت هي وسافرت بدريّة بنت أم ديب ، قام جوزها راح بوظيفة عالحج ، والرّخر نَفَسا ما ولدت ، طلقت ما ولدت .. إجانا خبر عمتك ، أضْرَبْ ، بعد يوم إجانا خبر بدريّة . وتركد أم ديب وتقول لي : يا مرت أخي هلّي صابك صابني .

تطبخ سارة بنت حماها الطبخ وتقعد تعدّ شقف اللحمة حتى ما تفوت تاكلها عمتك .. الله يجعل قلبنا أبيض .. والله عذّبوها كتير .. والله ما كان سبب موتها إلا هنّه .. حبلت وحطّوا عليها بدّهم يطرّحوها ، يعطوها أدوية يعطوها أدوية ، ما طرحت .. راحت السفر ما

---

(168) ثم أضحى ابنها محمد آق بيق رئيس محكمة بداية الجزاء ، ثم رئيس محكمة الجنايات بدمشق ، واشتهرت سيرته بالنزاهة والاستقامة ومناصرة الضعفاء ، حتى حمل لقب «القاضي النّزيه» . ولد عام 1904 ، وتوفي إلى رحمة الله بدمشق عام 1977 .

(169) أي ابنتها ريّا ، توفيت في تركيا حوالي عام 1910 عن 25 عاماً ، وزوجها صادق آق بيق .

(170) أي حرب السّفر برلك 1916-1918 أثناء الحرب العالمية الأولى .

رجعت .. مضّوا حياتها بقلّة الرياحة .

كانوا بيت شعلان بالحج وقت ماتت بدريّة ، ودوّروها داير ما فتل النبي ، ويقولوا : ترحّموا عالغريبة . التنين قبل ما يروحوا يعدوا يغنّوا : «يا حبايب قلبي تعوا ودّعوني» . ما كان لهم شَبَه هالتنين .. بدرية ما أحلاها ، شو تحبّنا ، انشا الله بالجنّة يا إلهي .

وقت ضعف أبو ياسين جوز عمّتك أم ياسين ، شافوها بنومهم دواير الفرشة عم ترقص ، وقام لحقها .

العذاب هلّي تعذّبته عمتك أم ياسين بتربابة اولادها ، مات وترك لها ياهم صغار ، وستّهم وعمومتهم أكلوا المال عليهم . أبوهم كان زنكيل كتير ويكسب مصاري ، كان يتاجر ، وقت مات أخدوهم كلهم وقالوا : «هدول مو لأبو ياسين» ، وأكلوا المال . قام يا لطيف عزّ الدين إجته بمبة فلقت راسه بالنصّ ، وحسن البعيد فطس الرّخري ، ولحقتهم بنتها كمان صبيّة .

عمتك قضّت كتير ، وتبقى نفسها كبيرة ، حطّت اولادها تعلّموا كار الخياطة ، وعلّمت بنتها وهي تشتغل وتقدّم لهم ، ما تنام الليل مشانهم .

من حوادث الثورة السورية 1925

مرّة بسيدي عامود [171] ما نسمع إلا حسّ الدّبك على سقف القاعة ، قام طلع أبوك على سقف القاعة وأخد الفرد معه ، وكان وقتها ممنوع القواص ، وينطّ من عالأساطيح . قام هداك نزل على بيت الرّباط وهرب وراح ، وما تسمع إلا قواص بهالليل ، وكان أبوك رح يقوّص عمّك ، تخايل فيه لو ما صرخ . وأبوك نطّ من أسطوح لأسطوح ، وبيناتهم صقاق ، وهو ماسك بإيد فرد وبالإيد التانية الكاز .

(171) كانت دار آق بيق بهذا الحي ، من أكبر دوره وأجملها ، على كتف شارع مدحت باشا .

وقت الثورة شو تَمَرْمَرْنا ، القتلى على عرض الطريق ، وما تلاقي إلا قتلى ممطرقة وأدمية سايلة . أخدونا على بيت الشّنواني بنزلة حمّام القاضي [172]. صار الطرق والسفق ، أخدونا لبيت خالي بالعمارة ، قال خالي : «الله يلعن لحية هلّي عند رغيف خبز» .. ومرت خالي خابزة عالصاج ، تلاقي تعطينا رغيف يشتغل الخطف عليه .

---

(172) نزلة حمّام القاضي : حارة في حيّ سيدي عامود تجاه سوق مدحت باشا .

بعدين أخدونا على صقاق العدّاس لعند أهل مرت عمك فطمة ، بعدين أخدونا لبيت أبو قاسم عالخضيريّة .

صالح أفندي شورى ، الله يرحمه ، قال له لجدّك : «إنت ليش مهموم ؟ كل واحد قواصة قواصة منروّحهم» .. وشو عالسقف بم بم طرق الضروب ، وراغب أفندي شورى طلع يشوف منين الضرب ، قامت إجته رصاصة وقع بأرضه ، وشلون يوصّلوه عالتربة ؟

تركنا البيت لمّا إجت الحريقة [173]، وجابوا حمّالة يحملوا الاغراض ، وسرقوا نصّهم ، شي يوصّلوه وشي ياخدوه لحالهم ، الصيني ، الزبادي ، كله راح . وطلعوا عالسقيفة فتحوا تنكة السمنة وقعدوا ياكلوا ، قال له واحد للتاني : «للك إجتنا النار» ، قام قال : إي شو بدّي أعمل لهم ؟» ..

وقفوا السنغال [174] على أسطوح البنك وعلى الموادن يصطادوا الناس ، وعالقلعة ، كل ما واحد طلع يناولوه .

---

(173) أي الحريقة الكبرى بزقاق «سيدي عامود» ، يوم قصف جيش الاحتلال الفرنسي دمشق بتاريخ 18 تشرين الأول من عام 1925 ، للقضاء على الثورة . وأضحى هذا الحيّ ركاماً بعد أن كانت فيه أجمل الدّور الدمشقية الأصيلة ، كدار مراد أفندي القوّتلي ، ودار صالح آغا آق بيق (أبو أحمد) التي دارت فيها أغلب أحداث هذه المذكرات .

(174) أي الجنود السنغاليين السّود ، التابعين للفيلق الأجنبي La Légion Etrangère في جيش الشرق الفرنسي . وقد شنّع هؤلاء بالمواطنين السوريين ، وبخاصة في مجزرة البرلمان بتاريخ 29 أيار 1945 .

وفاة جوزي أحمد آغا

جدّك الله يرحمه قبل ما يموت ضعف ، ومنوب قلب رجله هدمته هدم ، كنا منقولين من عرنوس وعند أبو ممدوح بالسويقة . ووقت فضي بيتنا ، طلعنا لبيتنا .. كان مسطّح بالفرشة ، والمسبحة بإيده وهو عم يقول : الله ، الله . وإجا لعنده نهارها محمود بك جوز فوزية أم أكرم ، قال : «الله يختم عالإيمان» .. من هون لبعد ساعة نزل بمنازلهم ، ولسانه ما فتر من قولة «الله» ، وشخصت عيونه للحق ، وقعد عمّك صار يقرا له .

والله مضّى حياته ما يحكي على حدا ، ما يحب يغلب حدا ، إيه والله . وقت إخدان الخاطر ما تمّ حدا ببيوت القنوات [175]، كلّها طلعت أخدت الخاطر .

[انتهـ ـ ى]

* * * * *

(175) سكنت العائلة بالقنوات ، كما تقدّم ، بعد خراب بيتها في حريقة عام 1925 . ثم تنقلت فاطمة البديوي ، صاحبة المذكرات ، مع ابنها محمّد بعد وفاة زوجها ، إلى حيّ عين الكرش ثم إلى حي السكة بالمهاجرين ، حيث توفيت في أيلول 1958 ، رحمها الله .

قلت :

وأما جدة أمي نفسها ، راوية هذه المذكرات ، فقد أغمض الموت أجفانها وأسكت آخر أنفاسها ، بمترل ابنها محمد آق بيق بحي السّكة في المهاجرين بدمشق في شهر أيلول من خريف عام 1958 .

عليها الرّحمة والرّضوان .

* * * * *

وأخيراً ..

سيأتي علينا الدّور ، وسنموت كما ماتت فاطمة البديوي ، وابنتها الطفلة جيهان ، ومحمود وزهرة ، وزوجها أحمد آق بيق ، وابنها محمّد ، ثم بدأت بضعة من حفيداتها بالانتقال إلى الدّار الآخرة (ربيعة وابتسام) ..

سنرحل جميعاً ، كما رحلت جميع شخصيات هذه المذكرات بأسرها دون استثناء .. إن عاجلاً أم آجلاً .

سنرحل ، وتبقى الذكريات ، وتبقى الغالية دمشق .

إيه يا دمشق ..

يا جدّة المدن ، ويا سحر الشَّرق ..

فيك ولدنا ، وترعرعنا ، وتعلّمنا حبّ الوطن ، فيك نَمَتْ أحلامنا وأزهرت آمالنا ، وفيك دغدغ الحبّ شغاف قلوبنا في سنّ الشّباب ، وأحرقت ذكريات الماضي صميم أرواحنا ، عندما تبدّد الماضي وغابت عن مآقينا أوجه عزيزة ، واختفت ضحكات وتبدّلت أيام وسنوات .

سنتركك يوماً ، ولكن .. لا تنسينا أيتها الحبيبة الخالدة دمشق . لتبق أسماؤنا مسجّلة على ذُرى قاسيونك وبين أزقّة حاراتك الحانية الوديعة .

ستبقين يا دمشق ، على أديم الدّهر ، سحراً وألَقاً وتاريخاً وأصالة لا تمحوها القرون . وتغدو أسماؤنا وحياتنا وذكرياتنا مجرّد أصداء زائلة فانية ، كنسمات خريفية هبّت ورَمَت بأوراق ذَوَت واصفرَّت في أدواح الغوطة ، أو على ذُرى جبال لبنان الشرقية المحتضنة لدمشق ، أو تسلسلت مع سواقي وادي بردى الرّقراقة بين أرجاء غياضه الجميلة .

سجّلنا ها هنا كُليمات من ذكريات فاطمة ، ابنة دمشق .. ولكن ، كم من آلاف الذكريات الغالية والحكايات الغريبة النادرة ، والآلام والأماني والعَبَرات ، مضت وبادَت مع أصحابها ، ولم يدركها حظ لتتسجّل على الورق !

كل هذا لا يهم ، طالما ستأتي أجيال جديدة ، وتحافظ على تراث الأجداد ، وتتذكّر على الدّوام أن دمشق باقية ، وأرواح أبنائها معلّقة بها إلى الأزل .

* * * * *

مستدركات

بعد الرّجوع إلى المذكرات المكتوبة لجدّة أمي ، فاطمة البديوي ، رَوَت لي خالتي الحبيبة زهراء آق بيق – أمدّ الله في عمرها ، وأعطاها الصحّة – بضعة وقائع عائلية ، وجدتُ في إيرادها هنا فائدة وتتمّة لما كنتُ بدأت بتدوينه .

عرس محمد آق بيق
ابن فاطمة صاحبة المذكرات

في عام 1920 ، كان عمر محمد بن أحمد آغا آق بيق 16 عاماً (وهو من مواليد 1904) ، وكان في الصف الثامن لمّا قرّر أهله تزويجه ، فخطبوا له إحدى بنات العائلة (إنعام القبّاني) ، وكانت ابنة 11 عاماً (من مواليد 1908) ، وهي ابنة خليل بن أحمد آق بيق (الشهير بأبي خليل القبّاني رائد المسرح في سورية) . وكانت عائلة القبّاني هذه فرعاً من آل آق بيق ، حملت اسم القبّاني نسبة لحرفة مال القبّان التي زاولها محمد آغا آق بيق والد أبي خليل

وكانت العروس إنعام تقيم في بيت ذويها في منطقة زقاق الصّخر ضمن بساتين كيوان الجميلة ، على طريق الرّبوة . وما زالت أطلال دار خليل القبّاني ماثلة إلى عصرنا الحاضر ، بعد أن تداعت أكثر أركانها إثر وفاة آخر أولاده في عام 1989 . وكانت تلك الدار من

أجمل الدّور موقعاً ، تقع على مسافة بسيطة من قصر الغزّاوي الشهير ، وتطلّ على وادي النهر غير بعيد عن طاحون كيوان ، وتحفّ بها الأشجار والزروع والأزاهير الجميلة النادرة ، ومنها ياسمينة زرقاء كانت مثاراً لتندّر كل من يراها .

أما العرس ، فكان بالطبع في دار والد العريس بمحلّة تحت القناطر بزقاق سيدي عامود ، وتم في بدايات فترة الاحتلال الفرنسي لسورية عام 1920 . وقد دُعيت إليه أعداد كبيرة من النساء ، من الأهل والأقارب والجيران ، وكان عرساً كبيراً غنّت فيه «بنات مَكْنُو» الشهيرات .

غير أن أكثر النساء كنّ يتفاجأن من صغر حجم العروس واصفرار لونها ، وكانت أصيبت بالتيفوئيد ، حتى أن زوجة جارهم ابن القوّتلي قالت لفاطمة أم العريس : «شو ما لقيتي لإبنك محمد غير هالفَرْتوكه ؟» .. غير أن نفس المرأة بعد 3-4 سنوات ، دخلت بيت أحمد آغا ، فرأت صبيّة جميلة ابنة 14-15 سنة ، وقد انسدل شعرها البنّي الطويل على كتفيها فبلغ خصرها ، ولاحت على محيّاها الجميل مسحة جمال آسرة ، تزيّنها عينان خضراوان وبشرة بيضاء مُشربة . أطالت الجارة النظر وقالت لفاطمة : «إي هَهْ ، هيك كنتِ خديلُه وَحده حلوه لمحمّد .. شو هاد ؟» . قالت فاطمة : «ولك هَي هيّه بذاتها مَرْت محمّد !» ، وكانت كبرت وتبنّت .

نعود إلى العرس :

أكبر مفاجأة كانت عندما دخل العريس والعروس إلى المَخْدَع ، قال وإذا بولاويل العروس تتعالى بقوّة من الداخل ، والعياط والبكاء .

يا لطيف .. ما الذي جرى ؟

اندفعت فاطمة إلى الدّاخل مسرعة .. «ولك خير ، شو فيه ؟» .. وإذا بها تفاجأ بالعروس ابنة الـ 11 عاماً وهي تقول لها : «بدّي سكاكر .. ما خلاّني محمد آكل سكاكر من هادا السَّبَت اللّي هون !» .

ماذا يُتوقّع من عريس عمره 16 سنة ، وعروس عمرها 11 ؟

* * * * *

وقيل كانت فاطمة تلاقي التباريح من ولدنة كنّتها إنعام ، التي كانت ما تزال طفلة ، فتارة تراها تقصّ الستائر مع ابنة حميها الصغرى ، ويعملان منها أثواباً للّعبة ، وتارة تقفز بين أطباق الرزّ بحليب المفرودة فتدوس في داخلها ، وطوراً تلقي بسجّادتها في بركة البيت حتى تغسلها .

لكن الأطرف من ذلك كان زوجها محمّد ، الذي كانت «تكعى» في العثور عليه لتناديه لطعام الغداء ، فتعثر عليه أخيراً فوق الشجرة «متعمشقاً» يلعب يا له من «عريس فوق الشجرة» .

«شهر عسل على بسكليته»

كانت لمحمّد درّاجة هوائية «بسكليته» ، فلمّا تزوّج من إنعام شاء أن يأخذها «دورة» على بسكليتته ، فماذا يفعلان طيلة الوقت إن لم يلعبا كباقي الأولاد في سنّهما ؟

فتحيّن العروسان فرصة عدم انتباه الكبار لهما ، ودلفا من باب «الصقاق» إلى الحارة ، وأردف محمد عروسه على البسكليته خلفه ، وكانت بلا نقاب ! ولعبا ما حَلا لهما أن يلعبا في الحارة .

ثم للقارئ الكريم أن يتخيّل اللّقاء المثير الذي كان بانتظار العروسين ، عندما اكتشف الأهل غيابهما ، فأكلا «قتلة» ماكنة بِبَسْطُون أحمد آغا ، كانت كافية حتى لا يفكّرا مجرد تفكير بإعادة المحاولة .

هذه كانت العادة المألوفة في دمشق في الماضي ، فسنّ الزواج للعروسين لم تكن تزيد عن ذلك كثيراً ، وكانا يقيمان بالطبع مع الأهل كطفلين في العائلة .

* * * * *

موكب الحجّ الشامي

صورة من الحياة الاجتماعية بدمشق

في أواخر القرن التاسع عشر [176]

كان موسم الحج في مدينة دمشق يعدّ في طليعة موارد العيش ، حيث يدرّ الأرباح الطائلة على جميع أهلها طيلة العام .

وكانت دمشق أثناء حكم العثمانيين تنعم بأهمية خاصة جداً على اعتبارها (باباً للكعبة) كما دعوها آنذاك ، وكانت الطريق المؤدية من الشام إلى المدينة المنورة فمكة المكرمة هي الأقصر مسافة والأكثر سلوكاً من سائر البلاد المؤدية إلى الحجاز من جميع الأقطار الإسلامية الشاسعة . ولذلك دأب السلاطين العثمانيون على ترميم هذه الطريق وتعميرها وتوفير الأمن في ربوعها ، فجعلوا في كل مترلة من منازلها قلعة لها جنود معينون لحراستها ولتأمين المياه للحجّاج في ذهابهم وإيابهم . وبوجه الخصوص ، نال الحج ومعه دمشق عناية خاصة من السلطان عبد الحميد .

وكانت دمشق نقطة التقاء الحجاج الذين يفدون إليها بطريق البر منذ شهر رجب من كل عام من بلاد ما وراء النهر وإيران والأفغان والسند والعراق والأناضول وسواها ، فيجتمعون في هذه المدينة إلى منتصف شهر شوّال . وفي خلال هذه المدة يزورون الأماكن المقدسة ، ويتاجرون مع أهل الشام فيبيعون ما حملوه معهم من مختلف المتاع ، ويشترون لقاءه من المنتوجات الشامية ما يروق لهم للاستعمال والمهاداة والمتاجرة . وكان البعض من تجار حمص وحماة وحلب يأتون إلى دمشق في موسم الحج ويشتركون بهذه التجارة .

---

(176) راجع كتاب «مرآة الشام» لعبد العزيز العظمة ، دار الريّس ، لندن 1987 ، ص 110 .

ثم يضاف إلى هؤلاء الحجاج من يريد أداء الفريضة من السوريين أيضاً ، فيبلغون في بعض السنين زهاء خمسة آلاف حاج بين رجال ونساء وخدّام يؤلفون الركب الشامي الذي يسير بانتظام ويقوده محافظ الحج (أو أمير الحج) الذي كان يعيّن من قبل السلطان شخصياً ، لتأمين راحة الحجاج . وكان أمير الحج الشامي آنذاك عبد الرحمن باشا اليوسف ، الذي حمل هذا المنصب خلال الفترة الواقعة بين عامي 1892- 1918 (177).

وكان ركب الحج يبرح مدينة دمشق في المعتاد في منتصف شهر شوال من كل سنة (تحديداً يوم 16 شوال) ، ويبلغ المدينة المنورة في أواسط شهر ذي القعدة . وبعد أن يمكث في المدينة ثلاثة أيام يشد رحاله منها قاصداً مكة المكرّمة ، فيبلغها في أوائل ذي الحجة . وعقب قضاء المناسك يتحرك من مكة عائداً إلى المدينة المنورة فدمشق الشام ، حسب المراحل التالية ذهاباً وإياباً :

مراحل الذهاب من دمشق إلى المدينة المنورة :

دمشق – تكية العسالي بالقدم – خان دنّون – الكسوة – الكتيبة – المزيريب – الرمثا – المفرق – الزرقا – البلقاء – القطرانة – الحساء – عنزة – معان – العقبة – المدورة – ذات حج – القاع الصغير – تبوك – الأخضر – المعظّم – الدار الحمراء – مدائن صالح – آبار الغنم – بئر الزمرّد – البئر الجديد – هديّة – الفحلتين – آبار نضيف – المدينة المنورة .

المراحل من المدينة إلى مكة :

المدينة المنورة – آبار علي – بئر الماشي – الغرير – الريان – أم الضباع – ظهر العقبة – رابغ (عندها يدخل الحجيج في الإحرام) – القضيمة – عسفان – مكة المكرمة .

المع . دّات

تشتغل مدينة دمشق بأسرها طيلة العام بالحجاج المسلمين ، وإسكانهم خلال مكثهم

---

(177) تقدّم ذكره في كتابنا هذا ، وكنا قلنا إنه تولّي منصبه ، خلفاً لجدّه لأمه محمد سعيد باشا شمدين ، الذي شغل شؤون محافظ الحج الشريف بين 1870-1892 .

فيها وإطعامهم والمتاجرة معهم ، ثم بإعداد ما يلزمهم ويلزم الصرّة السلطانية من الزيوت والشموع والمياه العطرية كماء الورد وماء الزهر ، التي ترسل إلى الحرمين الشريفين لغسل الكعبة والحجرة النبوية (الروضة الخضراء) بهما . ثم بإحضار معدّات الركب من جمال وبغال وخيول ركوب (رهوانات) وخيام (مضارب) ومحاير (محفات) وتخترونات (سرر) وقِرب ومطرات وأقبية (عبي ومشالح) وكفافي وعكل واحرامات وأحذية وثياب وصناديق وأرسان (أعنّة) وسروج ورواحل وحلقات وأجراس وكلاليب وأكمار ومشاعل وفنارات وقطران وشموع ، إلى غير ذلك مما يحتجه الحجاج في رحلتهم .

ثم بتهيئة الزاد والذخيرة بين كعك وبقسماط وجبن ولحم مقلو ومعجنات وخضار مجففة ومربيات وشرابات وما شاكلها . ثم بعلف الدواب وترتيب الرجال الذين يسيرون في خدمة الركب ، فيقودون الجمال ويعلفونها وينصبون الخيام وينقضونها ، ويملأون الماء ويجمعون الحطب ويطبخون الطعام ، وهؤلاء يقال لهم بصيغة الإفراد : عكّام ، مكاري ، قاطرجي ، مهتار ، سقّا ، حمّال ، أجير .

وتعيّن الحكومة بطريقة المناقصة من بين المقتدرين رجلاً يقال له (المقوِّم) ، يقوم بتقديم الجمال وغيرها من المطايا اللازمة للركب في الذهاب والإياب ، بحيث إذا هلك أحدها في الطريق يقوم بتقديم غيره في الحال ، وذلك لقاء أجرة مقطوعة تعينها الحكومة وتعلنها على الملأ . وتأخذ من المقوِّم كفلاء كي لا يقصّر بواجبه ، وإذا قصّر تنوب الحكومة عنه بتأمين مطايا الحجّاج في الطريق . وكذلك تعيّن الحكومة سرية من الجند تتألف من مئتي جندي من راكبي البغال وترفقها بمدفعين جبليين مع ذخائرهما لتأمين المحافظة على الحجاج من تعدّي اللصوص في الطريق .

السَّنجق

عندما يتكامل الركب ، تخرج أولاً الشموع والزيوت والعطور من دار مستلزمها (متعهدها) ، فيحتفلون بها حرمة للمقامات المهداة إليها ، ثم يخرج لواء الرسول الأعظم من مسجد الصحابي الجليل أبي الدَّرداء (عامر الخزرجي الأنصاري) في قلعة دمشق ، ويؤتى به من سوق البوابجية فالأبّارين فالمحايرية فالسروجية فجامع السنجقدار ، حيث يصلي القوم صلاة

العصر جماعة ، ثم يطاف باللواء (السنجق) إلى قصر المشيرية [178] ويوضع في قاعتها الكبرى ، وتتلى قصة المولد النبوي الشريف تيمناً وتبركاً ، ويظل اللواء ليلة في هذه الدائرة تحت حراسة الجند . وتطق المدافع عند خروجه من القلعة ، ولدى وصوله إلى الجامع ، وعند خروجه منه ، وحين دخوله من باب السراي .

المحمل

المحمل [179] هو في الأصل الهودج (العطفة) الذي تركبه نساء العرب أيام الحروب لحث الرجال بالنخوة للدفاع عن العرض والوطن ، ثم اتخذ في القرون الوسطى كرمز لموكب الحج ، وأقرّه سلاطين بني عثمان وصار عنواناً للموكب يروح ويغدو معه في كل عام . وهو عبارة عن محفة كبيرة مجلّلة بالديباج ومنقوش عليها بعض الآيات القرآنية والطغراء السلطانية ، ولها رصافات مموهة بالذهب .

* * * * *

وكان الاحتفال بخروج هذا المحمل مع الحجيج وعودته بموكب عظيم على النحو التالي

كان يوم المحمل بدمشق ، وهو اليوم الذي يلي خروج السَّنجق ، والذي يبدأ فيه جموع الحجاج بالمسير نحو القبلة ، يعدّ من الأيام العظيمة ، حيث تعطل فيه الأعمال في دوائر الحكومة وفي أغلب أسواق المدينة ، وخصوصاً على الطريق الطويلة المستقيمة (الدَّرب السلطاني) التي يسير عليها موكب الحج من سراي العسكرية إلى بوابة الله فالعسالي على مسافة تقرب من 16 كيلومتراً . وكان يخفّ إلى دمشق عدد غير قليل من أهل البلاد والقرى المجاورة للاشتراك

(178) المشيرية أي السّراي العسكري ، كان موقعها عند القصر العدلي حالياً .
(179) انظر الصورة المرفقة ، وهي من الصور النادرة لمحمل الحج بأواخر القرن التاسع عشر .

بالفرجة على الركب والاحتفاء به ووداع الحجّاج الراحلين .

ومنذ بزوغ شمس ذلك اليوم ينهض جميع سكان المدينة تقريباً وروادها من نساء ورجال وشيوخ وأطفال ، وينتشرون على تلك الطريق ويملأون الحوانيت والأسطح وطاقات المنازل وشرفات المآذن . وعند الضحى حيث تكون القافلة أخذت بالمسير يُحمل المحمل على جمل ضخم الجثة ويُسار به وبالسنجق من ورائه بموكب رسمي يتقدّمه نقيب السادة الأشراف بملابسه الخضراء ، ثم أمين الصرّة السلطانية ، ومحافظ ركب الحج الشريف ، ثم أصحاب المراتب السلطانية من علمية وعسكرية وملكية ، بملابسهم الرسمية على أصول التشريفات السلطانية . وتدوّي التحيّة السلطانية الشهيرة : «باديشاهم جوق يَاشا»[180].

ويغادر هذا الموكب باب السراي بين أصوات المدافع وضجيج الخلق ، تحفّ به كوكبات الجند من مشاة وسوارية (فرسان) وسرايا الدّرك والشرطة ، وتلامذة المدارس العسكرية والملكية ، ورجال الطرق الصوفية مهللين مكبرين . ومن أمام المحمل وخلفه تسير جوقتان من أجواق الموسيقى العسكرية تتناوبان العزف بالألحان العسكرية ، وعلى نقاط متقاربة على جانبي الطريق تصف فصائل الجنود المختلفة لتحية الموكب الذي يقطع هذه المسافة بحوالي ثلاث ساعات على الأقل .

وعقيب وصول الركب إلى المضارب التي تكون قد أعدّت على دكّة المحمل في العسالي ، يخف لاستقباله والي الشام (الباشا) ومشير جيشها ، اللذان يكونان قد حضرا سلفاً لتشييع الركب . ثم توزع الحلوى والمرطبات على الحاضرين ، ويُسلم المحمل واللواء إلى محافظ الحج ، حيث يضمهما في صناديق محكمة يتولى حراستها الجند ، ويبيتان ليلتهما في العسالي .

الرّكـ . ـب

ينطلق الحجاج الذين يؤلفون الركب ويغادرون دمشق ميممين شطر القبلة ، ويرافق بعضهم لفيف من الأهل والأصدقاء بغية وداعهم من مسافات مختلفة تختلف بنسبة استطاعة

(180) بالتركية : Padisahim Cok Yasa ، أي عاش مولانا السّلطان .

المودعين ، ويتبعون جميعاً تلك المراحل التي ذكرناها آنفاً . وعندما يبلغ الركب أول مرحلة من مراحله ، يكون العكامون ورفاقهم قد سبقوا إليه ، ونصبوا الخيام وأعدوها على شكل مدينة صغيرة ذات أزقة متعددة ، وهيأوا الماء والحطب وسائر أسباب الراحة . فيترل كل حاج في خيمته ويعلم موقعها الذي لا يتبدل طوال الطريق في الذهاب والإياب ، وتربط المطايا خلف الخيام وإلى جانبها الرحال والأحمال .

وتنار أزقة المضارب ليلاً بالمشاعل التي توقد بالقطران ، وباطن المضارب أيضاً ينار بالفنارات ذات الشموع . وبينما الحاج يتوضأ ويصلي ويتلو أوراده ، يكون العكام قد أعد له الطعام فيأكله بلذة وهناء . وفي أوقات الحط والاستراحة يتزاور الحجاج بين بعضهم ويتسامرون ويتحادثون . وقد جرت العادة أن يكون قيام الركب ونزوله بانتظام تام ، متجمعاً غير متفرق ، كي لا يضل أحد في الطريق التي تماثل بعضها ، ولذلك يطقون المدافع عند الرحيل ووقت اللزوم .

* * * * *

المطايا

مطايا الحجاج ثلاثة أنواع : التختروانات والمحاير والرهاوين . والتختروان كوخ خشبي ذو باب يحمل على جملين أو بغلين متقابلين ، ويجلس فيه رجل واحد مرتاحاً ، والمحارة محفّة تحمل على جمل وتغطى بأقمشة مزخرفة على طراز أقمشة الخيام من نسيج دمشق ، ولها مقعدان يجلس ويرقد فيهما حاجان اثنان . والرهاوين يختارها بعض الحجاج ويفضلونها على المحارة لأنها تساعد على الترول في الطريق ، حيث توجد مقاه سيّارة ترافق الركب في مسيره ، فيشربون فيها القهوة ويدخنون الأركيلة . وأكثر مسافات المراحل طويلة ، لذا يجعلون في منتصف المسافة ساعة استراحة يترل فيها الحجاج ويقضون حاجاتهم ويصلّون ويأكلون ويشربون ويعلفون دوابهم ، ثم يرحلون على أصوات المدافع أيضاً .

الإحـ . ـرام

لما يبلغ الركب أرض رابغ ، وهي من أرض مكة ، يدخل الحجاج في الإحرام ، أي يبدأون بأداء المناسك ، فيخلعون ثيابهم ، ويرتدون مآزر بيضاء غير مخيطة .

الجردة

الجردة إرسالية تجارية تنقل للحجيج ما يحتاجه من مأكل وملبس وغير ذلك من اللوازم الضرورية . وهي كانت تبرح دمشق في الأسبوع الأول من شهر ذي الحجة تحت محافظة سرية من فرسان الدرك ، وتلتقي بالركب في مترلة هديّة ، فتقيم في هذه المترلة وما بعدها من المنازل سوقاً تجارية سيّارة .

عودة الحجّاج

يعود ركب الحج الشامي إلى دمشق في منتصف شهر صفر ، وقبل وصوله يقوم أهل الحجاج وذووهم بإعداد أسباب الإكرام والضيافة لهم والاحتفاء بهم وبحاشيتهم ، فيجهزون لكل حاج وحاجة كسوة جديدة ، وقد تتعدد فتكون أكثر من واحدة . ويذهبون لاستقبالهم ويعودون معهم فرحين بلقائهم ، وتقام لهم الأفراح عقب وصولهم سبعة أيام بلياليها ، والناس تخف إلى دورهم للسلام عليهم والتبرك بهم . وقد يأتي الحجاج ببعض الهدايا من المنتوجات والمصنوعات الهندية ، ومن تمر المدينة المحبّب المدعو (جلبي) ، وهو كبير الحجم صغير النواة لا مثيل له في سائر الجهات ، ومن ماء زمزم والحنّاء وغيرها .

* * * * *

طرائف
من كتاب مجمع المسرّات
للدكتور شاكر الخوري

صور من الحياة الاجتماعية بدمشق

في أواخر القرن التاسع عشر

صيدلية سوق الخيل

كنتُ ساكناً في الشام بحارة باب توما ، أما الذوات والأغنياء فكانوا يقطنون الجهة الأخرى ، مثل باب ساروجا والقنوات ، فارتأيتُ ان أنشيء صيدلية في تلك الجهة أكون فها بعد الظهر ، وقبله أبقى في جهة باب توما .

وصيدلية سوق الخيل كانت ملك أمين افندي الجندي ، الذي هو من أسرة الجندي التي أصلها من حماة ، وكان من أعظم سراة دمشق ، لأنه كان مفتيها سابقاً ، وقد أقامه بهذه

الوظيفة فؤاد باشا سنة 1860 [181]، ثم تعين عضواً في مجلس شورى الدولة ، ثم أُرسل الى اليمن لأجل تنظيم محاكمها ومجالسها وكل شيء علمي فيها ، ثم عاد إلى دمشق وقطنها بعزّ وجاه وغنى واعتبار ، وكان كل أهل دمشق يقبّلون يديه . ومحله قرب المستشفى العسكري [182]، وهو مترلان متّسعان جداً.

أما عدم توفيقه بالاولاد فأمر مستغرب ، وقد قال لي انه ولد له سبعة عشر ولداً زوّج معظمهم فأولدوا ، غير أنه لم يبق من نسله إلا حفيده أمين .

[حكاية الحمار]

بما أن سكني كان في باب توما والصيدلية بسوق الخيل ، اضطررتُ أن أشتري حماراً لينقلني من جهة إلى أخرى . وكان هذا الحمار ينهق دائماً ، ولما كنت أربطه على باب الصيدلية كان يقلق الجيران بصوته المزعج ويقلقني . ولما أذهب إلى مترل أمين أفندي الجندي ، كنت أربطه قرب الباب ، غير أنه كان يبدأ بالنَّهيق إلى ما لا نهاية ، حتى يضطر الأفندي إلى السكوت أحيانا والنظر إلي بلطف ، فكنتُ أخجل منه .

وفي أحد الأيام ، بينما كنتُ أقرأ كتاباً إفرنسياً اسمه «تذكار الحمار» [183]، رأيتُ به فقرت [184] ذكرت ان اللصوص إذا أرادوا سرقة حمار ربطوا ذيله ليمنعوا نهيقه . وقرأتُ

---

(181) فؤاد باشا كان المندوب الذي أوفدته الدّولة العثمانية ، بصلاحية مطلقة ، للتحقيق في مجازر عام 1860 التي راح ضحيتها آلاف المسيحيين ، ولمعاقبة فاعليها .

(182) المستشفى العسكري المعروف في أواخر العهد العثماني بالخَستَخانة ، كان موقعه في بوابة الصالحية عند دار المهندسين ومرآب فندق الشام في عصرنا .

(183) لا ندري العنوان الأصلي للكتاب الفرنسي ، لكننا نخاله يكون : *Mémoires d'un An* ، أي : مذكرات حمار .

(184) يريد : فقرة . وهكذا نرى بعض مثقفي لبنان يكتبون التاء المربوطة ، ويلفظونها ، بتاء مبسوطة ، فأكثرهم يقولون : ألجمهوريتْ أللُبانيّتْ .

سيرة عنترة بن شدّاد ، فرأيتُ بها أن متى أراد إخفاء صوت أبجره ربطه بذيله ، كي لا يصهل . فصرتُ أُعلّل هذه المسألة طبّياً ، وعرفتُ أن الحمار متى أراد النهيق يحرّك ذيله ، خصوصاً إلى الأعلى ، ولربما هذه الحركة تسعفه على النهيق ؛ أما إذا أُثقل ذَنَبه فيبطل نهيقه .

لذلك ارتأيتُ أن أجرِّب ، لأن التجربة أقوى الأدلة العقلية والنقلية ، فأخذتُ معي عياراً نحاسياً من الصيدلية ، وربطتُه بذيله . وبعد برهة ، بدل ما أسمع نهيق الحمار سمعتُ نهيقاً آخر يشتم الحمار وصاحبه ، فنهضت لأرى سبب ذلك ، وشاهدتُ رجلاً من الأعيان يقول : لمن هذا الحمار الذي يرفس كل من مرّ بجانبه ؟ وما هذا الثقل المعلق بذيله ؟ فأخبرتُه قصّته ضاحكاً ، قال : إن نهيقه لا يضرُّ كرفسه ، فارفع عنه هذا الثقل ، ودعه ينهق ما شاء ، ولا تدع المارّين تنهق ضدّك [185] .

لو كان لحم الحمار يؤكل !

ذهب طبيبٌ مع تلميذه لعيادة مريض ، ولمّا وصلا إليه سأل الطبيب المريض : هل أكلتَ بطيخاً ؟ فأنكر أولاً ، ثم أقرّ ، فعالجه وذهب . فتعجّب التلميذ من ذلك وسأل معلّمه : من أين عرفت أن المريض أكل بطيخاً ؟ قال : أما نظرتَ عند دخولنا قشر البطيخ بكثرة قرب الباب ؟ قال : بلى ! قال : منه حكمتُ أن المريض أكل بطيخاً . فتعلّم التلميذ .

وفي ذات يوم ، طُلب التلميذُ لمريض ، لأن الطبيب كان غائباً . فدخل على المريض وقال له : لماذا أكلتَ لحم حمار ؟ فتعجّب المريض من هذا السؤال ، وأنكر . وعرف الطبيب قصّته ، فسأل تلميذه : كيف علمتَ أن المريض أكل لحم حمار ؟ قال : ألم تُخبرني أنه متى وُجد شيء قرب باب المريض يكون أكل منه ؟ فأنا رأيتُ جلال حمار في الخارج ، وحكمتُ أن المريض أكل لحم حمار .

فقال الطبيب : لو كان لحم الحمار يؤكل ، لما بقيتَ إلى اليوم ! اذهب واستبدل

---

(185) مجمع المسرّات ، ص 263-264 .

صنعتك ، لأنها لا تليق بك ولا أنت أهلٌ لها [186].

* * * * *

(186) مجمع المسرّات ، ص 370 .

دمشق الشام [187]

هي أقدم مدينة في الدنيا نظراً لتاريخها وموقعها الطبيعي ، لأن الإنسان بعد حالته البدوية ارتأى ان يسكن محلاً ، فاختار ما جاور الكلأ وخصب التربة لمرعاه ومرعى مواشيه ، ولم تجمع بقعة في بلادنا هذه الشروط نظير دمشق . وذهب بعضهم أنها هي الفردوس الأرضي حسب التوراة ، وأن بعد خروج آدم منها وطرده عاش في الأرض المقفرة الكائنة غربيها ، واستدلوا على ذلك من الأسماء التي فيها نظير أبيلا وهي أن قاين قتل أخاه هابيل فيها . وإن لم تكن دمشق الفردوس الأرضي ، فإنها دون شك مثال الجنة فيها الأنهار والعسل واللبن ومن كل فاكهة زوجان وحور الحين ، ومن رأى دمشق وأنهارها وفاكهتها ولبنها وعسلها وحورها لا يشك بأنها مثال الجنة المستقبلة أو هي الجنة الحاضرة .

ولا أتعرّض لذكر تاريخها ، فقد تقدمني الكثيرون ، غير أن منه ما لم يزل غامضاً وذلك لعدم الحفريات على الآثار القديمة التي فيها ، لأن تربتها كثيفة وسببها الأتربة التي تتساقط عليها كل سنة من الأعلى لأنها واقعة في سهل ولو أرادوا الكشف عن حفرياتها للزم عمق عظيم . ولا أذكرشيئاً عن قدمها إذ هو معلوم أن في ايام ابرهيم الخليل كانت عامرة ، وأنه أخذ خادمه اليعازار الدمشقي منها ، ولا أقول إلا ما رأيته فيها : قد شبّهتُها من الصالحية بمركب سائر في بحر أخضر ، وقد ذكرتُ عنها وعن أهلها ما هوكاف بكتابي «صحة المتزوج وزواج العازب» .

---

(187) النصوص من كتاب مجمع المسرّات ، ص 261 وما بعدها .

ولما رأيت دمشق وفرقها عن عكا ، اكتريتُ محلاً في حارة باب توما خاصة الحموي الذي كان أعمى وصاحب لوكندة .

* * * * *

شغلي الطبي في الشام

لما اكتريت محلي في الشام وعزمت على الإقامة فيها ، كتبتُ إعلان ونشرته في المدينة وهذا نصه :

قد حضر إلى هذه المدينة الدكتور شاكر الخوري ، وهو تلميذ مدرسة القصر العيني بمصر ، ويعاين المرضى بمحله الكائن بباب توما في لوكاندة الحموي . ومن اختصاصاته مداواة أمراض العين على اختلافها ، ولا يطلب أجرة إلا بعد شفاء المريض .

وجعلت هذه الجملة الأخيرة رواجاً عظيماً علي ، وفي اليوم الثاني كان ازدحام المرضى لا يُقدّر ، وهم يزيدون على المائة أعمى تقريباً ، فصففتُهم بالدار وابتدأت بمعاينتهم ، وكنتُ الذي أرى داءه غير قابل للشفاء أخرجه من الصف وأرسله من حيث أتى ، أما الباقون فكلفتهم أن يعودوا إلى منزلي لإجراء العملية لهم ، واشترط عليهم أن يبقوا في منزلي بغرفة مخصوصة لينالوا الشفاء التام وأجريت منها خمس عمليات كحدقة صناعية وكتركتا (ماء زرقاء) .

وبعد ثمانية أيام شفى الخمسة عميان ، وكانوا من الذين يمشون أمام الأموات ومشهورين بعماهم ، فأبقيتهم عندي إلى يوم الجمعة وكلّفتهم أن يذهبوا إلى الصلاة في الجامع الأموي وأن يعودوا إلى منزلي ، وأبقيت عصبهم رهناً عندي . وبعد الظهر رجعوا إلي ومعهم جمٌّ غفير يتعجبون من شفائهم .

ورأيتُ فتاة تتسوَّل بالمحلات العمومية وعينها شطراء ، فأعطيتها ليرة فرنساوية لتقبل معي أن أجري لها عملية ، وأبقيتها عندي حتى نالت الشفاء وعادت إلى صنعتها . فكان كل

من يراها يعجب من شفائها ، وهذا العمل هو الذي سبب لي النجاح ، لأن أطباء دمشق المخصوصين لأمراض العين كانوا من الدَّجالين من عائلة بيت صخر وعائلة أخرى تدعى عائلة الكنفاني [188].

وبعد مدة خرجت من منزلي الأول واستأجرت محلاً شرقي البطريركخانة المارونية ملك السغبيني ، واضطررت أن اشتري أثاثاً وأمتعة لأن المنزل الذي كنت استأجرته كان بأمتعة من صاحبه .

ناشد باشا

حين أتيت إلى الشام كان والياً عليها صاحب الدولة الحاج ناشد باشا ، وبعد مدة عُزل وتعين محله ضيا باشا [189].

ضيا باشا

هو أحد الولاة العظام ، تلقّى علومه في أوروبا ، وكان متمدناً جداً عفيف النفس ذا حميّة وغيرة . أخبرنا أن أوربا ليست كما نظن فيها وأن المعارف سائدة بكل نواحيها ، بل فيها من هم في حال من الجهل عظيمة ، وقد أخبرنا القصة الآتية :

قال : كنت مسافراً بالسكة الحديدية ، وكان فيها عدة نساء يتكلّمن عن الشرقيين ويقلن لبعضهن أن لأهل الشرق قروناً تنبت في رؤوسهم . فعند ذلك تقدّمتُ إليهن كشفتُ عن رأسي وقلت لهن : اسمحن لي أيتها السيدات أن اغالطكن في ما تقلنه ، فها أنا شرقي

(188) يذكرنا هذا بما روته فاطمة البديوي عن مداواة العيون بدمشق آنذاك حوالي عام 1875 .

(189) كانت ولاية راشد ناشد باشا 8 أشهر في عام 1876 ، ثم وليها ضيا باشا في نفس السنة .

ورأسي لا قرون فيه ! فلم يصدّقن أنني شرقي ، بل قلن لي : لو كنتَ من هذا الجنس لكان برأسك قرون ! فانظر الى هذا الجهل السائد في بلاد المعارف .

وأهم ما فعله ضيا باشا في الشام هو :

حجرة صلاح الدين الأيوبي

عندما زار ضياء باشا قبر صلاح الدين الأيوبي ، ورآه بحالة دارسة ، قال لمن حوله : أهكذا تفعلون بمحافظ الدين والإسلام والمدينة ؟ ألا تذكرون أنه هو الذي أعاد هذه البلاد إلى الإسلام بتعبه وجهاده ، ولولاه لماكنتم فيها الآن ؟ فيلزم أن نصلح هذه القبة ، ونقيم له مقاماً لائقاً به .

فادَّعوا عدم وجود الدراهم . قال : إني أوجدها لكم . وعمل لائحة وزّع بها على بعض الذّوات قدراً معلوماً ، حتى جمع مبلغاً غير يسير ، وأقام حجرة عظيمة باقية حتى اليوم .

وصلاح الدين الأيوبي هو الذي حكم سوريا ومصر وكان أعظم حاكم بالعدل والإنصاف ، وقد حفظ له التاريخ ذكراً مجيداً وحسنات وشهامة لم يذكرها لسواه ، حتى أن أعداءه الصليبيين يشهدون له هذه الشهادة . وكان عدوه الأكبر ريكاردوس قلب الأسد ملك الانكليز ، فكانا عند انتهاء المواقع يجتمعان ويأكلان سوية ، وفي الحرب يعودان إلى العداء [190]. ولما تهادنا رجع ريكاردوس إلى مملكته وبقي صلاح الدين في بلاده ، وتوفي بدمشق و لم

(190) ليس ذلك بصحيح ، وهذه الرّواية روّج لها القصّاص السكوتلندي الشهير والتر سكوتّ Sir Walter Scott في روايته المعروفة «الطّلّسْم» *The Talisman* . أما الواقع فأن الملكين كانا يتهاديان ويتبادلان الأطعمة ، دون أن يلتقيا ولا مرّة واحدة ، بل كانت هناك لقاءات عديدة بين الملك ريتشارد وأخي صلاح الدين الملك العادل سيف الدين أبي بكر محمد ابن أيوب ، وما يهم ذكره أن ريتشارد عندما عجز عن استرداد القدس الشريف الذي حرّره صلاح الدين عقب حطين عام 1178 م ، لم ير بُدّاً من استجداء الصلح مع السّلطان . ولقد فصّلنا في كل ذلك بنشرتنا للكتاب الرائع الذي وضعه بهاء الدين ابن شدّاد في سيرة السّلطان الناصر صلاح الدين : «النوادر السُّلطانية والمحاسن اليوسفية» ، صدر عن منشورات دار الأوائل بدمشق 2002 .

يخلّف شيئاً من المال ، فدُفن في القلعة الأول ، ثم نُقل إلى الصالحية ، ثم إلى جانب الجامع الأموي الشريف حيث لم يزل هناك .

وقد أناط ضيا باشا هذا العمل بصاحب الدولة أحمد عزت باشا العابد ، الذي كان يومئذ رئيس الأقلام بدمشق . والذي بنى الحجرة رجل نصراني من دمشق اسمه الوردي وهو من النحاتين المشهورين .

حالة صلاح الدين

قد أخبرني يومئذ دولتلو أحمد باشا والوردي الذي كان نحاتاً مسيحياً أنهما حين أرادوا نقل التابوت إلى الحجرة وجدوا الجثة على حالتها الطبيعية ، كأنها دُفنت حديثاً وليس من ستمائة سنة ، وكان لم يزل شعر رأسه وشاربه ولحيته [191].

ولم تطل مدة ضيا باشا ، حتى نقل الى أدرنه ، وتوفي فيها ، وخلفه دولتلو «جودت باشا» . إن الشهرة الى اكتسبها صاحب الدولة جودت باشا لتأليفه تاريخ الدولة العلية ولعلومه الشرقية وتعبه في ترتيب المجلة والنظامات ، كانت عظيمة جداً . وقد اتى معه احد مواطنينا الدكتور الياس أفندي مطر ، وجعله طبيب بلدية الشام بدلاً عن الدكتوركوسيني .

مستشفى نور الدين

---

(191) هذا الأمر وارد بحسب معدّل الرطوبة الموجود في الأرض . ولقد روى لي أستاذنا وصديقنا الحبيب الأستاذ هاني المبارك ، أنه حضر بنفسه في عصرنا عملية ترميم أجريت لضريح البطل صلاح الدين ، وشاهد بنفسه جثمانه ، الذي لم يزد على بقايا عموده الفقري . وطبيعي أن فتح الضريح في عام 1876 ودخول الهواء إليه قد أدّى إلى تكاثر البكتيريا التي أدّت إلى التحلل النهائي للجثمان . وإن كان كل ذلك لا يعني شيئاً !

كان في دمشق مستشفى قديم جداً بناه نور الدين ، وأوقف له أوقافاً عظيمة وعيّن فيه أطبّاء ومستخدمين عديدين ، منهم فئة وجدتُ أسماءهم في دفاتر قديمة في هذا المستشفى ، كانت تُدعى المطمّنين ، ووظيفة المطمِّن أن يجلس في غرفة قريبة من محل المريض بحيث يسمع صوته ويقول : إن الطبيب أخبرني عن فلان النائم في الفراش الفلاني أن مرضه بسيط جداً وسيشفى عن قريب . فحين يسمع هذا القول يتنشّط ويكون النشاط سبباً لشفائه ، فانظر الى هذه العادة الجميلة التي غفلت عنها مستشفيات عصرنا (192).

أما حالة هذا المستشفى الآن فهي عبارة عن بناء قديم من تلك الأيام ، وأوقافه قليلة جداً لا تكاد تفي راتب الناظر والكاتب والمصاريف الي يتطلبها خمسة او ستة مرضى ، وقد خصّوه للمجانين (193)، ومن واجبات طبيب البلدية زيارته وعيادة المرضى كل اسبوع على الأقل (194).

---

(192) حقاً فهذا أمر لطيف ويدل على سموّ الحسّ الحضاري لأهل ذلك العصر . وحكاية هؤلاء المطمّنين في البيمارستان النُّوري ودفاتر أسمائهم ينفرد بذكرها الدكتور شاكر الخوري .

(193) ولذلك صارت كلمة «المرستان» بدمشق تعني مشفى الأمراض العقلية ، أو «العصفوريّة» كما يسمّيها بعضهم . أما أصل الكلمة ففارسي مركب من مقطعين : بيمار - استان ، أي محلّ إقامة المرضى ، أو مشفى . يحكي الرّحالة الأندلسي ابن جُبير ، حينما زار دمشق عام 580 هـ ورأى بها البيمارستان النوري : وللمجانين المعتقلين أيضاً ضرب من العلاج ، وهم في سلاسل موثّقون ، نعوذ بالله من المحنة وسوء من القدَر . وتندُّ من بعضهم النوادر الظريفة ، حسبما كنّا نسمع به . ومن أعجب ما حُدِّثتُ به من ذلك : أن رجلاًكان يعلّم القرآن ، وكان يقرأ عليه أحد أبناء وجوه البلد ممن أُوتي مسحة جمال واسمه نصر الله ، وكان المعلم يهيم به ، فزاد كلفه حتى اختبل وأُدّي الى المارستان ، واشتهرت علّته وفضيحته بالصبيّ ، وربما كان يُدخله أبوه إليه . فقيل له : اخرجْ ، وعُد لما كنت عليه من القرآن ! فقال متماجناً تماجُن المجانين : وأي قراءة بقيت لي ؟ ما بقي في حفظي من القرآن شيء سوى : { إذا جاءَ نَصْرُ الله } ، فضُحك منه ومن قوله . ونسأل الله العافية له ولكلّ مسلم . فلم يزل كذلك حتى توفي ، سمح الله له .

(194) بعد هذه الفقرات في نص الدكتور شاكر الخوري معلومات تاريخية هامة عن شمدين آغا الدّقوري ، أحد أعيان الأكراد بدمشق في عصره ، وهو

الذي تولى ابنه محمد سعيد باشا إمارة الحج الشامي (1870-1892 م) ، ثم تبعه في ذلك حفيده عبد الرّحمن باشا اليوسف (1892-1918 م) .

نبذة تاريخية
في الحرف الدّمشقيّة

تأليف

الياس عبده قدسي

قدّمها لمؤتمر المستشرقين
المنعقد في لايدن بهولاندة 1883

توطئة

أثناء بحثي عن بعض المصادر التاريخية المتعلقة بمدينة دمشق ، عثرتُ بالمصادفة على رسالة صغيرة هامَّةٍ تدخل في نطاق التاريخ الحضاري لدمشق ، عنوانها : «نُبذة تاريخيَّة في الحِرَف الدِّمشقيَّة» ؛ فتبيَّنتُ على الأثر نُدْرةَ هذه الرِّسالة ، إذ أنَّها مطبوعة في لايدن بهولاندة عام 1885 ، فصار من المُتعذِّر حقّاً العثورُ عليها لمراجعتها والاستفادة منها ، وقد لاحظت أنَّ

نادراً ما أشار إليها أحدُ الباحثين المعاصرين ، واختفى اسمُها تقريباً من قوائم المصادر والمراجع التاريخيَّة المتخصِّصة .

ولذا رأيت من المفيد إعادةُ نشر هذه الرِّسالة من جديد مع شيءٍ من التحقيق تعميماً لفائدتها ، وتيسيراً في وضعها بين أيدي الباحثين المهتمِّين بتاريخ مدينة دمشق وما يتعلَّق به .

لا ريب أنَّ البحث في موضوع الحِرَف الدِّمشقيَّة أمر هامٌّ للغاية ؛ إذ يمكن التعرُّفُ من خلاله على سِمَةٍ واضحة من سِمات الحضارة التي كان ينطبعُ بها مجتمعنا الدِّمشقيُّ قبل قرونٍ مضت . ومن المعلوم أنَّ بحثَ تاريخ الصِّناعات الحرفيَّة لمجتمع مدينةٍ ما كفيلٌ بإعطاء صورةٍ صادقةٍ عن ركنٍ أساسيٍّ من أركان الحياة الاجتماعيَّة السَّائدة فيها لعصرٍ من العصور ، ذلك لأنَّ الحِرَفَ ترتبطُ ارتباطاً وثيقاً بحياةِ عامَّة الناس ، طالما أنَّها تشغلُ نصف الاهتمام اليوميِّ لكلِّ فردٍ منهم دونما استثناءٍ .

ويعكس تطوُّر الحِرَف الصِّناعيَّة والفنِّيَّة مدى رُقِيِّ الثَّقافة الاجتماعيَّة ، ومدى رُسوخِ عُنصُرِ المدنيَّة الفعَّال في حياة عامَّة النَّاس .

تبرزُ مكانةُ هذه الرِّسالة التي بين أيدينا في أنَّها تُدوِّنُ لنا معلوماتٍ واقعيَّةً عن نمط الإدارةِ الحِرَفيَّة في مدينة دمشق [195] قُبيل التَّحديث الذي طرأ على مجتمعنا منذ بدايات القرن العشرين ، والذي رافقه قيام تحوُّل جذريٌّ في جميع ظروف حياتنا ، انعكس منه ما انعكس على الحِرَف الدِّمشقيَّة فاندثر بعضُها لقلَّة الحاجة إليه [196].

وظهر منها ما هو جديد طِبقاً لحاجات المدنيَّة المعاصرة . أضِفْ إلى ذلك تحوَّل النِّظام الحِرَفي من يدويٍّ إلى آليٍّ . ومن فرديٍّ إلى اقتصاديٍّ عامٌّ . وانتقال إدارته وتنظيمِه تدريجيّاً إلى أيدي الدَّولة بدلاً من إدارته الشَّعبيَّة المستقلَّة .

ونظراً إلى ما سبق تتبيَّن ضرورة دراسة نُظُمِ إدارة الحِرَف ما قبل التَّحديث ؛ لفهم علاقات مجتمعنا الاقتصادية التي رسمت – وترسم دائماً – دوراً هامّاً في تسيير مجريات أموره

---

(195) وذلك في القرن التاسعَ عشرَ ، بأواخر عهد الدَّولة العثمانيَّة .
(196) تجد بعض هذه الحرف البائدة في «قاموس الصِّناعات الشَّاميَّة» للقاسمي .

العامَّة . ولكم يبدو لنا يسر هذه الدِّراسات إذا ما علمنا أنَّ مجتمعنا يومذاك كان يستوحي موازين نظمه الاقتصاديَّة من تراثه وفكره الخاصِّ ، لا من الأفكار والنُّظُم المجلوبة من الغرب . وهذا يعني أنَّ الدِّراسةَ تجيءُ عندئذٍ على غايةٍ من الصَّفاء والانسجام ؛ لانعدام المداخلات الغربيَّة المتباينة فيها .

لقد كانت ممارسة الحرف اليدويَّة صفةً لازمةً لجميع أفراد المجتمع الدِّمشقيِّ فيما مضى ، فقلَّ أن تجد شخصاً - مهما كانت مكانته الاجتماعيَّة - لا يُتقن مهنةً يدويَّةً ما . ويذكر الشَّيخُ نجم الدِّين الغَزِّيُّ في كتابه «الكواكب السَّائرة بمناقب أعيان المائة العاشرة» [197] أعلاماً كثيرين بدمشق كانوا من أكابر عصرهم وعلمائه . ومع ذلك لا يستنكفون أن يعيشوا من عمل أيديهم في مهنٍ شتَّى ، كنسخ المصاحف ، والوراقة ، وصناعة الحبر ، ونسج المضرَّبات وغيرها ، غير معتبرين أنَّ من شأن ذلك الحط من مكانتهم وقدرهم [198].

أما بعد ذلك فقد طغت الآلة ، وصارت الحرف والصِّناعات مختصَّةً بأصحابها فقط ، وأضحى تأمين حاجات المجتمع منها منوطاً بفئةٍ قليلة ؛ لظهور إنتاج الجملةالمكثَّف ، وعزف الباقون عنها منصرفين إلى المهن الأخرى الإداريَّة والعلميَّة .

إنَّ الباحثَ في مجال تاريخ الحرف الدِّمشقيَّة لو رام الاستقاء من المصادر المختصَّة لن يجد سوى بعض البحوث القليلة ، أذكر منها :

- «كتاب في الحسبة» [199]، ليوسف بن عبد الهادي (توفي عام 909 هـ .) :

وهو رسالةٌ موجزةٌ ، ذكر فيها صاحبها قواعد الحسبة على صنائع دمشق ، ويُستفاد من تعداده لأسماء هذه الصَّنائع التي كانت بدمشق في عصره (أواخر عهد المماليك) .

---

(197) صدر بثلاثة أجزاء في منشورات الجامعة الأميركيَّة في بيروت ، 1945 - 1959 .

(198) ناهيك أنَّ سلاطين بني عثمان أنفسهم ماكان واحدهم يسعُهُ جهلُ صنعةٍ يدويَّةٍ ما ، فكان فيهم الخطَّاط والنَّجَّار .. وغير ذلك .

(199) سننشر هاتين الرسالتين ضمن كتابنا : «دمشق في العهد المملوكي» - الجزء الأول .

- «نزهة الرّفاق عن شرح حال الأسواق» [5]، لنفس المؤلّف :

رسالةٌ موجزةٌ ، فيها أسماء بعض أسواق دمشق التي كانت في عصر الكاتب ، وذكر ما يُصنع ويباع بها .

- «قاموس الصِّناعات الشّاميَّة» (بدائع الغِرَف في الصِّناعات والحِرَف) [200]، لمحمد سعيد القاسمي وجمال الدِّين القاسمي وخليل العظم .

وهو أهمُّ مصدرٍ يعدد حرف دمشق وبيان أوضاعها في القرن التاسع عشر ، وهو بالإجمال أحسن ما كُتب في موضوعه .

- دراسات وتعقيبات على قاموس الصِّناعات ، منها :

«المظاهر الاجتماعيَّة في قاموس الصِّناعات الشّاميَّة» ، لظافر القاسمي [201].

«أضواء على قاموس الصِّناعات الشّاميَّة» ، لبدر الدين السّباعي [202].

- «فنون وصناعات دمشقيَّة» [203]، لمنير كيَّال :

وهو كتابٌ حديث ، يتناول الموضوع من ناحية فنيَّةٍ ، مع تقديمٍ موجَزٍ لبعض الخلفيات التَّاريخيَّة .

فعسى أن يكون في «النُّبذة التَّاريخيَّة» التي نقدِّمها اليوم سَدّ للنَّقص ، وهي بتفرُّد موضوعها تكمِّل قاموس الصِّناعات الشَّاميَّة الذي اكتفى بسرد أسماء الحِرَف بدمشق وبيان معانيها وأحوالها ، بينما تُعنى هذه النُّبذةُ بشرح النِّظام الإداريِّ الحِرَفيِّ الذي كانت تنتظم فيه تلك الحرف سابقاً ، في القرن التاسع عشر .

---

(200) صدر بجزئين في دمشق عام 1960 .

(201) مقالة في كتاب «أبحاث المؤتمر الدّولي الثّاني لتاريخ بلاد الشّام» ، المنعقد بدمشق 1978 ، 1 : 156 - 175 . وأعيد نشرها في مجلّة التراث العربي ، 1 : 126 - 139 .

(202) كتاب نشرته دار الجماهير بدمشق 1977 .

(203) نُشِرَ بدمشق ، وزارة الثقافة 1962 .

وهي – فوق ذلك – تكشف أعرافاً وتقاليدَ ارتبطت بالحياة الحرفيَّة في دمشق ردحاً طويلاً من الزَّمن ، ثمَّ اختفت مع تعاقب السِّنين حتى صارت في آيَّامنا نسياً منسيّاً .

* * * * *

طُبعت هذه النُّبذة التاريخيَّةُ – كما أشرتُ آنفاً – في لايدن بهولاندة عام 1885 باللُّغة العربيَّة ، وقد قام بنشرها المستشرق السُّويدي المعروف كارلو لاندبرغ (204) Carlo Landberg مع تصدير كَتَبَهُ بالفرنسيَّة ، وأضاف إليها بعض الحواشي .

وها أنا ذا أسوق ترجمة المقدِّمة الفرنسية ، ومن بعدها نصّ الرِّسالة الذي أضفتُ إليه بعض التعليقات والملاحق . وتمييزاً لتعليقاتي من حواشي القدسي ولاندبرغ ذيَّلتُ كلاًّ منها باسم صاحبه . وقد حافظتُ على لغة النَّصِّ الأصليَّةِ كما هي ، رغم ما يفشو بها من أغلاط وتعابير عاميَّة ، وذلك لأنَّه نصٌّ كُتِبَ منذ قرنٍ مضى ، والأولى عدمُ التَّعديل به إلاَّ حيثُ تستوجِبُ الضَّرورة .

6 كانون الأول 1981 م

أحمد إيبش

* * * * *

---

(204) مستشرق معروف (1848 - 1924) ، ترجمته في مجلة المجمع العلمي ، 4 : 445 ، وأعلام الزركلي ، 6 : 66 .

ترجمة المؤلف [205]

إلياس عبده قدسي

1850 - 1926 م

ولد بدمشق عام 1850 م ، وأخذ مبادئ العلوم في المدرسة البطريركيَّة بدمشق ؛ فتلقّى فيها أُصل العربيَّة واليونانيَّة ، ثمَّ وافى مدرسةَ عينطورا في لبنان (وكانت من أشهر المدارس الثَّانويَّة الخاصَّة) فأتقن فيها الفرنسيَّة . وبعد ذلك غادر الشَّامَ إلى أثينة ، فدرس في جامعتها ستَّ سنين ، ونال منها شهادة اللّيسانس في اللُّغة اليونانيَّة القديمة والحديثة وفي الفلسفة . وتعلَّم مبادئ الإيطاليَّة والإنكليزيَّة والتركيَّة .

عاد سنة 1872 إلى دمشق فتولّى نيابةَ شؤون القنصليَّات اليونانيَّة والبرتغاليَّة والبلجيكيَّة والهولانديَّة ، وظلَّ على ذلك إلى سنة 1888 م ، فوُلّيَ قُنصُلاً لليونان ثمَّ وكيلاً للنِّمسا والمجر ، وقُنصُلاً للبرتغال إلى قُبيل وفاته [206].

وقد تعيَّن عضواً في المجمع العلمي بدمشق (مجمع اللغة العربيَّة الآن) ، وقام بتأسيس (الجمعيَّة العلميَّة التاريخيَّة) بدمشق عام 1878 (زالت) . وكان قد نُدِبَ لإدارة مدارس الرُّوم بدمشق ، فأنشأها إنشاءً جديداً ، وظلَّ يديرها ويعلِّمُ فيها أحياناً مدة 33 سنةً .

كان القدسي لغويّاً وأديباً وشاعراً وباحثاً بالتَّاريخ ، وكان المرجعَ الأوّلَ بدمشق في

---

(205) هذه الترجمة مُستقاة من : معجم المطبوعات لسركيس ، ص 1496 - 1497 ، مجلة المجمع العلمي ، مجلد 6 (عام 1926) ، ص 370 - 372 ؛ الأعلام للزركلي ، 1 : 349 ؛ معجم المؤلفين لكحَّالة ، 2 : 315 .

(206) ومراراً ما نجد اسمه في السجل الرسمي السنوي «سالنامه ولايت سوريه» بالتركية : يونان قونسلوس مأموري موسيو الياس قدسي . كما في العدد 24 لسنة 1891 ، ص 131 .

اللهجة العاميَّة (على قول العلاّمة محمد كرد علي) [207]. وله نحو 20 قصّةً تمثيليّةً طُبِعَ بعضُها ، ورسالة في مسلك الدَّفاتر (طبعت) ، ومقالة في الحرف الدِّمشقيَّة (وهي موضوع نشرتنا) . وقد جمع طائفةً من الأمثال الدَّارجة بالعربيَّة وقابلَها بما يُماثلُها في اللُّغات الأوربيَّة ، بلغت نحو 3000 مثل (لم تطبع) .

ومن أبحاثه : مقابلة بين اللغة اليونانيَّة القديمة واللغة العربيَّة ، والبرهان على اشتراك اللُّغتين في بعض الاشتقاقات (نشر بعضُهُ في مجلَّة مجمع دمشق) . وكان له ولعٌ بالقراديَّات ، أي الشِّعر العامّيِّ ، فنظم فيه بعض النَّوادر والوقائع ، ومنها ما نقله عن لافونتين (La fontaine) القصصيِّ الفرنسيِّ المشهور ، ومنها ما وضعه وضعاً ، ويدخل ما نظمَهُ في مجلَّدين لم يُطبَعا . وممَّا حذا به حذوَ لافونتين : «نوادر وفكاهات من أحاديث الحيوانات» ، باللغة العربيَّة الدَّارجة (طبع بدمشق 1912) .

وتوفي القدسي بدمشق عام 1926 م .

* * * * *

(207) نتمنّى اليوم لو كان القدسي جمع في موضوع اللهجة العاميّة الدمشقية مصنّفاً وافياً ، على غرار ما جمعه علاّمة حلب خير الدين الأسدي في موسوعته المقارنة عن لهجة حلب وتراثها اللفظي . فهذا الأمر لم يُعن به إلى الآن أحد بما فيه الكفاية ، ولا شك أن دراسة أصول اللهجة العاميّة من ألفاظ وكنايات وأمثال ، أمر يفيد البحث في أصول التراث الشعبي أيما إفادة . وكنا جمعنا من هذه الألفاظ والكنايات الكثير مما يُعدّ بالآلاف ، ورددناها إلى أصولها من الفصيح واللغات الأخرى ، التركية والسريانية والفارسية والفرنسية والإيطالية والإنكليزية والألمانية ، مع دراسة لغوية مقارنة عن اللهجة العاميّة بدمشق . وسنعمل على نشرها يوماً .

لم يصلني الموضوع الذي بين أيديكم إلاّ بعد انقضاء هذا المؤتمر ، وكان قد تخرَّق تماماً بسبب أجهزة التطهير البريديَّة لدرجة أنّني في بادئ الأمر قطعت الرَّجاءَ نهائيّاً من إمكانيَّة إعادة إنشاء النصِّ من جديد . ولحسن الحظِّ كانت مادَّته مألوفةً لي تماماً ، وبالإضافة إلى ذلك كنتُ حريصاً على أن أُبيِّنَ للشَّرقيِّين بهذه النَّشرة مدى رغبتنا في رؤيتهم مهتمِّين قليلاً بالعلم لأجل العلم المجرَّد . فلربما كانت هذه المرَّةَ الأولى التي يقوم فيها أحد العرب بتقديم عمل أمام مؤتمر المستشرقين . وقد لا يعني ذلك أنَّ هذا العمل مكتملٌ تماماً ، ولكنَّ المؤلِّفَ استطاع أن يقدِّمَ فيه كثيراً من التَّفاصيل ، وهو بالدَّرجة الأولى أفلح في إعداد موضوعٍ ذي فائدةٍ وافيةٍ وأهمِّيَّةٍ كبيرةٍ .

إنَّ مؤلِّفنا الشَّابَّ الذي تلقَّى ثقافتَهُ في الخارج بمنتهى العناية ، قد وعدنا بتقديم الكثير إذا هو شاء بمتابعة تفرُّغه للعلم . ولقد كنتُ أعمل دائماً على نشر الفكر العلمي الأوروبي في الشَّرق ، وقد أخذتُ على نفسي العثور – في مكانٍ ما – على تلميذ يتقيَّدُ بمتابعة نصائحي التي تلقَّيتُها بدوري عن أساتذتي في أوربا . ولعلي لم أسعَ في ذلك هباءاً ، فيبدو أنَّ السَّيِّد إلياس قدسي قد وضع نفسَهُ قيد العمل بكثير من الاندفاع . وها هو الآن قد وافانا بمادَّة مشوِّقة للغاية ، جديرةٍ بأن تُقرَأ مع بالغ السُّرور .

قال المؤرِّخ الحكومي السُّويدي «كايّر» Geijer : «إنَّ تاريخ الشَّعب السُّويدي لهو تاريخ ملوكه» . كانت هذه البديهيَّة تبدو لي دوماً مشكوكاً في صحَّتِها ، سواء فيما يتعلَّق بتاريخ السُّويد أو غيرها من البلدان ؛ فإنَّ تاريخ الشَّعب منسيٌّ دائماً – بشكلٍ أو بآخرَ – بما فيه من أساطيرِهِ وقوانينه الاجتماعيَّة وعاداته وخرافاته ومُعتقدَاتِه وكيفيَّة مواجهته لمختلف القضايا .

إنَّه في واقع الأمر ، هناك في هذا الجمهور من الأفراد ، بعيداً عن كرسيِّ الملكيَّة أو الوزارة تدور الأحداثُ الكُبرى ، أكثرَ فاعليّةً وأطولَ استدامةً بآثارها من نفوذ الإرادة الملكيَّة .

ولم يحدث سوى في الأزمنة القريبة الماضية أن بدأت هذه الطَّريقة قديمةَ العهد في كتابة

التاريخ بالتخلّي عن مكانها لأخرى مختلفة ، حيث يحتلُّ الشَّعبُ والأُمَّة والاتِّحادات والنِّقابات الحرفيَّة والأقاليم ، وحتى الأُسَرُ نفسُها تحتلُّ مكانةً بارزةً متميِّزةً .

وهذا الضَّرب من التَّاريخ (الذي أُسَمِّيه : التَّاريخ الإثنوغرافي [208] Histoire Ethnographique) أكثر إهمالاً في الشَّرق ممَّا هو عليه في أوربّا [209].

جميع المستشرقين يعرفون أيَّةَ موضوعات هي التي تندرجُ حولها كلُّ التواريخ المكتوبةُ باللُّغة العربيَّة تقريباً : الخليفة – الوزير – حروبهم وملذَّاتهم – محاسنهم ومساوئهم . وكلٌّ ذلك يُسجّل ضمن مشهد منمَّق بالنَّوادر التي لابدَّ منها دائماً ، مع أشعار متملِّقة بعض الأحيان ، ومقبّلات أدبيَّة تَنْأى غالباً عن أهمِّيَّة تُذكَرُ . وهذا بالنِّسبة لعالِم أوروبِّيٍّ باحث يعني التقاط الشَّوائب المُبعثَرة من التَّاريخ الاجتماعيِّ للمَشارِقَةِ ؛ لكي تتبيَّنَ لنا معالِمُ حياتهم وأعرافهم وعاداتهم وطبقاتهم الاجتماعيَّةِ الدُّنيا .

ليس من السَّهل كتابةُ هذا التَّاريخ الإثنوغرافيِّ للعصور الماضية ، لكنَّني مُقتنِعٌ بأنَّ تحقيق ذلك يَتِمُّ

---

(208) الإثنوغرافيا (Ethnographia) كلمة منحوتة من جذرين باللغة اليونانيَّة هما : (Ethnos) وتعني : الشَّعب ، و(Graphia) وتعني : وصف . ومعنى الكلمة الحرفي : وصف الشُّعوب . ومعناها الاصطلاحي العلمي في الدُّول الغربيَّة : (وصف الأعراق البشريَّة) أي : من ناحية أصولها وتطوُّرها البيولوجي . والمعنى هو ذاتُهُ في الدُّول الشَّرقيَّة ، مع فارق إضافة النَّاحيتين الاجتماعيَّة والثَّقافيَّة . وهو فرع من (علم الإنسان الطَّبيعي (Anthropologie)) . وعلى ذلك يكون معنى التَّاريخ الإثنوغرافي : التاريخ الشَّعبي الوصفي . (إيبش)

(209) في هذا الرَّأي شيءٌ من الحقِّ ؛ إذ أنَّ مؤرِّخينا في العصور المتأخِّرة لم يُعنَوا بتأريخ حياة عامَّة الشَّعب ، بل اقتصروا على كبار الشَّخصيَّات المشهورة ، اللَّهمَّ إلاَّ ما كان عن طريق تدوين المُذكَّرات اليوميَّة التي تجد فيها شيئاً من هذا القبيل ، مثل : حوادث دمشق اليوميَّة للبديري الحلاَّق ، في القرن الثَّاني عشر للهجرة . وتعليق أحمد بن طوق ، في أواخر القرن التاسع وبداية العاشر الهجريَّين . وفي الأخيرة معلومات عن المجتمع الدِّمشقيِّ العامِّ في غاية الأهميَّة بفترة جدُّ حَرِجة ؛ هي نهاية عصر حكم المماليك واقتراب زمن الفتوحات العثمانيَّة .
وكذلك فمن المصادر الهامَّة لدراسة حياة العامَّة في مجتمعاتنا : رحلات السُّيَّاح والأثريِّين الأوروبيِّين (في العهد العثماني خصوصاً) ، انظر مقدِّمتنا لرحلة الفارس دارڤيو إلى دمشق . (إيبش)

عن طريق استخلاصِهِ من الشَّرق الحيِّ . وأهمُّ ما في ذلك الإسراع ؛ لأنَّه منذ بضعة عقود من السِّنين لم يعد للحياة الشَّرقيَّةِ استقرارُها المعهود .

وللنَّجاح في تمييز ما هو قائمٌ منذ القديم ، وللإصغاء إلى صدى الماضي الغابر ينبغي للمرء قطع أيِّ اتِّصالٍ وبين المدنيَّة الأوربيَّة ، والمعتبر في وسط المجتمع الشَّرقي ليس إلاَّ ، هذا المجتمع الذي لا زال مؤتمناً – ولو جزئيّاً – دونما إدراكٍ منه على بقايا حضاريَّةٍ عريقةٍ .

وللتوصُّل إلى نتائجَ مُرضيةٍ ، لا يكفي القيامُ برحلةٍ في رُبوع الشَّرق ولو كانت لسنة أو اثنتين ، بل هذا يلزمُ العيشُ هناك طوالَ سنواتٍ عديدةٍ مع تعاطي التِّجارة الخصوصيَّةِ والتَّعامل اليوميِّ مع كافَّة طبقات السُّكَّان .

إنَّ النُّفوذَ إلى أعماق الحياة الاجتماعيَّة والعقليَّة للشَّرقيِّين بالنِّسبة لشخصٍ أوربيٍّ هو أمرٌ جدُّ شاقٍّ . وسأتجرّأ على القول بأنَّ معارفنا في أوربا عن الشَّرق ما تزال حتى يومنا هذا ضَحْلةً تماماً .

باستطلاع هذه الحال التي تجري عليها الأمور ، نجدُ أنَّه ليس بوسعنا سوى أن نتوجَّه إلى الشَّرقيِّين أنفسهم راجين منهم تزويدنا بالوثائق المدروسة التي تحتاج إليها ، ولكن بما أنَّ هذه الوثائقَ تُعتبرُ جديرةً بكلِّ اعتبارٍ من جانب العلماء الأوربيِّين ، فمن الضَّروريِّ قطعاً أن يتَّبع زملاؤنا المشرقيُّون في أبحاثهم مزيداً من التَّحقيق الذي لس بالنِّسبة لهم أمراً مألوفاً (وليس من أيِّ داعٍ هنا للتَّشكيك في صحَّة مقالي) ، فإنَّ أبناء الشَّرق عموماً لم تُتح لهم فرصةُ الدِّراسة في أوربا ؛ حيثُ المرءُ معتادٌ على البحث عن أصول كلِّ الأشياء وأسباب وجودها . وأقول : أن ليس هناك في الشَّرق كثير من الأشخاص الذين لديهم الرَّغبةُ الكافيةُ في مدِّ أيديهم باتِّجاهنا ، بيد أنَّه يبقى البعضُ القليلُ منهم سيفعلون بكلِّ ترحابٍ . وإلى هؤلاء في الواقع أتوجَّه بتقديم الخطاب باسم أعضاء المؤتمر الدَّولي للمستشرقين .

ونحن بكلِّ سرورٍ نرحِّبُ بهذا النتاج البكر للسَّيِّد إلياس قدسي ، وكم نتمنَّى له أن يجد من يُحاكيه به ، وسوف نكون مستعدِّين على الدَّوام لتسهيل طبع أعمالهم دون مقابلٍ ، إذا نحن رأينا فيها ما يستحقُّ ذلك . وأملنا أن يضع العلماء الشَّبابُ في الشَّرق أنفسَهُم قيد البحث والدّراسة ، غير مهتمِّين بسوى المواضيع التي يعرفونها حقَّ المعرفة ، وبما لم يستطع الأوربيُّون التعمُّقَ فيه بشكل يسير [210].

---

(210) النشرة الشَّرقيَّة الوحيدة التي تزعم بكونها علميَّة هي المجلَّةُ الشَّهريَّةُ

وعلماً منّي بأنّ هذا العمل الحاضرَ سوف توزَّع منه مئات النُّسَخ في الشَّرق ، فقد اعتبرتُ أنَّ القصدَ من كتابةِ هذه الكلمات هو حَفْزُ زملائي الموجودين على السَّاحل الآخرمن البحر الأبيض المتوسِّط ، على السَّير في إثر خُطى السَّيِّد إلياس قدسي . لقد استهلَّ لهم الطَّريق ، وعلى الآخرين الآن أن يحذوا حذوَهُ .

أمَّا بالنِّسبة لهذا العمل الذي أنتم بصدد قراءته فاسمحوا لي أن أُعلّقَ عليه ببعض الكلمات :

إنَّ لدى الكاتب نظراً طيِّباً في استخدام اللُّغة المكتوبة التي يجدر بالمجتمع الرَّاقي المعاصر استعمالها . وهي على سبيل الإيضاح ، لا يحتاج معها إلى الاستعانة بالمعجم التَّقليدي ، وحبَّذا لو أنَّ الجميع يعمَدُونَ إلى هذا الأُسلوب ؛ إذ ا هم أرادوا فعلاً أن يكونوا نافعين لشؤون المشرقيَّات .

وبكون السَّيِّد قدسي مانحاً إيَّايَ مطلقَ الحريَّةِ في التصرُّف بعمله كما أشاء ، فقد عدَّلتُ فيه الكثيرَ : أساء الكاتبُ استعمالَ النَّحو العربيِّ على شكلٍ لم يَرُقْ لي ، رغم أنّني نصحتُ له – إذا هو اهتمَّ بمتابعة كتاباته – بأن يزيدَ عنايَتَهُ بما يُخصِّصُهُ منها للنَّشر ؛ إذ لا يتوافر دائماً الصَّديق الذي يتكفَّلُ بتصحيح النَّصِّ وتنقيحهِ وتهذيبِهِ .

يرقى تاريخ النّقابات الحِرَفيَّة بدمشق إلى أزمنةٍ ماضيةٍ بعيدة ، ولا زالت ممارساتها محفوظةً كما هي بما يمكن إثباتُهُ وتبيينُهُ . والمعلوماتُ التي زوَّدنا بها السَّيِّد قدسي هي – بدون شكٍّ – قيِّمةٌ جدّاً . عدا عن أنَّه لم يستوفِ بها الموضوعَ حقَّ قدرِهِ كما ينبغي . فكلُّ نقابةٍ حِرَفيَّةٍ كان يجب أن تُوصَفَ على حِدَة .

وأنا – بالمناسبة – آمل أنّني تمكَّنتُ في الجزء الثَّاني (الخاصِّ بدمشق) من كتابي «الأمثال والأقوال المأثورة للشعب العربيِّ» من تقديم أكثر للمعلومات تفصيلاً حول هذا الموضوع ممَّا صار بحوزتي حتى الآن ، وقد جمعتُ معظمَهُ من دمشق .

ولقد أحسن السَّيِّد قدسي تماماً بعدم تحوير لغة المخاطبات في النَّصِّ ، فالتَّعديلُ فيها غيرُ وارد إطلاقاً .

«المقتطف» ، ولكنّها غالباً ما تكون مملوءةً بالحشو بدلاً عن أن تكون مفيدةً لنا . (لاندبرغ)

أمَّا المسألةُ التي طرحها الكاتبُ في آخر نُبذَتِهِ فتبدر لي غيرَ مُجدِيَةٍ ، وتَركُها للمُختصِّين لِيَرُدُّوا عليها أجدر وأولى .

وبشأن إنشاء النَّصِّ أخيراً ، فقد تركتُهُ إجمالاً كما استلمتُهُ ، و لم أُعدِّلْ فيه إلاَّ في المواضع التي زلَّ بها قلمُ الكاتبِ سهواً فأوقع أخطاءً سافرةً ، والحواشي باللغة الفرنسيَّة هي من وضعي .

كارلو لاندبرغ

* * * * *

نبذة تاريخيَّة في الحرف الدِّمشقيَّة

جمع الياس بن عبده بك قدسي قنصل دولة هولانده في دمشق

228

قدَّمها للمجمع

العلمي الشَّرقيِّ الملتئِمِ في مدينة

ليدن

1883

بسم الله الرحمن الرحيم

إنَّ البحثَ الذي أقدمتُ على الخوض فيه أمام حفلكُم الموقَّر هو نُبذةٌ تاريخيَّةٌ علميَّةٌ عن الصَّنائع ، أو ما يُقال له (الحِرَفُ) في مدينة دمشق . والذي بعثني على ذلك هو أنّني فُزْتُ بشرف معرفة العالم العلاَّمة والبحر الفهَّامة الدّكتور «كارلو لاندبرغ» الأسوجي الشّهير ؛ إذ سافرنا معاً من بيروت إلى دمشق وكان آتياً من مملكة هولانده بقصد جمع لغة العامَّة في دمشق وضواحيها .

ولَمَّا علمتُ بُغيَتَهُ التي من أجلها تكلَّفَ أن يُكابدَ مشقَّات السَّفر ويحتملَ مصارِفَهُ ، عرضتُ نفسي عليه أن لا يؤخِّرَ عني التَّعب في كلِّ ما يحتاجُ إليه للوصول إلى بُغيتِهِ . وعرضتُ عليه أيضاً ما كنتُ آخذاً به من جمع الأُصول المشتركة بين اللُّغتين العربية واليونانية ، ورجوته أن يعيّن لي علاوة عن ذلك عملاً على نسبة قدرتي أجعله باكورة أقدّمها لحفلكم الموقر ، ومقدّمة لما نويت الاعتكاف عليه من الأشغال والدروس في مثل الذي يجدّ وراءه هذا الهمام .

فأشار عليّ أن أضع مجموعة في مناداة البيّاعين لترويج مبيعاتهم من الفواكه والخضروات ، ثم قال لي أن أحرر نبذة في الحرف الموجودة في دمشق آملاً أن أعثر فيما أحرّره عل بعض الكلمات والاصطلاحات التي يقصدها فنظرت بادئ بدء إلى هذين المبحثين نظر المزدري ، ولكن لدى الفحص وجدت أن مبحث المناداة جدير بكل الالتفات ، لأنّه يدل :

(أولاً) على أجلّ الخواص التي يعتقد الشرقيون أنها موجودة في تلك الفواكه والخضروات المتنوعة . (ثانياً) على المحل الأصلي الذي جلب منه صنف الفاكهة أو الخضرة المنادى عليه . (ثالثاً) على محل اشتهار كل قرية أو بقعة من جوار دمشق أو من سورية بصنف من الأصناف .

(رابعاً) على كيفيّة تعبير شعب دمشق في مناداته ، وهذه طريقة تختلف جدّاً عن التي في بيروت وفي مصر وفي حلب ، إلخ . وجميعها تدخل في مطالب التاريخ والعلم واللغة . وقد كنت باشرتُ بهذه المجموعة ثم أرجأتها ، فموعدي بها في فرصة ثانية .

أما المبحث الثاني المختص بالحرف الدمشقيّة ، فهو من أوجه عديدة أعمّ وأفضل من ذاك ، ولهذا السبب باشرتُ به حالاً ، وسيأتي الكلام عنه بوجه مختصر ؛ إذ أنّه لا يمكن لمثلي استيفاؤه في نبذة وجيزة كهذه .

* * * * *

تمهيد

إن من تفحّص أحوال الحرف الدمشقية ونظر إليها نظر المنتقد المدقّق ، يرى أنّها في تأخُّر عظيم يوجب الأسف من جهة ، وفي إتقان يوجب الدهشة من جهة أخرى . أما التأخير فلأن عموم الصّنائع والفنون فقدت ما كانت عليه من الرونق في الأزمنة الغابرة ، وهي بعيدة عن أن تُقاس على ما هي عليه الآن صنائع أوربا وأميركا ، بل بعض ما اشتهرت به هذه المدينة القديمة فُقد مطلقاً كعمل السيوف الدمشقيّة [211] والقيشاني والظّاهري [212]، إلخ . وأسباب ذلك عديدةٌ منه سياسيّة ومنها تجارية ، وأعظمها إهمال العلم في هذه الديار ، وتلك مسألة لا يحسن التعرّض للكلام عليها في مثل هذا المقام .

وأما الإتقان الذي يوجب الدهشة ، فهو كمال الانتظام وحسن الترتيب اللذان لم يزالا محفوظين من أزمنة قديمة إلى يومنا هذا بين عَمَلة اليدين من كل نوع وملّة ، فهذا الانتظام والترتيب ، وإن حصل له من بواعث قلبت مقصده إلى غير الغاية المرادة في الأصل (كما يحدث لأكثر الجمعيّات) ، إنّما لم يطرأ عليه تغيير في جوهره . فالحرف لها رئيس أعظم وهو شيخ المشايخ ، ورؤساء ثانويون وهم مشايخ الحرف ، ومعلمون وصُنّاع ومبتدئون – أو خُدّام – في كلّ حرفة على حدتها ، ولهم كلام ورموز تُصنع بالأيدي والأرجل (ولو لم نقف على تعبير معانيها) . ولهم في كل مسألة رسوم لا يحيدون عنها ، ولهم ارتسام يُسمُّونه (الشّدّ) أو

(211) انظر بحثنا عن «أسطورة السيف الدمشقي» في كتابنا القادم . (إيبش)

(212) إن بعض الدمشقيين أخذ من نحو خمس عشرة سنة بتجديد صنعة النقش على الأواني النحاسيّة المسمّاة : صنعة الظّاهري ، والفضل بذلك للشاب اسكندر بن يوسف دوناتو الذي ابتدأ به حين كان لا يبلغ من العمر إلاّ 12 سنةً ، وتوفاه الله وهو في شرخ الشّباب . وقد أخذ عنه كثيرون أخصُّهم من اليهود ، واتسع جدّاً الاتّجار بالنُحاس الظاهري ، لكنّه إلى الآن لم يبلغ حدَّ الإتقان كما كان في القديم . (قدسي)

(التَّمليح) يجرونه للمبتدئ عند انتقاله من درجته إلى درجة صانع ، وآخر عند انتقاله من درجة صانع إلى درجة معلّم ، ولهم اجتماعات وأسرار وقصاصات وانتخابات ومآدب . وبوجه الإجمال ، كأنّه بهم جمعية الفَعَلة الأحرار (الماسونيّة) ومعلمهم الأعظم ومُحترموهم وشدّهم ورفقاؤهم ومبتدؤوهم[213]، إلخ ..

سيأتي الكلام بالتفصيل على كل هذه بقدر الإمكان ، وقد قسَّمته إلى فصول ، ذكرتُ فيها ما تيسّر لي الوقوف عليه فيما خصّ شيخ المشايخ ، والنقيب ، وشيخ الحرفة ، والشّاويش ، والمعلّمين ، والصنّاع ، وشدّهم ، والمكافأة ، والقصاص ، إلخ .

* * * * *

---

(213) هذه المقارنة ، وإن كان فيها بعض المقابلة من حيث الشكل ، لا تعدو كونها قصوراً عن فهم هذه الطقوس السّرّية المرتبطة بالشدّ والعهود . والواقع أن هذه الطقوس تنتبع إلى ما عُرف في العهود الوسطى (الأيوبية والمملوكية خصوصاً) بعهود الفتوّة وشرب كأس الفتوّة . وترجع أصول الفتوّة إلى مذاهب التشيّع ، التي تضع أمير المؤمنين الإمام عليّ ابن أبي طالب في مصاف المثال الأعلى للفتوّة والفداء ، تحت الحديث النبوي الشريف : «لا فتى إلا عليّ ، لا سيف إلا ذو الفقار» . ثم انتشرت حركة الفتوّة في الإمبراطورية العثمانية في الأناضول ، فعُرفت بـ «فتيان الأخيّة» في القرن السادس عشر ، ثم ارتبطت بالطريقة البكطاشيّة في التصوّف ، التي انضوت تحت لوائها أوجاقات الإنكشارية ؛ فكانت لهم في بلادنا ، بالشام ومصر خصوصاً ، تنظيمات حرفية مخصوصة في القرنين السابع عشر والثامن عشر ، كما يُستفاد من مؤرخي تلك العصور ، كالجبرتي . وما يذكره المؤلف في نبذته هذه في القرن التاسع عشر ، إنما يمثل البقية الباقية لهذه التنظيمات بدمشق ، التي كانت مرتبطة بالإنكشارية . فلمّا زالت الإنكشارية ، تحوّلت هذه التنظيمات إلى نقابات مهنية مدنيّة ، وصفها لنا القدسي في مرحلتها الأخيرة قبل انقراضها . هذا ولقد ظفرنا في دمشق بمخطوط هام للغاية ونادر عن «عهود الشدّ» السرّية وأصولها ، سوف نقوم بنشره تالياً كتتمّة لهذه النبذة التاريخية . (إيبش)

الفصل الأول

في شيخ المشايخ

هو السيّد الشيخ الحاج أحمد أفندي بن منجك [214]، أرشد عائلة بني عجلان من أشراف دمشق ، ومن السُّلالة النّبويّة الشَّريفة من السّلسلة المحمَّديَّة ، لقِّبت بعض عائلته بـ «مَنْجَك» ؛ نسبةً لإحدى جدَّات العائلة التي كانت من بلاد التتر ، وأمّا سائر العائلة فلم يزل محافظاً على تسميته بيت العجلاني وهو يسكن في بيته المعروف بالقرب من الجامع الأمويّ ويعيش من إيراد أوقافه في ضواحي دمشق . ولبعض أفراد العائلة مداخلات في خدامات الحكومة المحليّة ، وهم حائزون على اعتبار عظيم ، ولاسيّما السيّد الشّيخ محمَّد أفندي العجلاني أحد أعضاء مجلس استئناف الولاية .

أمّا أحمد أفندي منجك فهو على جانب عظيم من التُّقى الإسلامي ويعرف فرض الكفاية من الفقه الدِّينيِّ ، ولكنَّه ليس على شيءٍ كثير من العلوم الرِّياضيّة وبأقلَّ من ذلك على صنعة أو حرفة . وهو طويل القامة ذو منظر وقور ، وقد كلّمته فكان كلامه بسيطاً لا يدلُّ على تصنّع ولا عجرفة .

هذا هو الذي كانت أسلافه تعيِّن المشايخ لأكثر من مائتي حرفة ، وتأمر وتنهى ، وتقاضي وتفصل كلَّ مسألة وتحسم كلّ مشكلة لديهم بتقاضي الجميع ، وهو الشيخ عليهم الآمر الأعلى ، والحاكم الأعظم ، والرّئيس الأسمى الذي لا يُنتخب ولا يُعزل ولا يُبدّل ، ولا يخلعه من منصبه إلا الموت أو الاستقالة .

قلتُ : لا يُنتخب ؛ لأنَّ هذه الوظيفة مختصّة بعائلة العجلاني ، كما أنَّ نقابة الأشراف

(214) راجع ترجمته لدى كل من البيطار والحصني والشطي .

ومشيخة الطُرق توارث فيهم من أيام الحضرة النّبويّة الشّريفة إلى يومنا هذا من السّلف إلى الخلف يتولاّها الأكبر سنّاً من أعضاء العائلة . وقد حدث شيخ المشايخ الحالي : أنّ أخاه عطا أفندي الذي كان تابع معه على المشيخة قبل وفاة والدهما نازعه عليها بدعوى أنّهم أفقه وأقدر منه على ضبط أمورها وإرجاعها إلى رونقها الأصليّ . أمّا هو أن يذهب إلى عاصفة السلطنة حتىياسحصل السُّلطان علي فرمان عال مثبت لحقوقه في مشيخة المشايخ ؛ إذ أنّه أكبرُ سنّاً من أخيه وليس به ما يدلّ على عدم أهليّته أن يتولّى هذا المنصب فنوّلاه ولم يزل فيه إلى الآن (215) .

أما السلطة التي ذكرتها لشيخ المشايخ فكانت فيما مضى عظيمةً جدّاً قبل أن تمكّنت سيادة الباب العالي على سورية حين كان رؤساء المسلمين أشرافُهُم لا يقرّون له إلاّ باسم السيادة وكانوا هم الحكّام الحقيقيّون . فكان لشيخ المشايخ السلطة والقدرة أن يلقي من تعدّى من المشايخ أو من سائر أهل الحرف في السجن وأ يكبّله بالقيود وأن يضربه بالعصي .

أما الآن ، فمن عهد السلطان عبد الحميد ومن بعده حيث أعطيت التنظيمات الخيريّة ، قلّ تسلّط شيخ المشايخ إلى حدّ غير متناه ، حتى يسوغ لنا القول : إنّه غدا محصوراً بالتصديق على تنصيب شيخ حرفة من الحرف بعد أن ينتخبه معلّموها . ويعدّ الآن هذا التصديق غير كاف ؛ لأنّه حينئذ يجتهد المنتخب ومريدوه بأن يحصل على البيولوردى (216) (الأمر) وختم الشيخة من قبل مجلس البلديّة ، بل كثيرون يكتفون ببيولوردى الحكومة وأخذ الختم غير مبالين بالتصديق من طرف شيخ المشايخ على انتخابهم ، ولاسيّما غير المسلمين منهم ؛ لأنهم

(215) بلغني أنّ منذ نحو أربعين سنة سعى أحد أبناء الترك مع حكومة الآستانة فسمّته شيخاً للمشايخ ، وأرسلته إلى دمشق لتنزع هذا الحق من يد بني العجلاني ، فساء أمر الدمشقيّين من أهل الحرف وخلافهم ؛ لأنّه لم يكن من السُّلالة النبويّة ولا أحد العهود عن أجداد كرام ، فارتأوا أن يجمعوا له مبلغاً من الدراهم ليرجع به من حيث أتى ، وهكذا كان ، فبقي شيخ المشايخ الدمشقي في منصبه ، وسيبقى ومن بعده فيه طالما يعترف لهم بشرف النّسب .

(216) الكلمة محرّفة عن بيورلدى ، والكلمة تركية Buyuruldu ، تعني المرسوم .

كانوا يدفعون رسوم الشيخة ويحلفون يمين الصداقة لكنّهم لم يُعطَوا العهود كالمسلمين ، ولذا عند انتشار التنظيمات الخيريّة رأوا ذواتهم منفكّين مما كانوا يُجبَرون عليه وبعض منهم لم يُشدّوا قط . والذين لم يزالوا يحرصون على تصديق الشيخ فيفعلون ذلك لاعتقادهم بسريرة شيخ المشايخ سليل النبي (ص) ، وبركاته التي تجلب الخيرات وتدرأ المضرّات . ولذا تراهم إلى الآن يرضخون لأوامره ويلتجؤون إليه عند الحاجة .

* * * * *

الفصل الثاني

في النقيب

لمّا كان لا يليق بمقام الشيخ ، بل لو أراد لم يكن بوسعه أن يكون حاضراً في الاجتماعات العموميّة التي تضطر كل حرفة لعقدها لشدّ صانع أو معلم أو للمذاكرة في شؤونها ، فلشيخ المشايخ أن يبعث من قبله رسلاً يدعون النقباء ويحضرون الاجتماعات ويتلون الأدعية ويجرون كل شيء كما لو كان شيخ المشايخ حاضراً بنفسه . وكان النقباء فيما مضى أكثر من واحد حين كانت إدارة الحرف محصورة في يد الشيخ الأعظم ، أما الآن فقد قلّت أهمّيته جدّاً فلا يوجد له إلا نقيب واحد وهو السيد الشيخ أنيس الجزائري القماقمي ، وهو من الأشراف من السلسلة النبويّة الشّريفة ، إنما لا تستلزم هذه الوظيفة أن يكون صاحبها شريفاً ولا هي موروثة في عائلته بل للشيخ الحق أن يقيم من شاءه نقيباً وأن يعزله بحسب إرادته ، فالنقيب الحالي نُصب منذ إحدى عشرة سنة ، وهو عالم بكل أحوال الحرف والتراتيب أكثر من الشيخ نفسه .

* * * * *

الفصل الثالث

في شيخ الحرفة

لكل حرفة شيخ ينتخبه شيوخ الكار ممن اشتهر بحسن الأخلاق والطوية وامتاز بمعرفة أصول الحرفة .

ولا يشترط به كونه أكبرهم سنّاً أو كونه من الشيوخ فعلاً فيجوز أن يكون حديث السنّ إلى حدّ معلوم ، فإن شيخ حرفة القفيلاتية سنّه من 25 إلى 30 سنة ، وشيخ الجليلاتيّة من 20 إلى 27 ، والكمرجيّة 20 تقريباً .

والقاعدة بذلك هي كما ذكرت أعلاه بأن يكون حاوياً حسن الصّفات وعنده العلم بأمور الكار ، وأن يكون كما قيل لي (مدفوعاً) بين الناس و(موجَّهاً) عند أرباب الحكومة ، (أي ذا وجاهة) ، ومن المحتمل أنه لا يكون هكذا فعلاً ويكفيه أنّه حاز على هذا الصّيت عند لأهل حرفته بنجاحه يوما ما بحلّ مشكلة .

وفي بعض الحرف تنتقل المشيخة بالإرث من الأب للابن ، وهذا لا يخالف قاعدة الانتخاب لأنّه على كل لا يكون إلاّ بسماح من شيوخ الكار مراعاة لخدامات الشيخ المستوفية ، وأما إذا رُئي انتخاب غيره أكثر موافقة فيجرون الانتخاب بدون مراجعة . أما مدّة الشيخة فغير محدودة ، فيلبث الشيخ طول حياته شيخاً ما لم يجر منه ما يوجب إبداله بسواه .

ومن حقوق الشيخ أن يعقد مجالس لصالح الحرفة يترأسها ويسهر على حفظ ارتباط الكار ، ويُقاصّ من أتى بإخلال في حقّ الصنعة ، وكثيراً ما يكون مكلّفاً بإيجاد شغل للفعلة فيوصي بهم المعلّمين ، وله وحده الحق أن يشدّ بالكار المبتدئين الماهرين فيصيرون صُنّاعاً أو معلّمين ، وله بعض الإيرادات سيأتي ذكرها ومعه تكون مخابرة الحكومة فيما يتعلّق بحرفته .

وانتخابه يكون على الصُّورة الآتية : عندما يفرغ مركز الشيخة من الشيخ يجتمع شيوخ الكار ، ويعيّنون خلافه بالمذاكرة والاستحسان ، ولا يجرون بذلك على أكثريّة الأصوات بل باتّفاق الآراء ، وقد استقصيت جدّاً لأعلم هل أنّهم كانوا يراعون في الزمن السّابق أكثريّة الأصوات أم لا ، فلم أقف على حقيقة ما من هذا القبيل لأن الشيوخ إما أن يتّفقوا على تعيين أحدهم وحينئذ لا خلاف ، أو أن يختلفوا فمرجع الأمر إذ ذاك لشيخ المشايخ الذي يعيّن أحد المرشّحين (217).

أما التصديق عليه من شيخ المشايخ فيتمّ هكذا : يذهب أهل الحرفة من الشيوخ والمعلّمين وبعض الصنّاع المشدودين بشيخهم الجديد إلى شيخ المشايخ فيدخلون عليه ويقولون : «إنّنا قد عيّنا فلاناً شيخاً علينا» . فيأخذ شيخ المشايخ بأن يتلوَ عليه بعضَ آيات قرآنيّة ثم يقدّم له النصائح اللازمة لإدارة حرفته بالعدل والاستقامة والسهر على صالحها ، ثم يسلّمه العهد وبعد ذلك يقال عن شيخ الحرفة الجديد أنه قد دخل على بساط الشيخ ، أي : أنه فاز بالتصديق على مشيخته من لدن شيخ المشايخ .

وفي واقع الأمر عند التصديق يمدّ أمام الشيخ بساط أخضر تذكاراً ببساط النبيّ (ص) ، وعليه يسلّم العهد إلى شيخ الحرفة الجديد أمام الحضور بصوت منخفض .

تعذّرت عليّ أولاً معرفة هذا العهد وكيفيّة إعطائه ، لكنّه بلغني فيما بعد أن ما هو إلاّ نفس العهد الذي يؤخذ على الصّانع حين شدّه وسيأتيك بيانُهُ .

* * * * *

(217) Candidats .

الفصل الرابع

في الشّاويش أو الجاويش

كما أن لكل حرفة شيخاً كذلك لكل حرفةٍ شاويش . ونسبته للشيخ كنسبة النقيب إلى شيخ المشايخ ، والفرق بينهما هو أن ليس للشيخ وحده أن ينتخب الشّاويش بل الكار يستحسنه إذا ما قلنا ينتخبه . وليس للشاويش حق ولا سلطة قضائيّة على أهل حرفته بل هو رسول الشيخ ومتمّم أوامره ، فهو يدعو بإذن الرئيس شيوخ الحرفة وسائر أهلها للاجتماع ، ويكلّفهم لحضور الشدّ والولائم ويبلّغ الجزاء لمن حكم عليه الشيخ بشيء .

ومما فهمتُه عنه أنّه يجنح على الغالب للصنّاع أكثر مما يميل لسواهم من أهل الكار فإنّه يعدّ ذاته منهم ، حتى أنّه عند الثورات التي تحدث من الفَعَلة على المعلّمين بطلب تزييد الأجرة (أو يعبّرون عنها بقولهم : الكار قالع ، أي : ثائر) هو الذي يطوف عليهم ويحثُّهم على الثبات لنيل المقصود .

وربما ظنّ أحد أن وظيفة الشاويش مستحدثة بسبب أن هذه التسمية غريبة عن العربيّة وفارسيّة الأصل ، ولكن هذا الظنّ غير صحيح فإنّ وظيفة الشاويش قديمة جدّا وأعتقد أنّه كان له في الأصل تسمية غير هذه لم أقف عليها ، وأنه حدث بها ما حدث على تسمية المُحْظَر (وصحيحها المُحْظِر مِن حظر عليه = وضعه في السجن ، أو المُحْضِر مِن أحضره أمام الشرع) في المحاكم الشرعيّة ، فقد جرى الآن الاصطلاح بتسميته مباشراً في المحاكم النظاميّة ، فإذا ألغيت يوماً المحاكم الشرعيّة تبقى تسمية المباشر جارية وتندثر تلك لا محالة من ذاكرة الناس .

في المبتدئ

إنني بعد أن سردت بعبارات وجيزة ما كان من أمر المترأسين في إدارة الحرف بقي عليّ أن أذكر ما علمتُه بحق المرؤوسين أو الفعلة ، وهذا هو القسم الأكثر فكاهةً في هذه الرسالة ، لكنني سأجري به بعكس ما جريتُ عليه أولاً ، أي : أني سآتي على ذكر المبتدئ والصانع والمعلّم وما يتعلّق بهم لنرى كيف يرتقي المجتهد في سلّم التقدّم في حرفته . أمّا بخصوص المبتدئ فليس عندي أن أذكر إلا شيئاً يسيراً وهو أن المبتدئ أو الأجير هو الولد الحديث السن الداخل مجرّداً إلى الحرفة ، إما لكي يحترف حرفةً أو ليملك بيده ما يصون مستقبلَهُ من العوز والفاقة .

فيبقى المبتدئ عدّة سنين بلا معاش ولا أجرة ، ويكتفي أهله بتعليل أنفسهم أنه ساع بأخذ الصَّنعة عن أستاذه . ومنهم من يرتب له جُمْعيّة (أي أجرة تدفع له كل أسبوع) متناسبة مع مهارته ، لكنّه يلبث مسمّىً أجيراً إلى أن يدخل في سنّ الرجوليّة أو يصل في صنعته إلى حدّ الإتقان فيدعى صانعاً ولو لم يُشدّ بالكار بعد ، أما أجرته فتبقى مخفوضةً نوعاً ، ولا يسمح له أن يفتح محلاً وحده لحسابه [218]، وهذا ممّا يشوق المبتدئين أن يُقْبَلوا بالشدِّ أملا بازدياد الأجرة .

ويحسن بنا أن نذكر هنا بعض الأمثلة والأقوال الدّارجة التي تجعل الناس يحيلون

---

(218) كان هذا جارياً بدقة وصرامة حين كانت الكارات منوطة بشيخ المشايخ ، أما الآن فلا يعتبر الشدّ أو عدمه سبباً لقفل محل فتحه أحد المبتدئين ؛ فإن الحكومة لا تساعد بذلك ، وعملت جهدها على رفع تسلط مشايخ الحرف ليكون لها وحدها الحق القضائي .

للانعكاف على عمل اليدين ، وهي :

1 - (مثل) «كارٌ باليد أمانٌ من الفَقْر» والعامّة تقوله هكذا : كارٍ باليد أماناً من الفُقْر .

ومعناه : أن الإنسان إذا كان يعرف صنعةً ما أمن بواسطتها من أن يمسيَ يوماً فقيراً ، ولهذا كثيرٌ من أهالي بلادنا من ذوي الاقتدار يعلّمون أولادهم أحد الكارات بعد معرفة القراءة والكتابة .

2 - (مثل) «صاحب صنعة مالك قلعة» ، ولا يختلف كثيراً معناه عن المثل السَّابق .

3 - (مثل) «إلّي ما له كارات بيعاير رطيلات» يعني : أن الذي ما ساعدته الظُّروف بأن يتعلّم إحدى الصّنائع يقضي عمره وهو يعتني بتقدير الأوزان دون أن يجديه ذلك نفعاً .

4 - (مثل) «اشتغل بفلس و حاسب البطَّال» أي : أنَّ الشّغل ولو بأجرة زهيدة يفضّل على البطالة .

5 - (مثل) «من كثرت كاراته قلّ ما بيده» : إنَّ هذا المثل ليس يدلّ على الحثّ بأن يتخذ الإنسان كاراً فقط ، بل يوجب عليه أيضاً أن لا ينتقل من كار إلى آخر لأنّ ذلك يكون سبباً لضياع وقته سدى .

6 - (من الأقوال الدّارجة) «خدمتها أجير معلّم» لا يأنف أن يقول ذلك بعضهم افتخاراً مشيراً إلى أنّه قد تعلّم كاراً من الكارات ومرّ بدرجاته من الأجير إلى المعلم .

وسمعت يوماً أحد الحزّامة يقول :

7 - (من أقوال العامّة) «علّمت ابني كار الحزامة وجوّزته وشدّيته فما له برقبتي بعد ، هل قصّرت معه بشيء ؟» ، كأنّه بتزويج الولد وتعليمه الكار وشدّه تنتهي واجبات والده نحوه .

1 – في الصّانع

إنّ الصّنّاع هم العدد الأكثر والسّواد الأعظم في كل الحرف والكارات ، وعليهم مداد العمل ومن أجلهم وضعت هذه التراتيب التي نحن بصددها وبهم تتوارث وثيقة العمل في كل الأزمنة ويحفظ سرّ المعرفة في الفنون والصّنائع . وهم كالأرض ينبوع ثروة البلاد ومصدر كنوزها الثّمينة ، بل لولاهم لَمّا كنّا نحصل على كبير نفع ممّا تنبته الأرض لنا من مواد الغذاء والكساء ، أجل إنّ الصّانع والفلاّح هما القوّتان المادّيتان اللّتان عليهما يتوقّف نجاح الأمم أو تأخّرها .

ومع أن هذا الأمر بديهي لا ريب فيه ، لم يُلتفت إليه من زمن طويل ، وقد أهملت جدّاً آداب الصّانع وتعليمه حتى فقد بالكليّة بعض من الصّنائع كما سبق الإيماء إليه ، وبعضها الآخر كاد يبيد لولا أن يتقيّد بالسّلطة المتسلسلة في الحرف . فالآن لا يطلب من الصّانع أن يكون عارفاً القراءة والكتابة بل يكفيه أنّه قد حصّل درجة المهارة في صنعته مع أنّه كان من جملة الشروط الموضوعة أن لا يقبل بشدّ أحد في الكار ما لم يكن قد تاب عن المنكرات ورخى ذقنه (أي : التحى) .

2 – في شدّ الصّانع

عندما يبرع الأجير في المهنة التي امتهنها منذ حداثته ، يأخذ زملاؤه وشاويش الكار بالإلحاح عليه بأن يُشد بالكار (أو أن يُملّح) ، أمّا الشّاويش فلأنّه ينتظر ما يصيبه من رسومات الشدّ ، وأمّا زملاؤه فلأنّهم يبتغون ازدياد عددهم وربط الداخل الجديد بعهود الإخاء ،

فيحاول تأجيل الأمر إلى وقت آخر ويساعده حينئذ على ذلك معلّمه بالتّردّد عن القبول بشدّة قائلاً للملحّين : «لسّا ما حلُّه ، هدا دبساتُهُ مراق» . وهذا من كلام العامّة ومعناه : أن أجيره للسّاعة الحاضرة لم يأت الوقت الملائم لشدّه وأن دراهمه لا تحتمل مصروفاً غير عادي .

وحالما يقبل الأجير بالشدّ يسرع الشاويش بأن يهديه على الفور عرقاً أخضر ، وهذه إشارة معناها أنه وجب عليه أن يو لم وليمةً لرفقائه ، ويكون العرق الأخضر على الغالب من الرّيحان ، ويجوز أن يكون من نوع آخر ومن أغصان الشجر أيضاً ؛ لأن الشّاويش يقطع عرقاً نضراً من أول ريحانة أو شجرة يصادفها ويسرع بتقدمتها للمزمع أن يُشدّ

فيأخذ ذاك منه العرق بكل قبول وشكر ويبوسه ويضعه على رأسه ، فيذهب حينئذ الشّاويش إلى شيخ الحرفة ويخبره بأمره فيقيّد اسمه مع المزمعين أن يشدّوا سويّةً إذا كان منهم أحد ، وإلاّ فيعيّن له وحده يوماً ليُشدّ به ، ثم يرجع الشّاويش ويدعو نيابة عن المرشّح للشدّ رفقاءه وشيوخ الحرفة وشيخها ونقيب شيخ المشايخ ومن شاء من عندهم ، وفي بعض الأحيان يدعوهم هو نفسه لحضور شدّه .

الشدّ يصير إمّا في أحد بساتين المدينة نهاراً ، أو في أحد البيوت ليلاً أو نهاراً ، ففي اليوم المعيّن يجتمع الصنّاع وسائر المدعوّين في المكان المعدّ ، ثم يحضر شيخ الحرفة والشيوخ والنقيب ، وبعد مبادلة السّلام والكلام يقول النقيب :«يا إخوان لنبتدئ بشغلنا» فيصمت الجميع ، أما هو فيأخذ الشاويش والطالب إلى غرفة ثانية ويشدّه هناك بالطريقة التي سيأتي ذكرها ، ثم يرجع به إلى مكان الاجتماع ، ويكون النقيب متقدّماً عن الشاويش والمشدود ، وبعد النقيب يمشي الشاويش حاملاً بيده صينيّة وعليها هدايا الشدّ كما ستعلم ، فيأتي بها ويضعها أمام شيخ الحرفة على طاولة صغيرة مربعة تسمّيها العامّة (اسكملة) ، ثم يأتي الطالب مكتوف اليدين على صدره بكل حشمة ومشدوداً بالحزم ، فيوقفه الشاويش في الوسط على بساط أخضر ، ويجعل إبهام رجله اليمنى تعلو إبهام رجله اليسرى . وفيما هو على هذه الحالة يطلب النقيب من الشاويش أن يقول الفاتحة ، فيتلوها بصوت عال ويكون الجميع راكعين على ركبهم وطارقين رؤوسهم إلى الأرض ، ثم يطلب النقيب الفاتحة الثانية التي يسمّيها (ثاني شرف) فيقول الشاويش الفاتحة مرة ثانيةً ثم يطلب الختام بذكر سيد المرسلين فيتلو الفاتحة دفعةً ثالثةً ، وبعد أن يفرغ منها يأخذ النقيب في السلام على الحاضرين من الزوّار

الكرام [219] إذا كان أحد منهم موجوداً ، وإلاّ فيكتفي بالسبعة سلامات الآتية ، وهي :

سلام للعموم : «أول سلامي عليكم يا حضّار . السلام سنّة وردّه فرض[220] يا أخيار ، في إذن افتح بساط الطريق باذدكار ، أو أخلّيه مطوي يا أهيل الحي ، الفاتحة اقرؤوها معي أنتم بأجمعكم للنّبي المختار» .

فكلٌّ من الحضور يتلو الفاتحة بصوت منخفض ، أما الشاويش فيتلوها بصوت عالٍ .
سلام ثان لأهل الصّدر ، وهم شيخ الحرفة وشيوخها :

ثاني سلامي على أهل الصدر أسيادي
وأهل الجناحين بهم زاد إرشادي
من قبل ما أدخل وسمّعكم بإنشادي
يا من حويتم المكارم والذكا والذوق
والفاتحة اقرؤوها معي أنتم بأجمعكم
إلى النبي الهادي

الشاويش يتلو الفاتحة جهاراً

ثالث سلامي على أهل الميمنة بالحيّ
وأركان هذه المجالس وكل من بالحيّ
كم حيّ ميت وكم ميّت خرج من حيّ
واقرأوا الفاتحة معي أنتم بأجمعكم

(219) إن السلام على الزائرين هو : أزكى السلام التام عليكم جميعاً يا ذوي المكارم والعلو والافتتاح . أنتم حويتم الفضل يا سادتي وجمعكم معروض بأصلح الصلاح . أزكى السلام التام على أهل الوفا ذوي المكارم سالكين الطريق . معدن الأفضال ومن لهم طلعة نورها شريق ، ما مثلكم يوجد في الوجود على ما يليق ، انتهى . ثم بعد أن ينتيهي النقيب يتلو الشاويش الفاتحة .
(220) اقتباس من القرآن ، سورة النساء - 86 (لاندبرغ) .

إلى نبي شرّف ليثرب مع الحجرة وذاك الحيّ

الشاويش يتلو الفاتحة جهاراً

رابع سلامي على أهل الميسرة بقبول
عبير تلك السلام يجي عرضها والطول
والفاتحة اقرأوها معي أنتم بأجمعكم
إلى نبي أتى لنا رحمةً ورسول

الشاويش يتلو الفاتحة جهاراً

خامس سلامي عليكم يا سادتي أحسن
عبير تلك السلام كالعطر بل أحسن
نظمت من بحر فكري ما لقيت أحسن
إلا امتداحي بأهل الفضل بل أحسن
كلّ فاتحة اقرأوها معي بأجمعكم
إلى النبيّ أحسن

الشاويش يتلو الفاتحة جهاراً

سادس سلامي عليكم أيها الأصلاح
سلام نشره عبق الأرياح
نقيبكم واقف ينشد كلام وضّاح
والفاتحة اقرأوا معي أنتم بأجمعكم

إلى نبيّ بالشّفاعة انسج الأرواح

الشاويش يتلو الفاتحة جهاراً

سابع سلامي عليكم أيها الأحباب
السلام سنّة وردّه فرض يا أنجاب
غريب ومسكين ودمعة غرّق الاثياب [221]
في قصده يلتطخ في زعفرانكم
في إذن يدخل ولاّ يلزم الأعتاب
والفاتحة اقرأوها معي بأجمعكم
إلى نبيّ بمعجزاته حيّر الكتّاب [222]

الشاويش يتلو الفاتحة جهاراً

وبعد فراغ النقيب من هذه السلامات يتلو بعض نشائد نبويّة منها :

يا أهل بيت رسول الله حبّكم فرض عليَّ وبالقرآن أنزله [223]
كفاكم من عظيم القدر أنكم من لم يصلّ عليكم لا صلاة له

- الفاتحة - وغيرها :

رسول الله ضاق بي الفضاء وجلّ الخطب وانقطع الرجاء

(221) كثيراً ما يصدف أن المشدود حين شدّه يكون مغرورقاً بالدموع من شدّة التأثير .
(222) كتابة النبيّ ﷺ الذي كان أميّاً ومع ذلك حيَّر بمعارفه أهل المعارف .
(223) إنّ أكثر هذه النشائد مخلولة الوزن ؛ لأنَّ الذي تلقيتها منه غيرَ عالمٍ بالعربيّة .

فجاهك يا رسول الله جاه رفيع ما لرفعته انتهاء

رسول الله إني مستجيرٌ بجاهك والزمان له اعتداء

وبي وجل شديد من ذنوب وما أدري أعفو أم جزاء

وما كانت ذنوبي عن عنادٍ ولكن بالقضا غلب الشقاء

وظنّي فيك يا طه جميلٌ ومنك الجود يعهد بالسخاء

وحاشا أن أرى ضيماً ولاَّ ولي نسب بمدحك وانتماء (224)

ثم ينتقل بعد ذلك إلى فتح الأشغال فيقول منشداً :

فتحت باب الطريقة أرتجي مِنَنا من خالق الخلق ربي بارئ النسم

وجئت مستأذناً أرجو بفاتحة غفران ذنبي وما قد كان من إثمي

وذلك من أجل إجراء العهو د هنا وحفظها فيه غاية النعم

من حيث ما كان أصل العهد جاء أبيك آدم يا ذا الحّر فافتهم

منه لشيث وإدريس كذاك سرى إلى أنبياء الله(225) كلّهم

ختْمهم سيّد الكونين أحمدنا نور الشريعة سامي الفخر والهمم

وجاء بالعهد آيات مكرّمةٌ فحافظ العهد في خير وفي نعم

وخائن العهد لم تربح تجارته وهو بالحشر كم يلقى من النقم

ثم يلتفت قائلاً إلى المشدود :

«أوصيك يا من تخاوى أو تعاهد اختشي من فرض رب العالمين ، إن عهدك ثم شدّك

---

(224) هذا الشعر لمحمد الكازروني ، انظر فهرسي لمجموعة مخطوطات بريل ، رقم 161 ، (لاندبرغ) .

(225) يمكن جعلها : (دَعَوا لله) ليستقيم الوزن ، (لاندبرغ) .

في غد يشهد عليك يوماً نقف حائرين . من يحفظه رب السماء ومن أطاعه ينكتب من المبعدين . وأختم نظامي بمدح أحمد المختار إمام العالمين ، – الفاتحة –» .

أما ربط المحزم (وهذا يكون إمّا من المحازم أو من الشّالات) فهو حقّ النّقيب ، فيرفع يدي الطّالب من على صدره إلى قمّة رأسه جاعلاً بطن كفّه اليمنى يعلو ظهر كفّه اليسرى وأصابعه ملتصقات (سألت لماذا لا تكون الأصابع العشر مشتبكات بعضهنّ ببعض ، قيل لي : إن ذلك لا يوافق لئلاّ تتعربس الأمور على المشدود فالتسريح أولى) . ثم يفرد النقيب المحزم ويلف المشدود به من وسطه إلى قرب قدميه ، ويعقد طرفيه الأعليين من الخلف إلى الأمام ثلاث عقد : الواحدة احتراماً لشيخ الحرفة ، والثانية لمعلم المشدود ، والثالثة للشاويش . وتفسير ذلك أنّ الشيخ له وحده القدرة أن يحلّ الأولى من الثّلاث عقد ؛ لأنّه رئيس الحرفة كي يعلم المشدود ما له عليه من واجبات الخضوع ، وأما الثانية فيحلّها المعلّم ليفتخر أنّه أخرج تلميذاً ماهراً ، أو كما يقولون شراقاً (جراق) من تحت يده . ويحلّ الشاويش الثالثة لأنّه أحد السّلطات الثلاث التي على المشدود أن يخضع لها في الكار .

إنّ التفسير المار ذكره تلقّنته من شاويشية بعض الحرف ، إنّما لا أظنه صحيحاً ، لأنّ النقيب أخبرني أنّه في شد بعض الحرف يجعل العقد ثلاثاً ، وفي بعضها خمساً وفي بعضها سبعاً ، ويراعى بذلك شدّة تمسك أهل تلك الحرفة بحفظ العهود والأمانة أو عدمه .

وتدلّ هذه العُقَد على عَقْد العهد والميثاق بالإخاء ، فيعتبر حينئذٍ أهل حرفة المشدود هذا الأخير كأخ لهم ، لا بل يفضّلونه في بعض الظروف على الأخ الطّبيعي ، وربما من ذلك أطلق القول بعَقد العهد أي : تعهّد بحفظه .

وقد لاحظت أنّ أكثر المحترفين من الأوربّيين يربطون مئزرهم من الأمام إلى الخلف ، أي : أنهم يجعلون عقد المئزر وراء ظهورهم بعكس محترفي بلادنا السّورية الذين في وقت الشدّ وغيره لا يربطون المحزم إلاّ من الخلف إلى الأمام تذكاراً بوقت شدّهم .

وبعد أن يتمّ النقيب النشائد والفواتح يعيّن أبا الكار للمشدود أحد الحاضرين من المعلّمين ، وعلى الغالب يكون معلّم ذلك المشدود أباً له بالكار ، ويجوز أن يتخذ خلافه ، لأنّه لّما كان يعدّ الأب بالكار بمنزلة كفيل فهو مطالب بما يقع به المشدود من الخلل ، فإذا كان

المشدود غير ممدوح السيرة يتمنّع معلّمه من قبوله ابناً له (وهذا نادر الحدوث) فيعيّن حينئذٍ خلافه . ثم يأخذ شيخ الحرفة بأن يقدّم للمشدود النّصائح الآتية : «يا ابني إن جميع الحرف هي كارات أمانة على الأموال والأعراض والأرواح ، والأمانة هي الدين فإذا نفق كارك احفظ دينك . كن صادقاً وأميناً ، واعلم أنّ كارك مثل عرضك حافظ عليه بمقدرتك ، وإذا استلمت أموال الناس فلا تفرّط بها ، وإياك أن تخون أهل الحرفة ، والخائن قبيله الديّان» . ثم يلتفت إلى الحاضرين ويسألهم قائلاً : «ما قالت الإخوان إخوان وصنايعيّة ومعلمين ، هل هذا المشدود يستحقّ مصانعةً ؟» ، فيجيبونه : «نعم مستأهل ومستحقٌّ» ، فيتقدّم حينئذ أبوه بالكار ليبايعَه ويأخذ عليه العهود ، فيركعا سويّةً الواحد إزاء الآخر نصف ركعة ، أي : أنّ ركبتيهما اليسريين تمسّان الأرض ، وأمّا رجلاهما اليمينان فتنثنيان نصف ثنية ويقتربان من بعضهما حتى يتلاصق الإبهامان اليمينيّان وأعلى الركبتين ، ويمسك الأب بالكار بيده اليمنى يد المشدود اليمنى مسكة الإخاء المعروفة ما عدا أنّ إبهام يد الواحد والشّاهدة يتلاصقان حول إبهام يد الآخر فيستر الشّاويش أيديهما بمحرمة أو منشفة كي لا يطّلع الحاضرون من الخارجين على الإشارة التي تتبادل بينهما . ويقول حينئذٍ الأب للطالب : «عاهدني بعهد الله ورسوله أنّك لا تخون أهل الحرفة ولا تغشّ الكار» ، فيعاهده بقوله : «أعاهدك بعهد الله [226] ورسوله أنّي لا أخون الكار ولا أغشّ الصَّنعة بشيءٍ» . فيتلو النقيب فوق رأسيهما الفاتحة ثم ينهضان . ويطوف بعد ذلك الشاويش على مشايخ الحرفة بالمشدود فيحل كل منهم عقدة كاملة من عقد المحزم إذا كانت كثيرةً ، أو نصف عقدة إذا كانت قليلةً ، وأمّا آخر عقدة فيحلّها الشّيخ ويسلّم المحزم إلى الشّاويش الذي يضعه على كتف المشدود ، ويقول له مهنّئاً إيّاه : «جعله الله مباركاً» .

3 – الهدايا المرسومة

ثم توزّع الهدايا التي ذكرنا أنّها موضوعة في صينيّة على «اسكملة» أمام شيخ الحرفة

(226) تجد في الجزء الثاني من كتابي «الأمثال والأقوال المأثورة للشعب العربي» شرحاً مفصّلاً عن ((عهد الله)) عند البدو . (لاندبرغ) .

وقت الشدّ . وهي لكلّ من شيخ الحرفة وشيوخها والنقيب :

«لوح صابون مطيّب ، وشورة شاش مطرّزة ، وخلال ، وعرق أخضر» ، ومنهم من أضاف إليها : كيساً لوضع التمباك ، ومسبحة .

وقد بحثتُ جدّاً لأقف على معنى هذه الهدايا فما أخذت جواباً يقنعني ، وأظنّ أنّها هدايا تتعلّق بالوليمة ؛ لأنّ الصّابون يصلح لتنظيف اليدين بعد الأكل ، والشُّورة لمسح الفم ووقاية الأثواب ، والخلال لأجل تنظيف الأسنان الأماميّة من طرفه الواحد وتنظيف الآذان لسماع آلة الطرب من طرفه الآخر ، والعرق الأخضر لتزال به رائحة الأكل من اليدين بعد التغسيل .. والله أعلم .

وبعد توزيع الهدايا يتلو النقيب الفاتحة فتكون خاتمة العمل .

4 – الوليمة

من الحضور من يأخذ بتهنئة المشدود بعد شدّه ، ومنهم من يباشر بالعراضة ، وهي رفع الأصوات بتهليل ؛ حيث يقولون مراراً عديدةً :

«صلّوا على عيسى وموسى ومكحول العين ، ومن يقدر يعادينا ، هه ......» .

وإن كانت الوليمة قد أعدّت في ذلك النهار فيجلسوا حالاً على الطّعام ، وإن كان تعيّن لها اليوم الثّاني أو يوم آخر فينصرفوا ويحضروا بالوقت المعيّن . ومن المشدودين من يكون قد أعدّ أيضاً آلة الطّرب قبل الأكل ، أمّا المُسكرات فلا دخل لها أصلاً في هكذا احتفالات ، وإذا أراد أحد من غير المسلمين أن يحضر شيئاً منها فيفعله سرّاً .

أما الأكل فيكون من أبسط المأكولات ، وعلى الغالب صفيحة وشعيبيّات بسكّر يصطلح أهل هذه المدينة على استحضارها عند الفرّانة ليخفّفوا بذلك الثّقلة عن أهل بيوتهم .

ويُسمّون الوليمة «التّمليح» أي : طعام الأصحاب من الخبز والملح ، ومنه يستعمل الفعلة فعل «ملّح يملّح» ، بمعنى عمل وليمة الشدّ ، ومنه (بعده) أكَلَ الوليمة ، ومنه معنى :

نصب عليه وأخذ منه دراهم فيقولون : فلان ملّح له بألف غرش ، أي : أكل عليه ألف غرش

ولا يخفى أن الخبز والملح أو الملح وحده هو من المواد التي يرمزون بها من أقدم الأزمنة إلى حسن السجايا وحفظ العهود . هكذا ورد في الإنجيل قول السيّد المسيح إلى تلاميذه : «أنتم مِلح الأرض فإذا فسد الملح بماذا يملّح؟» . وهكذا هوميروس يتكلم باحتقار عن الناس الذين لا يمزجون الأكل بالملح (الأوديسّة ، 6 : 123) .

وأفلاطون يسمّي «الملح» في تيماون - محبوباً عند الآلهة ، ومن الأقوال الدّارجة العربية : «الحكم ملح الأرض» و«ابن التُّرْك ملحه على ذيله» ، أي : أنّك طالما تطعمه يحفظ ما يقع علىأذياله من خبزك وملحك . وإذا قام يقع ملحك عليها ، أي أنّه ينسى ما أنعمتَ عليه به . وأيضاً : «يا حوينة الخبز والملح الذي أكلته عندي» ، و«تذكّر يا فلان الخبز والملح» .

والخلاصة : أنّ الملح له عند العرب واليهود واليونان كما وعند الرّوسيّين شأن عظيم ، ولا أعلم إذا كان هكذا الحال عند باقي الشعوب الشرقيّة والغربيّة .

5 - كلفة الشدّ

إن كلفة الشدّ تختلف بحسب درجة غنى المشدود من أربعين فرنكاً إلى مائة فرنك ، وهاك تفصيل ذلك :

إلى الشيخ : من 4 فرنكات إلى 10

إلى النقيب : من 2 فرنك إلى 6

إلى الشّاويش : من 2 فرنك إلى 3

أجرة الجنينة ومصروف الوليمة : من 21 فرنك إلى 81

6 – ملاحظات

أولا :

إن الروايات تختلف كثيراً في ترتيب الشدّ ، فمنهم من قال لي : إن توزيع الهدايا يسبق الشدّ وأخذ العهود ، ومنهم من قدّم أخذ العهود على تقديم النّصائح . وقد اعتمدت فيما ذكرت على ما ظننته أقرب للصّحّة .

ثانياً :

إن شدّ المعلّم ، أي انتقال الصّانع المشدود إلى درجة معلّم يختلف عن شدّ الصّانع بما يأتي :

أولا : أنّهم لا يسمّون له أباً بالكار .

ثانياً : أنّهم لا يربطون له المئزر .

ثالثاً : أنّهم لا يأخذون منه العهود بركوعه ، بل يكتفى بأخذ قول منه على أصول الكار والحرفة .

ومن الصّنّاع من يُشدّ في النّهار ذاته صانعاً أو معلّماً ، والطريقة بذلك أنّهم عندما يسأل الشيخ قائلاً : «ما قالت الإخوان ، هل يستحقّ مصانعة؟» يضيف إليه سؤالاً آخر قائلاً : «هل يستحقّ معلميّة؟» فإن كان مستحقّاً يجيبوه بالإيجاب ، وإلاّ فيقولون للطالب : «حاجتك هلّق مصانعة ، إنشا الله سنة الجاية تصير معلّم» أي يكفيك الآن أن تشدّ صانعاً ، فإن شاء الله في السّنة الآتية تصير معلّماً .

ثالثاً :

إذا كان المشدود لا يستحقّ أن يأخذ المصانعة ، فعندما يقول شيخ الحرفة : «ما قالت

الإخوان؟» فمعلّمه أو الذي يريد أن يعارض بشدّه يطرح بين أيدي الحاضرين صاية أو عملاً من شغله ، ويقول للشيخ ومعلّمي الحرفة : «احكموا بذلك إن كنتم منصفين ، هل يستحقّ هذا الرجل الشدّ أم لا؟» فيفحصوا العمل ، وإذا كان فيه ما يوجب تأخير المشدود فيؤخّروه ولا يخشون بذلك لومة لائم ؛ لأنّهم يفضّلون أن يبقى الكار سالماً من السّقط والشّوائب أكثر مما يحرِصون على خاطر أحد الصنّاع .

رابعاً :

من الممكن أن يشدّ كثيرون دفعةً واحدةً ، والعمل بذلك هو : أنّهم يوقفونهم بالوسط بالقرب من بعضهم ويشدُّون كلاًّ منهم بمحزمٍ ، ويجرون باقي الترتيب كما لو كان المشدود واحداً .

أما الهدايا وسائر المصروف والرسوم فتدفع محاصّةً ، أي : كلّ بقدر ما ينوبه منها .

خامساً :

إن المحترفين من كلّ المذاهب يشتركون بالشدّ ، أمّا المسيحيّون واليهود فلا يعطون شيئاً من العهود والإشارات ، بل يكتفى بشدّهم بالمحزم وبتلاوة : «أبانا الذي في السموات ... إلخ» وهم يسمّونها «فاتحة النّصارى» ، أو بتلاوة الوصايا العشر في شدّ اليهود . ويسمّون لهم آباءً بالكار من المسلمين ويأخذون منهم العهد والميثاق بأن لا يخونوا الحرفة ، ولا يضرّوا بالأموال والعباد .

سادساً :

إن حرفة البنّائين والنّحاتين الذين جميعهم من المسيحيّين لا يعرفون الشدّ ، ولا علاقة لهم بشيخ المشايخ ، فيقيمون منهم شيوخاً معلّمين ويضعون روابط لأنفسهم يصونون كارهم بها . ولهم الآن جمعيّة معلّمين مؤلّفة من اثني عشر عضواً تجتمع بالشهر مرةً ، وتعيّن رئيساً لها

في كلّ ثلاثة أشهر تبدله بسواه . ومن أخصّ واجباتها حفظ رابطة الكار ، وقد أفادني أحدهم أنهم إذا لم يقدروا على أن يصونوا رابطة كارهم من الأخلال ففي نيّتهم أن يذهبوا إلى شيخ المشايخ ليقيم عليهم شيخاً ، ويتردّدون بذلك هرباً من الدّخول تحت استئسار لا يسهل عليهم التخلّص منه فيما بعد .

إنّ النقيب نقض ما بلغني عنهم بأنّهم لا يشدّون قط ، وقال : إنّهم كانوا يشدّون قبلاً ثمّ تملّصوا من سلطة شيخ المشايخ ، وسأبحث عن ذلك .

سابعاً :

أذكر على سبيل التّفكيه – ولعلّ في ذلك أيضاً منفعةً – أنّ صنف المسخنين والمهرّجين أو الطُّفيليّة أو الظُّرفاء – كما يقولون عن أنفسهم – يدّعون أنّهم حرفة منتظمة لها مشايخ معلّمون وشاويشيّة ، وكان قبل سنة 1860 شيخ المسلمين منهم أمين آغا خُمْخُم ، وشيخ المسيحيّين يوسف شاتيلا ، وشاويش الكار جبران سبانخ . وأمّا بعد ذلك التاريخ فلت الكار ولم يعد له رابطة ولا أصول .

وكانوا يجرون شدّهم على طرقٍ هزليّة مفلقة ، وقد وقفتُ على بعض بعض ما كانوا يتفنّنون به في هذا الموضوع ، فإنّ الشدّ عندهم هو تمثّل لما هو جارٍ في سائر الكارات ، إنّما النّصائح التي يعطونها للمشدود هي :

«يا بني إذا فرغ جيبك استر عيبك ، واعلم أن المهرّج الشاطر من كان مثل الرماح على أكتاف الأجاويد فيقتضي أن تكون كالذئب تأخذ الريح عن الأعراس والولائم والسهرات فتذهب في كل مساء لقرب باعة الحلويات والمعجّنات والقشطة فترصّد من أتى وابتاع شيئاً منها فتعلم من ذلك أن عنده وليمة فتسرع حالاً إليها وتدخل على القوم بوجه باش ، ويكون في جيبك ألف قصّة مضحكة حتى لا ينشف وجه صاحب البيت منك وإن كان بخيلاً ، وإذا

صادفت أحد أولاد الكار فإياك أن تعاكسه بل اتفق معه على شِيّات [227] (أكلات) الغير ، وانتقل من القاعة إلى المطبخ بخفّة حتى تعلم ما الأكل المطبوخ وما الحلو المعدّ ، فإذا علمت أنّ الأكل أطيب من الحلو فقل لرفيقك عند جلوسك على الطعام : الصّلاة على الحاضر ، وإذا كان الحلو أفضل فقل له رامزاً بدون أن يفهمك سائر الحاضرين : أيها الناس إنّ الدّنيا لا تغني عن الآخرة ، واعلم أن اسم الكنافة عندنا : «مُخَيْطنة» ، والقطائف : «لزيقيّات» ، والمعمول : «ضربات الأنْجق» ، والهيطليّة : «ستي ازمقي» ، والعنب : «فُقّي» ، والعوّامة : «رصاص الأنبياء» ، والكوسا : «مدافع الجوع» ، إلخ» ، انتهى .

ويرفق الشيخ أو أحد المعلّمين كلاًّ من هذه النصائح والتعاليم بصفعة على رقبة المشدود يتلقّاها بالشّكر وهو صاغر ، إلى أن يتمّ الشدّ على هذا المنوال . ولا ينفعه الشدّ شيئاً سوى أنّه يعدّ حينئذٍ من معلّمي التهريج والأسخان لا ينازعه على كاره منازع .

الفصل السابع

في المكافأة والقصاص

إن الارتقاء إلى درجة صانع ومعلّم هو المكافأة العظيمة التي ينتظرها عَمَلة الحرف على اجتهاداتهم ، فلا وجود هنا للمعارض العموميّة أو الخصوصيّة ، ولا مسابقات ولا جوائز ولا من يضمن لمن أتى بتحسين أو اختراع في فنّه أن يحصل على مكافأة ماديّة أو امتياز يكفل له المستقبل وينشط غيره إلى الاقتداء به .

---

(227) شِيّات : مفردها (شِيَّة) تستخدم بدمشق بنفس معنى كلمة (بتاع) الشّائعة على السّاحل وفي مصر . وهي محرّفة عن (شيء) الفصحى . أما في فلسطين فيستعملون مرادفاً لها (قِيّة ، جمعها : قِيّات) ، (لاندبرغ) .

نعم في النظامات الجديدة خصص بعض من بنودها لهذا الموضوع ، إنما جرى ذلك مماثلةً بالنظامات الأوربيّة ، وعلّمتنا الحوادث أنّها بقيت في حقيقة الأمر حبراً على ورق مهملةً في زوايا النّسيان .

أما القَصاصات فقد وجّهوا إليها أفكارهم حفظاً لروابط الكارات وصوناً لأموال الناس ، وهي كثيرة ومتنوّعة ، وأذكر منها ما تمكنت الوقوف عليه :

(1) - في أكثر الكارات يطرد الخائن والسّارق طرداً باتّاً فلم يعد أحد من أهل حرفته يقبله ، بل إذا أرادوا فيجرون عليه حرباً شديدةً لأجل إسقاطه من كل عمل .

(2) - إذا ثبت أن أحد معلّمي الكار نقص الصّاية عن الطول أو العرض المألوف ، فكان يحضرها شيخ الكار ويقصّها ويعلّقها في السّوق فيصير صاحبها عبرةً لمن اشتغل .

(3) - إذا أدخل أحد الغش بالكار فكان يرسل الشّيخ شاويشه فيقفل دكّانه ولا يعود بإمكانه فتحها إلاّ برضى الشّيخ وأهل الحرفة .

(4) - إذا أدخل أحد الصّيّاغ الغشّ والزّغل في مزيج معادنه ، فكان شيخ الصّاغة يقلب له السَّندان على قفاه فيبقى مربوطاً عن شغله إلى أن يحصل على رضاه .

(5) - إذا ترتب الحقّ على أحد معلّمي الكار بأنّه أخلّ بالرّوابط فيعطونه عرقاً أخضر دلالةً أنّهم يكلّفونه بعمل وليمة ، وهذا يعادل الجزاء النّقدي وهو المصطلح عليه أكثر من غيره من أنواع القصاص .

(6) - من جملة القصاصات التي كانت جاريةً قبلاً أنّهم كانوا يقصُّون للمذنب خصلة من شعر رأسه .

* * * * *

الفصل الثّامن

مسألة وختام

هذا حدّ ما وصل إليّ من أخبار أهل الحرف الدّمشقيّة وما يتعلّق بها ، جمعتُه بسرعة كليّة كيلا يفوتني وقت اجتماع محفلكم الموقّر ، ودوّنته بهذه الكُليمات واعداً أن أجمع ما سأقف عليه من هذا القبيل إتماماً للفائدة .

وقبل الفراغ من هذا الموضوع ، رأيت من المناسب أن أضع لذاتي ولكلّ من شاء الدخول في هذا المبحث من الذّوات الكرام الأعلام المحقّقين الذين سيطّلعون على أعمال المجمع الشرقي العلمي في ليدن حلّ المسألتين الآتيتين :

أولاً : هل أن لهذا الانتظام في تراتيب الحرف في دمشق رباط تاريخيٌّ يربطها بالماسونيّة منذ القديم ؟ وإذا كان ذلك كذلك فالمراد تعيين الوقت والظّرف الذي حدث فيه الأمر المذكور .

ثانياً : إذا كان لا يوجد هكذا ارتباط فلماذا روعي في الحرف نفس الترتيب تقريباً الجاري في الماسونيّة ؟ هل أنّ هذا مجرّد صدفة أو أنّ ترتيب الماسونيّة كان منشأه في هذه الدّيار ؟ أرجو الجواب على ذلك [228].

---

(228) سبق أن شرحنا سبب هذا التشابه في مقدمة هذه النبذة ، وأن لا علاقة

* * * * *

ولمّا كنت حديث النّشأة قليل المعرفة ، فأختم خطابي بطلب المعذرة وغضّ الطرف عمّا تجرّأت اليوم عليكم به ، وبدخولي إلى هذا المقام الجليل ، وولوجي بموضوع لم أجد لي به معيناً في كتب السّالفين ولا دليلاً إلاّ ما تناقلته الألسنة من تقاليد الأقدمين ، فلا تحسبوه مني هوجاً إن رأيتم خللاً بالتعبير أو إخلالاً من التقصير ، فإنّ العصمة لله وحده – وهو الحكيم الخبير .

عن دمشق في 12/ آب /1882م

إلياس عبده قدسي

* * * * *

من مذكرات أبي

نوري بن أحمد أفندي إيبش آغا

لأنظمة طوائف الحرف البتّة بالماسونية . وعلى أي حال ، فهذا سيكون موضوع دراسة وافية لنا .

حكاية أبي السيفين

يروي المرحوم والدي نوري الإيبش هذه الحكاية ، وأذكر أن الفخر والإعجاب كانا يأخذان منه كل مأخذ وهو يترنّم بذكر وقائعها :

في أواخر القرن التاسع عشر ، كانت عائلة الإيبش [229] (أحمد أفندي وولداه حسين ونوري) تقيم بدارها الكبيرة المعروفة في حي سوق ساروجة ، وكانت على مقربة منها في ساحة البحصة البرّانية المطلّة على ساحة المرجة من جهة الشمال بقرب مبنى البريد والبرق ، كانت تُقام في العيدين والمناسبات الوطنية والدينية الأخرى حلقات الألعاب ومباريات السيف والترس .

ويحكي نوري أن والده كان يمنعه عن لعب السيف والترس ، ولكنه كان يلعب بالسرّ ، وكانت للأب سطوة كبرى وشخصية قوية نافذة ، كان حينما يدخل ساروجة من طرف حارة الورد أو العبيد يقال : «جاء أبو الشّوارب الذّهب» Altin biyikli geldi ، وكان مرهوب الجانب لا يجسر على مجابهته أحد .

(229) تعود أصول العائلة إلى بورصة ثم توطنت ديار بكر ، وكان جدّ العائلة «إيبش آغا» مرافقاً للسّلطان ابراهيم خان الأول (1640-1648 م) . والاسم في التركية تصغير ابراهيم .

والدي نوري إيبش في مطلع شبابه

1891 - 1975 م

ذكر بعض الأصحاب لأحمد أفندي أنهم رأوا ابنه يلعب في العيد وأنه كان شاطراً للغاية . استدعى الأب ابنه وقال له : نوري .. هل صحيح هو ما سمعتُ عنك ؟ تلكأت الإجابة بعض الشيء بين شفتي الفتى ، غير أنه لم يكن يألف غير الجسارة وعزّة النفس ، فقال : نعم

أفندم . لاحت بارقة رضا في محيّا الأب وابتدر ابنه قائلاً : أي نوري ، هذه اللعبة لا تتأتى بهذه البساطة دونما دراية وتدريب ، بل إن لها أصولاً وقواعد محكمة ينبغي للاعب معرفتها كلّها ، وإلا أدّى بنفسه إلى إصابة بالغة أو حتى إلى الهلاك . فإن كنت ترغب بتعلّمها فعلاً أتيتك بمن يعلّمك حسب هذه الأصول . قال الفتى ، والابتسامة ترقص على طيف الشاربين الغضّين : نعم أفندم ، أتمنى ذلك .

قال فطلب الأب أقدر معلّم للسيف والترس والحكم بدمشق ، وكان آنذاك رجلاً يدعى أبا خالد (ومع الأسف ضاعت من ذاكرتي ما كان يرويه أبي عن اسمه الصريح وحيّه بالشام) ، وكان أبو خالد ماهراً قوياً رشيق الحركة عارفاً بأصول اللعبة متمرّساً بفنونها ، وكان جميع معلمي الفن يدينون له بالأسبقية .

مكث الفتى نوري لدى معلّمه الجديد بضعة أشهر يتعلّم منه فنون اللعبة حتى أتقنها جميعاً وبرع فيها أيما براعة . وكان لا يصدق بلوغ ساعة الانصراف من مدرسته (العازارية) بباب توما ، حتى ينطلق عائداً لمعاودة تدريباته الصعبة والطويلة . واشترى له أبوه سيفاً أحدب ذا نصل أصيل من الفولاذ الدمشقي (جوهر ضبان) ذا قراب محلّى بالفضة من نوع (كسر جفت) الإسطنبولي ، مع توابع التدريب من الشيش وخيزرانات الحَكم .

مضت الأيام ، وسمع أحمد أفندي إيبش زاده بقدوم معلّم شهير من حلب إلى الشام ، وكان هذا المعلّم يمتاز عن أقرانه بأنه كان يلعب بسيفين لا بواحد ، استبدل الترس في اليد اليسرى بسيف آخر ، قال وكان يلعب بكلتا اليدين بنفس البراعة ، وإن لزم الأمر لعب باليمنى فقط أو اليسرى ، أو بالاثنتين معاً . ولم يكن في البلاد من يضاهيه بهذا الفن ، حتى أنه كان إذا هاجمه ثلاثة أو أربعة لاعبين هزمهم جميعاً بسيفيه . واسم هذا المعلّم كان : الحاج أحمد ، غير أن اللقب الذي غلب عليه كان : «أبو السيفين» .

انتقل نوري إلى التدريب على يدي أبي السيفين ، وسرعان ما ظهرت على الفتى علائم النجابة وأتقن الفنون الجديدة التي تلقّاها ، وصار يلعب بالسيف أو الاثنين بكل مهارة ودربة . غير أنه لم يكن يعرف أن هذا الأمر قد أوغر عليه صدر معلمه القديم أبي خالد ، ولكن الأيام الآتية ، كانت على أي حال كفيلة بكشف ما تخبئه الأقدار .

ففي أحد الأيام ، نُصبت حلقة الاحتفال بمناسبة حفل طهور ابن أحد أعيان الحي ، و لم تلبث ألعاب المثاقفة (المبارزة بالسيوف) أن سيطرت على الموقف ، وراح الغبار يتعالى مع صيحات التشجيع وأصوات صليل الشيش الفولاذي على الأتراس الحديدية . كان الفتى نوري واقفاً يتفرّج مع أقرانه اليافعين ، غير أنه لم يترل إلى الساحة حيث كان أبوه يشدد عليه دوماً في المنع . راح الشباب واليافعون يتسابقون للتنافس ، تلاحقهم صيحات التشجيع وتصفيق الأكف ، بينما كانت ثمّة بين الجمع المتراص عينان ما برحتا تراقبان الفتى نوري دون انقطاع ، كان ذلك معلمه القديم أبو خالد نفسه .

بحركة ملؤها الكبرياء والخيلاء ، اندفع أبو خالد إلى الساحة وراح يلوّح بسيفه بضربات سريعة شقّت الهواء بصفيرها الحاد الباتر ، ثم راح بين الفينة والأخرى يجلجل بضربات ظهر سيفه على ترسه المدوّر الصغير ، مُبدياً براعته وقاصداً تحدّي الموجودين من اللاعبين .

تسمّرت الأبصار في المعلّم الكبير ، فمن تراه سيجرؤ على منازلته وهو يتلك الشهرة الكبيرة والمهارة التي لم يصل إليها أحد في دمشق كلها ؟ أم هل تراه سيختار خصمه بنفسه ويسمّيه ؟ وإن فعل ، فكيف يجسر هذا الخصم المسكين على منازلته ؟ أما إن أحجم واستنكف ، فالأمر أدهى وأمرّ عليه ، وسيلحقه خزي ووصمة عار بوصفه خوّاراً جباناً .

نوري إيبش مع بعض رفاق الدراسة

في الجامعة الأميركية في بيروت ، عام 1908

لم يطل انتظار الحاضرين ولا حيرتهم ، إذ سرعان ما أعلن أبو خالد بصوت قوي ولهجة واعدة متهددة : يا نوري .. نزيل لقلّك ! وراح يحوم ويحوم في ساحة الصراع كالذئب الجريح ، وكأنما كانت تلكم اللحظة فرصته السانحة التي ما برح يرقبها منذ شهور طالت .

عقدت الدهشة لسان الفتى نوري وأقرانه ، فهو لم يكن يومها أكثر من غرّ يافع في الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة لم يكد يخطّ شارباه بعد ، فكيف تراه ينازل المعلم أبا خالد في معركة مشهودة من عشرات الحاضرين ؟ والنزال آنذاك لم يكن بالمناسبة كما نراه اليوم على شاشة التلفزيون ، كأشبه ما يكون بالرقص أو الحركات الإيمائية الاستعراضية ، بل كان بالفعل يأخذ شكل القتال الحقيقي وغالباً ما كان ينتهي ببعض الجراح وإسالة الدماء .

غلى الدم في عروق الفتى ، وبرغم تمسك بعض رفاقه بتلابيب قنبازه الحريري ، اندفع إلى الساحة مجرّداً سيفه ، وكان لا يختار دوماً إلا السيف الثقيل والكبير . هاهاً .. لاحت على محيّا أبي خالد ابتسامة رضا ممتزجة بالظفر ، فها هو الساعة سيُدرك ثأراً طال انتظاره ، فمثله من يُترك للّحاق بأبي السيفين ؟ أية إهانة تلك التي أصابته في الصميم !

ابتدأ النزال ببضعة حركات ، قام الخصمان من خلالها بالتحويم حول بعضهما ، وكانت عينا أبي خالد الباردتان تحملقان بعيني الفتى نوري ، وكأنهما عينا ذئب يوشك على نشب أنيابه الحادة بفريسة لا حول لها ولا قوّة . غير أن في نفس الفتى لم يكن ثمّة موضع للتراجع أو الذعر ، بل كان فخوراً بما تعلّمه طيلة الأشهر السابقة ، واثقاً من مقدرته على النّزال .

سرعان ما انهالت ضربات أبي خالد السريعة والقوية على متن ترس الفتى نوري ، الذي كان يلاحقها بالكاد لاهثاً ، ولا يجد من المجال متسعاً للردّ عليها .. ولم يلبث أن فهم أن أبا خالد ينوي تحطيمه وتلقينه أمام أخدانه درساً قاسياً يرمي به إلى الحضيض . راح «يكعره» إلى الحائط ويقسو عليه بضربات مخيفة لو أن ترسه أخطأها لمزّقت أحشاءه ، أو لبترت إحدى يديه ، أو لشوّهت وجهه على الأقل .. لم يكن في الأمر لعبة وإنما كان نزالاً حقيقياً ، المقصود منه هزيمة ساحقة للأقل ضراوة .

لمعت عينا والدي هنا وهو يحكي لي : لمّا رأيتُ الموقف كذلك أيقنتُ أنني غير ناج إن أنا اقتصرت على الدفاع وتشتيت حركة جسمي بيسراي التي تحمل الترس . كان لا بد من الهجوم ، الذي معناه انكشاف دفاعي للحظات ربما تكون كافية لإصابتي بضربة قاتلة . ولكن ، هل هنا موضع للتردّد أو التفكير ؟ الفارق بين الفوز والهزيمة جزء من لحظة واحدة ، فإما لحظة إقدام أو تردّد . حزمتُ أمري وشددتُ أعصابي وغلى الدّم في عروقي ، و«دحمتُ» على أبي خالد وضربته «كعب» برجله ، ثم أتبعته بحركة «داور برّاني» [230] بارعة ، فما كان منه إلى أن تراجع إلى الوراء للمرة الأولى منذ بدء النزال .

---

(230) هذه التعابير والمصطلحات بحاجة لتفسير من قبل أحد الخبراء العارفين باللعبة .

كانت تلك فرصتي الوحيدة ، فقلت له : «وقّف لقلّك» ، وبدأت أنهال عليه ضرباً بسيفي الثقيل بكل ما أوتيته في أكتافي وأذرعي وزنودي من قوّة ، حتى «كعرته» إلى اتجاه الحائط ، ثم لما لاح لي أخيراً انخفاض يسراه إلى مستوى خاصرته ، عاجلته بضربة باترة على مستوى رأسه ، شرطتُ بها هامته بذبابة السيف بعرض شبر ..

رمى أبو خالد السيف والترس إلى الأرض ، وأمسك برأسه ، وكان يلبس «قنباز روز» أبيض فتسربل بالدم حتى زنّاره . وركض من فوره إلى أحمد أفندي والد الفتى ، ففوجىء ذاك به وقال : «شبك أبو خالد ؟» . قال له : «يا أبو حسين ، ابنك دبحني» .

نادى الأب على الخدم : خذوه فاغسلوا جراحه ونادوا على الطبيب ليفحصه ويخيط الجرح . وتبيّن لحسن الحظ أن الشطبة كانت سطحية غير نافذة ، ولو كانت بحد السيف لقتلته حتماً .

يروي أبي : لمّا انتصرتُ على خصمي الذي يفوقني كثيراً بالسنّ والقوة والخبرة ، وقفتُ وسط الساحة وقد انتفخت أوداجي وأنا أنفخ بزهو الانتصار ، بينما راح رفاقي يصيحون مبتهجين بكل تحدّ للاعبين الكبار : «أيوه .. الشغلة مو بكبر اللّفة ولا بكبر الدّقن» .. ثم يردفون صائحين : «نوري .. نوري .. نوري ..» .

قال أبي : يومها لم تكن خشيتي من التزال كخشيتي ساعة أدخل البيت على أبي ، فما هو ردّه سيكون ؟ غير أنه تابع : ولكن على غير المتوقع ، لم يأت أبي أمامي أبداً بذكر الحادثة ، وعلمت أنه تعمّد ذلك لئلا يكون سبباً في إصابتي بالتقاعس إن هو حمل علي باللّوم ، أو تجريئي على أذيّة الناس إن هو امتدح فعلتي .

* * * * *

أخيراً أقول :

كم كان فرحي كبيراً عندما عثرتُ بمحض المصادفة على صورة قديمة ، من مجلة

National Geographic الجغرافية الأميركية تعود إلى عام 1900 ، صوّرت في معرض دولي أقيم في شيكاغو وشاركت به دمشق ، ومن بين المشاركين كانت فرقة الحاج أحمد الشامي (أبو السيفين) . وعادت بي الذكريات إلى هذه القصة التي ألقاها أبي على مسامعي منذ أكثر من ثلاثين عاماً ، فقلت : آن الأوان لأن أكتب هذه القصة الطريفة ، فها هي ذي وتلك هي الصورة .

وأما تاريخ الحادثة ، فكانت بحدود عام 1904 أو 1905 ، على اعتبار أن ولادة أبي كانت في عام 1891 ، وكان يذكر أن عمره حينها يقارب 13 أو 14 سنة على أبعد تقدير .

الرياضة بدمشق

في مطلع القرن العشرين

وجدنا في مذكرات فخري البارودي [231] (1 : 45) نصاً يتمّم حكاية والدي عن السيف والتّرس والحَكم ، وكذلك فيها ما يخص رياضة كرة القدم ، التي كان أول من أدخلها إلى سورية عمّي حسين الإيبش في عام 1900 [232].

الفوتبول بدمشق

أما كرة القدم وكرة السّلة فلم نكن نعرفهما . وإني أذكر أن أول لعبة «فوتبول»

---

(231) مذكرات البارودي ، ستون سنة تتكلم ، دار الحياة ، بيروت ودمشق 1951-1952 .

(232) سأقوم في كتابي القادم «سقى الله هديك الأيامات يا شام» بتدوين بعض ذكريات عمي حسين الإيبش بدمشق في أوائل القرن العشرين ، وهو البطل العتيد الذي ذاع صيته في سورية ولبنان ، حتى تحوّلت سيرته إلى ما يشبه الأساطير .

رأيتُها في دمشق ، كانت تمريناً يقوم به الأخوان نوري وحسين الإيبش في مرجة الحشيش قرب «صدر الباز» ، وكان هناك جسر على نهر بردى ، وميدان فسيح للعب الجريد .

وأذكر أن الكرة سقطت يومئذ على رأس أحد المتفرّجين ، المرحوم نعيم الغزّي – وكان من المتعمّمين – فضغطت عمّته على رأسه إلى ما تحت أذنيه . وكان بين المتفرّجين حقّي باشا مشير الشام ، فضحك حتى وقع طربوشه في العربة . وقد شاهدتُه بنفسي ، لأنني كنتُ واقفاً مع وكيل خرج دارنا أمين آغا إلى جانب عربة المشير .

وقد تعلّم السيّد نوري الإيبش يومئذ هذه اللعبة من الجامعة الأميركية في بيروت ، إذ كان طالباً فيها .

السّيف والتّرس

كانت لعبة السيف والترس في ذلك العهد ، أكثر الألعاب انتشاراً بين الدمشقيين ، توارثوها أباً عن جد ، لأنها تعلّم الشباب الرّجولة والخفّة ، وتروّض الأجسام ، وتعوّد الشباب على الصّبر ، ولها أصول ثابتة لا يمكن الخروج عنها . ويشترك في هذه اللعبة من اثنين إلى خمسة لاعبين ، فإذا لعب اثنان حمل كل واحد منهما سيفاً وترساً ، وقد ينضم إليهما ثالث يحمل سيفين ويتوسّط اللعب . وإذا لعب خمسة ، ترأس أحدهم المعركة وحمل سيفين في آن واحد وتوسّط اللاعبين [233] .

ويكون اللّعب على الأكثر حبّياً ، أما إذا وقع خصام بين لاعبين ، فإنه ينتهي إلى حادث مؤلم . وكان من الرؤساء المشهورين لحلقات السيف والتّرس أبو سعد الخضري ، أبو شاكر مسلّم الخانجي ، الرّيس العبسه الميداني ، أبو علي الصبّاغ ، أبو علي القبّاني ، أبو صالح رشيد الخجا ، أبو عزّو حسن الأرناؤوط ، أبو عادل السّروجي . وأكثر هؤلاء انتقلوا إلى رحمة الله .

---

(233) هذا يقابل ما كنا ذكرناه أعلاه عن أسلوب اللعب بالسيفين .

من تقاليد لعبة السيف والتّرس «الشدّ» [234]، وهو أن يقطع رئيس اللعبة على التلميذ الجديد عهد الولاء ، وبعد ذلك يكرّسه لاعباً رسمياً ، ويناديه بلقب «ابني» ، وكانوا يسمّون التلميذ بالشراق ، وهي كلمة فارسية تعني المولى .

وتجري هذه المراسم بحضور رؤساء هذا الفنّ من جميع الأحياء ، فيقرأ الرّيس دعاءً مخصوصاً لهذه اللعبة ، وهو : «بعد الفاتحة ، سبحان أبديّ الأبد ، سبحان مَن بَسَط الأرض على ماء جَمَد ، سبحان مقسِّم الأرزاق ، من لا ينسى من فضله أحد ، سبحان من ذاته وصفاته ، قُلْ هو الله أحد» . ثم ينادي بأعلى صوته : «صحائف النبي (ص) ، صحائف «العشرة المبشّرة بالجنّة» من الصحابة الكرام ، صحائف الأسد الكرّار علي بن أبي طالب ، ابن عم النبي المختار ، رضي الله عنه وكرّم وجهه ، صحائف فاتح الشام أبو عُبيدة الجرّاح ، صحائف سيف الإسلام خالد بن الوليد رضي الله عنه ، صحائف فلان وأبي فلان وأبي فلان» .. ويعدّد أسماء أبرز الحاضرين من وجوه المحلاّت .

ثم يفتح بقجة من الثياب ، فيها قنباز حريري يسمّى بالصّاية ، وشَملة ، فيُلبسون التلميذ الصّاية . ومتى زنّروه بالمَشلح دخل في جملة اللاعبين ، ويقرأون الفاتحة ، ويصبح الشاب بعد ذلك لاعباً ، ويمكن أن يشترك في طوابق اللعب !

لعبة الحَكم

لعبة يتمرّن عليه أولاد الأحياء ، تمهيداً لانتقالهم إلى لعب السيف والتّرس . ولا يتمكن لاعب السيف من إجادة لعبته إلا إذا تعلّم الحَكم .

عدّة هذه اللعبة هي درقتان من جلد ، محشوّتان بالصوف أو القطن ، وللدرقتين مقابض يتّقي بها اللاعب ضربات خصمه . والدَّرقة الواحدة اسمها «حكمه» ، واللعب يكون بقضيب من الخيزران أو السّفرجل .

---

(234) وهنا نعود إلى ما كان طالعنا في مبحث طوائف الحرف بدمشق «نبذة تاريخية» .

وهذه اللعبة تربّي في الشاب عضلاته ، وتعلّمه على الشجاعة والصّبر ، وهي من أنفع الألعاب . وليت النوادي تعيدها سيرتها الأولى !

* * * * *

الهواء الأصفر بدمشق

عام 1906

بين أوراق والدي القديمة ووثائقه وصوره ، عثرتُ على دفتر رثّ قديم ، يعود إلى ما قبل 95 عاماً ، وقد كتب عليه والدي بخطه الجميل بالرُّقعة : «دفتر فرض العربي خاصّة نوري إيبش» .

وفهمتُ أن الدّفتر كان من جملة دفاتره في الصف الخامس ما قبل الحلقة الاستعدادية (freshman) في الجامعة الأميركية في بيروت ، التي كانت تُدعى آنذاك في أيامه [235]: «الكلّية الإنجيلية السّوريّة» .

أما النص الذي ننقله هنا من الدفتر ، فهو موضوع إنشائي كتبه كوظيفة ، وأتى فيه بذكر لمحة عن حياته بالعقد الأخير من القرن التاسع عشر ، ومطلع القرن العشرين . وأهم ما فيه ذكره لحادثة انتشار وباء الكوليرا (الريح الأصفر) بدمشق في عام 1906 . لكن ما يشوّق فعلاً ، هو تأثّر كاتبه بالأسلوب الأدبي المعهود لدى لحكواتية ، فحاول فيه أن يأتي بما يضارعهم . وكان تدوين النص – كما يتضح – في شهر تشرين الأول من سنة 1907 .

---

(235) بالإنكليزية : Syrian Protestant College .

لمحة عن تاريخ حياتي

ولدتُ في دمشق الشام ، سنة ثلاث ماية وستة هجرية ، وأخذ أبي وأمي يربّوني حتى بلغتُ السابعة من عمري ، فعندئذ أدخلوني أحد المدارس الإبتدائية ، ومضيت هناك نحو سنتين ، وبها تعلّمتُ قليلاً من القراءة والكتابة العربية .

وقد انتقلتُ من تلك المدرسة إلى المدرسة العسكرية ، ومضيتُ فيها نحو ثلاث سنوات بتعلّم اللغة التركية والنظامات العسكرية .

ولّما خرجتُ من تلك المدرسة ، دخلتُ مدرسة الآباء العازريّين ، وتعلّمت بها اللغة الأفرنسية والصَّرف العربي وبعض أشعار من مجموع مجاني الأدب . ومدّة قعودي بها سنتين ونصف ، وعدم تكميلي نصف السنة الأخيرة هو وجود الرّيح الأصفر .

وهذا الوباء قد أتى من جهة يافا والخليل ، بعدما ترك منهم القليل ، وأتى إلى الشام وقد شيَّد من الأوساخ جيوشاً وعساكر ، ومن المكرُبات أبطالاً وعناتر . وجعل يضرب بحسامه يميناً وشمال ، ولم يرفق بحال الشيوخ والأطفال . فعند ذلك ، انتقلت عائلتنا جميعاً إلى القسم العلوي من الشام ، وهو الصّالحيّة ، وجعلنا لا ندخل لعند أحد ، ولا أحد يدخل لعندنا . ولم نأكل شيء لا يدخل النار .

ولّما خلصت تلك السنة ، دخلتُ هذه المدرسة التي تساما ذكرُها على كل المدارس ، بعلومها ومعلّمينها وقوانينها وتلامذتها . وأوّل ما دخلتُ الصف الثاني ، وجعلتُ أنتقل من صفّ إلى صفّ ، حتى وصلتُ إلى الصفّ الخامس ، ولم أزل الآن فيه [236].

---

(236) هذا غيض من فيض من مذكرات أبي نوري بن أحمد أفندي الإيبش (1891-1975) ، وكانت له موهبة رفيعة في رواية أحداث عصره ، تدعمها ذاكرة طيّبة . أذكرُ كنتُ في طفولتي مغرماً بالإصغاء إلى حكاياته ونوادره الممتعة ، وبخاصة أنه عاصر كل الدول التي تعاقبت على سورية ، إبّان أواخر عهد الدولة العثمانية ، والدستور ، وعهد الاتحاديين ، والانتداب الفرنسي ، والعهد الوطني برمّته حتى وفاته في 8 شباط من عام

1975 ، عند بداية الحرب الأهلية اللبنانية . كان نوري الإيبش شخصية نادرة ومرموقة ، ترك مذكرات مكتوبة وشفاهية ، سنعمد إلى نشرها بعنوان : «مذكرات نوري الإيبش ، صفحات من التاريخ الاجتماعي والسياسي لسورية ، 1891-1975» .

فصول الكتاب

هذا الكتاب 7

شكر ورجاء 11

أحلام اليقظة 12

مُلَح ونوادر من كتاب المختار في كشف الأسرار وهتك الأستار 17

دمشق في أواخر العهد المملوكي ، من كتاب نزهة الأنام للبدري 33

وصف دمشق من خلال نصوص نادرة لرحالين أوروبيين 83

مقولة كشف اللثام عن أحوال دمشق الشام ، لأديب حلبي 101

من مذكرات جدّة أمي ، فاطمة بنت محمد سعيد البديوي 149

موكب الحجّ الشامي ، صورة من الحياة الاجتماعية بدمشق 197

طرائف من كتاب مجمع المسرّات ، للدكتور شاكر الخوري 209

نبذة تاريخية في الحرف الدمشقية ، لالياس عبده قدسي 221

من مذكرات أبي ، نوري بن أحمد أفندي الإيبش 269

* * * * *

وكان الفراغ من تسطير هذا الكتاب وتحريره بمحروسة دمشق الشام ، في السابع والعشرين من أيلول ، من شهور سنة ألفين واثنتين للميلاد ، على يد مؤلفه ، والحمد لله على ما وفّق وأعان .